السِرُّ المُخبأ أمامَ الأعين

فريق
متميزون
E-BOOK

الكتاب الأول

لمسة الهلاك

عارف فكري

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

مع خالص الشكر والتقدير للأستاذ (عارف فكري) مؤلف الكتاب لإهداءه نسخة إلكترونية من الكتاب، وموافقته على النشر (بالصيغ النصِّية) بقناة فريق (متميزون)

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

لمسة الهلاك

«الكتاب الأول»

(السِّر المُخبَّأ أمَام الأعيُن)

رواية..

عارف فكري

عن الرواية..

تعود" سارة نعمان" من غيبوبة طويلة؛ لتجد عالمها قد تغير عن ذي قبل؛ فقد تزوج زوجها مرة أخرى بعد أن طلقها، ومات والداها من الحزن عليها، وانحدر مستواها المادي. لكن المشكلة الكبرى تكمن في ذلك الشرّ الذي راح يحوم حولها؛ شرٌ مخيفٌ غامضٌ، يهدد وجودها ذاته. هل تستطيع "سارة" الصمود أمام هذا كله، أم يكتسحها الشرّ ويهزمها شرّ هزيمة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنويه أول:

أي تشابهٍ بين أحداث وشخصيات الرواية وبين الواقع؛ فهو من قبيل الصدفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

وجهه شاحب، عيناه تائهتان.

لم تكن الحاجة نيِّرة تحتاج لأكثر من نظرة واحدة إلى ابنها الأصغر سامي، حتى تعرف بأنه ليس بخير.

نعم، هو يحمل نفس الملامح؛ الوجه العريض، والجسد الفارع الضخم الذي ورثه عن والده، والندبة الغريبة في جبينه، والتي ظهرتْ له قبل رحيل أبيه بفترة قصيرة، وقال بأنها مجرد حادثة.

لكن أبرز ما في سامي هو الصوت الجهوري الذي لا يكفُّ عن بثِّ المرح والحيوية في أرجاء المنزل، وإلقاء الدعابات، والقهقهات العالية التي تعقبه؛ سواء أكانت صادرة من سامي نفسه، أو ممن تصيبه نكاته بهستيريا الضحك هو الآخر.

كان هذا قبل وفاة والده عزت شعبان، لكن منذ رحيل هذا الأخير تغيَّرت الأمور، وهي تتذكر كيف كان سامي ذاهلًا ضائعًا، وهم ينقلون جثة زوجها من الفيلا الفاخرة بمدينة سوهاج، إلى قريته التي ولد فيها بنفس المحافظة، وبمرور الوقت راح الوضع يتفاقم، حتى اقترحتْ عليه أن يزور قرية والده؛ على سبيل تغيير نمط حياته الذي صار سوداويًا في الفترة الأخيرة.

كانت القرية بها بعض المزارات الشيِّقة، والتي قد تجذب انتباه شاب مثله؛ مثل الجبل الذي تُطلُّ عليه القرية، وبعض المعابد الفرعونية، لكن يبدو أن الرحلة لم تُجدِ نفعًا معه؛ فها هو ذا يعود، وهو أسوأ مما مضى.

سأله سيد:

"هل زرتَ أعمامك في القرية يا سامي؟ هل صعدت الجبل؟ أتمنى لو تسلقته يومًا، وإن كنتُ أعلم أن أنفاسي ستنقطع من شدة التعب".

أومأ الشاب ذو الثمانية عشر عامًا برأسه عدة مرات، إيماءات شاردة، حتى أن سيد تساءل إن كانت الإيماءات هنا تعني الموافقة كما هو متعارف عليه، أم أنها تعني شيئًا آخر؟ في العادة هو لا يكتفي بالإيماءات، بالأحرى هذا التصرف لا يوجد في قاموسه أصلا.

في ظروف أخرى، وعندما كان يُلقي سيد هذا السؤال على شقيقه سامي؛ كان الأول يتوقع من الثاني سيلًا من التفاصيل، طوفانًا من الحماس الذي سيجرفه هو شخصيًا، ويحوله من شخصية رصينة عملية، إلى شخص آخر يستخفه الطرب، وتلمسه عصا أخيه الأصغر الساحرة؛ فيغدو نسخة منه، ولو لبضع ساعات، وكانت

زوجة سيد تحب هذا التغيير، وكأنها ضجِرتْ من التعقل والرصانة الزائدين عن حدهما في شخصية زوجها.

هذا هو السحر الذي يفعله سامي في المكان.

لكن للأسف كل شيء تغيَّر بعد موت أبيه، وكأن الحزن لمس المنزل بعصاه، وقرر أن يترك بعضًا من أثره المقبض هناك بعد رحيله.

عانق سامي أمه، ومع عناقه البارد انقبض قلبها، ثم عانق سيد بطريقة آلية، بينما صافح بقية الموجودين. شقيقته سعاد لم تكن موجودة؛ فقد كانت في زيارة لصديقة لها، ستعود قبل التاسعة مساء، كما هو القانون الذي وضعه سيد، باعتباره المسئول عن المنزل، وإن كانت أكبر سلطة هي والدته.

"مالك يا ولدي؟ هل أنت بخير؟".

كانت تعرف أنه ليس بخير، لكن سؤالها كان يُقصد منه أن تعرف، وبشكل ما كانت تعرف؛ بأنها لن تخرج منه بشيء. وصدق حدسها؛ فقد اكتفى بأن ألقى نظرة شاردة على السقف، وكأن شيئًا يقبع هناك.

سيد نفسه توجس خيفة. اقترب من أمه وهمس:

"كل يوم يصير سامي أسوأ من اليوم السابق له يا أمي".

"قلبي يأكلني عليه".

قال سيد متساءلا:

"ماذا سنفعل؟".

رمقته بصمت. ما أكثر اختلاف أولادها.

عندما مات زوجها عزت منذ عام تقريبًا؛ وجد سيد نفسه هو منْ يتولى زمام كل شيء.

الحقيقة أنه مُعدٌّ لتحمُّل كل شيء منذ صغره؛ حيث علَّمه والده كل صغيرة وكبيرة في سلسلة المصانع التي تحمل اسم العائلة. إنه يعرف كل شيء في العمل، كيف يُدار باحترافية، هكذا تربَّى وتعلَّم، لكنه مختلف عن والده، الذي كان جبَّارًا، ذا كاريزما عالية، وشخصية سلطوية في البيت والعمل، دقيقًا، ابن سوق، مخيفًا إلى حدٍّ كبيرٍ. كان سيد شبيهًا بأبيه في إدارته للعمل، لكنه لين ومرن في كل شيءٍ آخر.

ابنتها الوسطى سعاد على النقيض؛ محبة للكتب لحدِّ الوله، ولكمْ شاهدتْ مشاجرات لفظية بين سيد وشقيقته سعاد، لم يفز أحدهما فيها، مجرد مناقرات عائلية

كتلك التي تحدث بين الإخوة، ومع ذلك كانت شاهدة على شدة التباين بينهم جميعًا.

"لم تجيبيني يا أماه".

سيد ما زال ينتظر. ملامح وجهها أبانت عن الخوف الذي تشعر به. أشارت بإصبع مرتجفٍ إلى سامي، الذي كان لا يزال يحدق في السقف، وكأن شيئًا استرعى انتباهه هناك، أو أنه يري ما لا يرونه، وقالت:

"هل من عادة أخيك أن يفعل ذلك؟".

هزَّ رأسه نفيًا. هو يشعر بالغرابة أيضًا. رأي أن يُدلى بدلوه:

"هل أعلن عن حبه لفتاة ورفضته مثلًا؟".

استنار وجهها، وكأنها وجدت تفسيره العقلاني هذا سببًا في أن ينقشع الخوف المُبهم عن قلبها. لكن غريزتها كأم رفضتْ هذا التفسير؛ فقالتْ معترضة:

"ومنْ هذه الجاحدة التي ترفض ولدي؟ هل ينقصه شيء؟".

تنهد، وابتسم على الرغم منه. نهض من مكانه، وقد وجد أن الطريق المستقيم هو أقصر نقطة للوصول للهدف. هكذا تعلَّم في الشركة، حيث تقوم سياسته على طرقِ الحديدِ وهو ساخن.

جلس أمام سامي، وقال وهو يرسم ابتسامة مطمئنة تمرَّس عليها كثيرًا أمام المرآة:

"هل هناك ما يضايقك يا سامي؟".

ابتسم سامي وقال:

"ما الذي يدعوك لقول هذا؟".

يكاد سيد يجزم بأن الابتسامة التي ظهرت على شفتيِّ شقيقه الأصغر مجرد ابتسامة خاوية من الحياة.

"أنت لست على عادتك منذ شهور يا أخي، وكلما سألتك؛ لا تجيب، وها أنت ذا في حالة مزرية أكثر من ذي قبل".

تنحنحت أمه، وكأنها تُرسل له رسالة خفية بأن يكون أكيس من ذلك. وجد نفسه يبتسم مجددًا:

"أخبرني بما يشغل عقلك. أيا كان السبب فسوف أساعدك على إزالته".

نفس الابتسامة الخاوية التي لم تختف بعد. سامي يهز رأسه، وكأنه يطمئن شقيقه الأكبر:

"لو كان هناك شيء؛ لكنتُ أخبرتك به. هو مجرد إرهاق من طول السفر ليس إلا. اطمئن".

تفحصه سيد دون أن ينطق بكلمة مجددًا. يسأله عن سرِّ تغيِّر حاله المزمن؛ فيعزو هذا لإرهاق السفر؟ كان يعرف بأن سامي يكذب. هو خبير بخلجات الوجوه، وخبرته تقول له بأن أخيه الصغير يحمل الآن وجه كاذب. لكنه لم يضغط أكثر. نهض، وقال وهو يمدُّ يده لأخيه:

"قم واسترح إذن، حالما يُعد لك الطعام".

نهض سامي دون أن يمد يده، وقال:

"لستُ جائعا. أريد أن أنام فقط".

واتجه للطابق العلوي حيث توجد حجرته. راقبه وهو يصعد، ثم يختفي عن ناظره. أتاه صوت أمه المصمم:

"سامي ليس بخير".

وقد وافقها سيد في قرارة نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأيام التالية انتقل الوضع من خانة الحدس والقلق غير المبني على قرائن مؤكدة، إلى خانة التأكيد الذي لا شكَّ فيه.

كانت القشَّة التي قصمتْ ظهر البعير عندما دخلت أمه حجرته ذات ليلة، وهي تتوكأ على عكَّازها.

طرقت الباب عدة مرات دون استجابة من ابنها، حتى أنها قد شكَّتْ أنه بالخارج مع أصدقاءه. لكنها سمعتْ حركة ما، أنبأتها بأنه ما زال موجودًا بالداخل.

دفعتْ الباب بحذر، وهي تبتلع ريقها بتوتر، هي نفسها لم تعرف سببه.

لكن عندما رأته راقدًا على الأرضية، يُحدّق في السقف، وهو يزوم وجسده يتحرك بطريقة رتيبة مُنغّمة؛ هنا لم تجد نيِّرة مناصًا من أن تُطلق صرخة فزع أيقظتْ ابنها سيد وزوجته وولديه الصغيرين، وتصادف أن كانت حماته موجودة من البارحة، وبالتالي فقد امتلأ الممر بالجمع المحتشد، وهم بأردية النوم، وشعورهم المنكوشة، وعلامات الحيرة والخوف والترقب على وجوههم، وسيد يندفع وسطهم

بقامته الفارعة حتى دخل حجرة أخيه، حيث كانت أمه منكبَّة على سامي، وهي تلطم حرفيًا.

كان رأي الأم واضحًا لا جدال فيه: لقد لُبِس ولدها بعفريتْ! كان سيد خريج تجارة، يكره الكتب، وعملي إلى حدٍّ كبيرٍ، وقد تعلَّم منذ زمن طويل ألا يجادل في المعارك الخاسرة، وهي ليست خاسرة بذاتها، لكنها خاسرة لأنه لن ينتصر فيها، وسينكشف فيها جهله، وهو بعدم جداله هذا يقرّ بضحالته هذه دون أن يُنقص من هيبته شيئًا، والعجيب أن هذه السياسة جعلته محبوبا لدى الجميع، بدءًا من والده عزت، والذي كان يتعامل مع سيد على أساس أنه امتداد لا بأس به لشخصيته الكاريزمية الساحقة، مع تحفظه وتبرمه من بقية صفات سيد التي لا تعجبه، ومرورًا بكل من يتعامل معهم سيد في الشارع والعمل وزمرة الأصدقاء، وانتهاءً بأفراد عائلته.

لهذا عندما قالت أمه بأنه" ممسوس" كما هو منتشر في الثقافة الشعبية المصرية؛ أومأ برأسه دون أن يناقش، وقد قرر أن يتولى الأمر.

بينما كان سامي في سريره ما زال يحدّق في السقف بعينيه الثابتتين بشكل مزعج، وبينما كانت نساء العائلة يبكين، كان سيد يتحرك بشكل عملي، ويُجري اتصالاته مع الشيخ فلان، والشيخ علان، وهكذا، وعلى مدارِ أسبوع لم يكفُّ هؤلاء الشيوخ عن الحضور، وفحص المريض، وطرح حلولهم العلاجية المؤكدة لحالته، ولسببٍ ما غامضٍ متوقع؛ لم تؤت حلولهم ثمارها، بل ظلّ الفتى على صمته المُريب، برغم آلافات الجنيهات التي صُرفتْ، والأشياء الثمينة النادرة التي جُلبتْ.

وحتى عندما صرختْ الحاجة نيِّرة ذات يوم؛ بأنهم نصابّون لا جدوى منهم، لم يُعقب سيد ولم يعترض، ولم يبدُ عليه أنه سيقول شيئًا.

كل ما كان يعرفه أن عليه أن يفكر في حلٍ جديدٍ، قبل أن تقضي أمه نحبها حزنًا، وهو- كشخص تعوَّد على حلّ ما يقابله من مشاكله دون تأجيل- لم يتعود على الاستسلام، ولم يرض أبدًا بأن يقف مكتوف اليدين أمام أي حائط يقابله.

وبعد بحثٍ واستقصاءٍ؛ وصل إلى ذلك الشخص.

قال لأمه بحماس، حرص أن يكون مدروسًا؛ بحيث يشجعها على التجربة، ودون أن يعطيها أملا زائفًا بشفاء سامي:

"إن الجميع يشكر فيه، وهو قادر على أن....".

قاطعته أمه:

"بما يختلف عن هؤلاء الشيوخ النصّابين يا ولدي؟".

"إنه لا يأخذ مالًا إلا بعد أن يتم الشفاء، برغم أن طريقته في العلاج غريبة؛ فهو...".

قاطعته:

"أحضره إذن، ولعلَّ الشفاء يكون على يديه".

كانت الطريقة الوحيدة للتواصل معه عن طريق البريد الإلكتروني، وهو يستخدمه كثيرًا في العمل؛ فلم تعد أمامه مشكلة إذن في أن يجلس ويكتب رسالة واضحة ومختصرة، وفي آخرها وعد بمكافأة كريمة لو تحقق الشفاء.

وصله الرد من الرجل بالموافقة بعد ساعتين. جعله هذا يشعر بالشكّ قليلا، وكأن الرجل لو تمنَّع بعض الشيء، وأبدي انشغاله؛ سيكون الأمر مقنعًا أكثر. لكنه يعلم أيضًا، أن الرجل لا يطلب مالا إلا بعد حدوث الشفاء. هذا طمأنه قليلا. أرسل العنوان، وفي اليوم التالي وصل نديم شوكت.

متوسط القامة، أنيق الملبس بدون بهرجة، مع ابتسامة هادئة على شفتيه بطرف فمه الأيسر. كانت ملامحه أقرب ما تكون لملامح شخص تعلَّم أن يُحافظ على انفعالاته بداخله، ولا يُبدى منها إلا النذر اليسير، وهذا أزعج سيد بشدة، برغم أنه يفعل نفس الشيء في أعماله!

لكن هذا لم يمنعه أن يستقبله بترحابٍ، وكانت الأم تجلس في ركن الصالة الواسعة، واضعة رأس عكازها تحت ذقنها، وهي تستمع إلى الطريقة التي يعالج بها ذلك الشيخ المودرن مرضاه، والحقيقة أن أم سامي لم تفهم حرفًا مما قيل، وبرغم الاهتمام على وجه سيد، ومتابعته لكلِ كلمة يقولها الضيف الجديد، إلا أنها تكاد تجزم بداخلها أنه لم يفهم هو أيضًا حرفًا من الثرثرة المنمقة التي يقولها نديم هذا.

"متى يبدأ؟ "

هكذا تساءلت نيِّرة في سرها. بعد دقائق كان يشق نديم شوكت طريقه لغرفة الفتى. كانت نيِّرة قد جعلتهم ينقلون محتويات حجرتها بالطابق الأرضي إلي حجرتها القديمة بالطابق العلوي، والتي ظلت خاوية على عروشها بعد أن تركتها، عقب وفاة زوجها عزت، وكان هذا مفهومًا؛ فقد كانت الحجرة تحمل لها ذكريات مريرة؛ بعد أن مرض زوجها في أواخر أيامه، وتحوَّل إلى جسد ممصوص فقد الكثير من وزنه، يرقد طول الوقت في سريره، وكان قلبها يتقطّع من الألم؛ أن يتحول زوجها الجبَّار إلى ذلك الشخص المهدود المريض.

كانت أوامرها صارمة: نديم شوكت ضيف، والضيف يجب إكرامه.

أكثر من خمس ساعات من الكلام المتواصل، لم تنقطع فيها زيارات قصيرة من أفراد العائلة، يحملون المشروبات والأطعمة الخفيفة لضيفهم نديم، الذي يجلس قُبالة سامي.

خلال تلك الساعات كانت الأم قد غفتْ في مقعدها، ثم استيقظتْ، ثم غفتْ مجددًا، وتكرر الأمر بشكل مستمر، حتى أن ولدها سيد طلب منها أن تدلف لحجرتها وتستريح، لكنها رفضتْ بإصرار العجائز الذي لا يمكن تغييره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

...وحتى عندما أتي الليل، لم يكن أحد يصدّق أن نديم شوكت سيفعل شيئًا.

وكانت الأم تنتظر بالخارج، تجلس على مقعدها الذي جُلِبَ لها من حجرتها، والذي صنِع خصيصًا حتى يكون مريحًا لها، بينما عكازها يستقر بجوارها.

كانت نيِّرة تنتظر أن يتكلم ابنها أخيرًا، يُعلِن أنه شُفىَ من المرض الغامض اللعين الذي أصابه.

وبعد أن انتهت الساعات الخمس ساد الصمت، ثم سمعتْ الصرخة العاتية التي أتت من الداخل.

نهضت وساقاها ترتجفان، وقلبها ينبض من الرعب، وبقدر ما تسمح به صحتها الواهنة تناولت عكازها، ودفعت باب حجرة ولدها سامي، وهي تلمح بطرف عينها سيد وزوجته صفاء يهرولان في الممر الطويل ناحيتها، وفزع مماثل على وجهيهما.

وعندما دخلت الأم لم تفهم ما يحدث لأول وهلة، وهذا لأسباب عديدة.

السبب الأول: أن الوقت كان ليلا، وكانت مصابيح الحجرة مطفأة ما عدا واحدًا في منتصف السقف، ألقى أنواره على المكان، وإن لم يُبِنْ كل تفاصيله، كما تفعل أنوار النهار.

السبب الثاني: أن نديم شوكت كان يقف منتبهًا، وشعور الترقب على وجهه، وهو يحدق في السرير الذي يرقد عليه ولدها.

السبب الثالث: أن ولدها سامي لم يكن راقدًا كما هو مفترض، بل كان واقفًا على السرير، مُلصِقًا ظهره بالجدار، وكان جسده يتحرك بذات الحركة الرتيبة: يهتز رأسه من اليمين لليسار، ثم يشهق كأنما تطلع روحه، ثم ترتجف ساقاه لدقيقة، ثم يهتز رأسه مجددًا، وهكذا، بينما صوت الهمهمة الغريب يتدفق من فمه، والجديد أنه

كان يزوم تلك المرة بصوت أعلى، وبدا كما لو أن الصوت الصادر من جوفه صوتًا غير بشري وغير مفهوم.

ثم كانت تلك الابتسامة الخبيثة الشيطانية على وجهه، وهو يحدّق في السقف، ويبتسم كأنما يشاهد شيئًا مسليًا.

هتفت الأم بلوعة:

"سامي ولدي!".

في تلك اللحظة، وثب نديم إليها، وهو يصرخ:

"اخرجي حالًا يا حاجة؛ فأنتِ....".

لم يُكمل نديم جملته؛ فقد ظهر تعبير شرس على وجه الأم، وكأنها تُحمّله مسئولية ما يحدث أمامها، وهو شيء لم تفهم أبعاده جيدًا في تلك اللحظة، وإن كان قد خطر ببالها أنه ينتوى بولدها شرًّا، وكانت ردة فعلها عنيفة؛ فقد استندتْ للجدار بظهرها، ثم أحكمت قبضتها على عكازها، وهوتْ به على نديم.

كانت الضربة قوية لدرجة جعلت نديم يرتطم بالمقعد، ويسقط على ذراعه، ولا بدَّ أن هذا الصوت المكتوم الذي سُمع كان صوت تحطُّم العظام.

برغم عدم فهم سيد للموقف، وبرغم أن عقله يتعامل بشكل سطحي مع الظواهر الخارجية، لكنه كان مرتعبًا، وهو يحدّق في أخيه، بينما زوجته تتمتم:

"بسم الله الرحمن الرحيم! إنه ملبوس كما قالت حماتي".

رمقها سيد بنظرة غاضبة، تعنى في العادة أنه يطلب منها أن تسكت، وقد فعلتْ. بينما سيد يعاون نديم على النهوض، وبينما الأم تحاول أن تلمس ولدها، لكن حركة جسده الرتيبة المنظمة، وتلك الهمهمة صنعتْ جوًّا مخيفًا؛ جعلها تتردد في الاقتراب منه،

في اللحظة التالية وثب سيد إلى خارج الحجرة، تاركًا أمه وزوجته تواجهان هذا الهول المنذر بشيء بشع قادم.

حاولتْ صفاء- زوجة سيد- أن تسحب حماتها للخارج من ذراعها، لكن الأخيرة كانت ثقيلة الوزن، والخوف والرعب جعلها تجثو على ركبتيها، وبدا كما لو أن الجاذبية تتشبث بها بإلحاح، وهي تشاهد ابنها يقترب منها وهو يزوم، وهذا ما جعل صفاء تصرخ بهلع، بينما الأم تبكي دون انقطاع، وهو يقترب منها، وذات الابتسامة المخيفة تتسع.

هنا، ظهر سيد حاملا بندقيته وصوبها إلى رأس شقيقه الأصغر. بدا من ملامح وجهه التصميم والعزيمة على تفجير رأس أخيه دون تردد، وقد فاحت رائحة كريهة في الحجرة.

ليستْ رائحة عضوية معينة، بل هي أقرب ما تكون للرائحة النفسية؛ الجو المقبض، ظلال الحجرة المرعبة، الوضع غير المريح لسامي وهو يبتسم هكذا، وكأن الجميع قد وقع في مصيدة لا فكاك منها.

كل هذا يجعل إمساك سيد للبندقية، ونيته الواضحة في الدفاع عمن في الحجرة شيئًا منطقيًا بعض الشيء برغم بشاعته، ومع أن نديم قد كُسرتْ ذراعه عندما سقط عليها؛ إلا أنه استطاع أن ينهض أخيرًا ويعترض سيد، وهو يرفع فوهة البندقية إلى أعلى بذراعه السليمة، صارخًا:

"هل جننت؟ إنه أخوك!".

قال سيد وهو يحاول انتزاع البندقية منه:

"دعني. إنه لم يعد أخي، إنه شيء آخر".

"أنت أحمق! أنا لم أنته بعد. إنه مريضي، وأنا مسئول عنه. اخرجوا جميعا ودعونا بمفردنا، ولا أحد يدخل علينا مهما سمعتم.. مفهوم؟".

"لقد انتهت مهمتك يا أستاذ نديم، وفشلتَ فيها. حالة أخي متأخرة. لقد لمسه الشيطان، ومن يلمسه الشيطان يهلك".

دفعه نديم للخارج بغلظة، ثم صرخ:

"فليخرج الجميع فورًا".

سحبتْ صفاء حماتها للخارج، بينما أغلق نديم الباب خلفهم، ثم استدار إلى سامي، وذات الابتسامة الشيطانية على وجهه تتسع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الأول

عاد نديم شوكت إلى شقته،حيث كانت الساعة تشير للساعة التاسعة مساءً. كان مرهقًا، وهو يخلع حذائه، وكانت هناك نصف دجاجة تنتظره في المبرِّد، قام بوضعها في الماء، ريثما يأخذ حمامًا ساخنًا، ويغيّر ثيابه، وأثناء فعله ذلك تحسس موضع الكسر في ذراعه، والذي التئم أخيرًا.

تذكر ما حدث مع عائلة الحاجة نيِّرة، عندما دخلوا الحجرة بعد ساعة، متوجسين مما سيرونه؛ لكن سامي كان جالسا على فراشه، مستعيدا تورد وجهه، وهو ينظر حوله بحيرة. كان سيد أكثرهم ذهولا:

"كيف فعلتها؟".

"لم أُنهِ عملي في المرة السابقة، وأنتم قاطعتموني. هذا ما كنتُ أحاول أن أخبركم إياه".

هزّ سيد رأسه غير فاهم، وله الحق في ذلك، لكن هذا ليس مهما، المهم أن سامي بخير.

"ومع ذلك فابنكم سامي ليس بخير".

قالها نديم بأسف. تجمدت الفرحة على الوجوه. سأله سيد:

"ماذا تعني؟".

"سامي يحتاج لكشف طبي شامل عليه".

"لكن حركة جسده وتلك الهمهمة، و....".

قاطعه نديم بصرامة في تلك المرة:

"يحتاج لكشف طبي شامل عليه".

وقد اتبع سيد نصيحته، وكانت النتيجة إنهم وجدوا أن ثمة سرطان غريب الشكل يتحرك في مخه، شيء لم يره أحدٌ من الأطباء من قبل.

أصرَّ سيد أن يأخذ نديم أجره كاملًا في مظروف سميك، برغم محاولات هذا الأخير للرفض، لكن سيد كان مصممًا. صحيح أنه لم يعالج سامي، لكنه وجههم في الطريق الصحيح.

اكتفى نديم بسلق نصف الدجاجة، ومع طبق سلاطة تناول طعامه، وهو يشعر برغبة عارمة في النوم. كانت هذه أول يغادر شقته منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا بعد تماثله

للشفاء.

أنهى وجبته، وقبل أن يأوى إلى فراشه فتح بريده الإلكتروني، كما هي عادته قبل أن ينام؛ ليجد عدة رسائل تصله من زبائن يطلبون خدماته، وراح يقرأها تباعًا.

ثم وصل لتلك الرسالة:

"الأستاذ نديم شوكت المحترم...

تحية طيبة

وبعد

وصلتني أخبار عن مهارتك الفريدة في علاج مرضاك، والحقيقة أني أطمع أن تتولي حالة ابنتى العزيزة والوحيدة منار. في حالة موافقتك المبدئية لرؤية ابنتى؛ سأرسل لك مبلغ(....)، ومثلهم في حالة شفاء ابنتى. ستجد أرقام هواتفي، وعنوان الفيلا ملحقة بذيل الرسالة، حتى يكون تواصلنا أسرع.

تقبل احتراماتي

كريم الباجوري

بدا التفكير على وجه نديم. مبلغ كبير بالفعل، لم يعرضه عليه زبون من قبل. فجأة ارتفع رنين جرس الباب. نهض بتثاقل، وتوجه للباب، وفتحه. كان هناك رجل يقف، ويقول بتشكك حذر:

"الأستاذ نديم شوكت".

أومأ نديم برأسه مؤكدًا شخصيته.

أخرج الرجل من حقيبته الجلدية طردًا صغيرًا مُغلَّفًا بعناية:

"يوجد طرد لك، لكن معذرة، لا بد أن أتأكد من هويتك الشخصية".

رمقه نديم بصمت. ثم أحضر بطاقة هويته وأعطاها للرجل، الذي تأمل بياناتها جيدًا، وقارن الصورة التي عليها بصورة الواقف أمامه. ثم قال:

"وقّع هنا من فضلك".

بعد التوقيع أغلق نديم باب الشقة خلف الرجل، وهو يحمل الطرد، وجلس إلى منضدة الطعام الصغيرة، ثم فكّه، والحقيقة أن ما رآه كان غريبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف نديم شوكت في تلك الحديقة الغنّاء، أمام أمام الباب الرئيس للفيلا الفخمة التي تمتد في عمق السماء لأربعة طوابق، والتي تجاوز مبناها شجرة مانجو عملاقة تتجاوز السطح نفسه، ثم انفتح الباب، وأطلَّ من وراءه كريم الباجوري.

فى أوائل الخمسينات، رياضى القوام، حتى وهو يرتدي مريولة المطبخ، وقفازين أصفرين، وعضلاته تكاد تمزق الثياب التى يرتديها. ملامح وجهه حادة، ومع هذا كان يبتسم.

"لا بد أنك الأستاذ نديم شوكت".

"بشحمه ولحمه يا كريم بك".

"البكوية انقرضتْ منذ عقود يا أستاذ نديم".

"ما زالتْ في العقل الجمعي يا كريم بك".

ضحك كريم. على الأقل يعرف ما معنى" العقل الجمعي". هذا ما خطر لنديم شوكت وهو يدخل الفيلا.

قال نديم لنفسه أنه لم يكن مخطئًا عندما أعطاه البكوية. هذا الثراء الفاحش والذوق الراقي يناسبه تمامًا.

تليق به لفظة باشا أكثر، لكن الكلمة ابتُذِلَتْ في أذهان المصريين باستخدامات العديدة؛ لذا بدا أن كلمة" بك" هى المناسبة هنا. أفسح كريم لضيفه، وخلع المريولة، وطواها بعناية، وعلقها على مشجب أنيق.

كانت الصالة فخمة كما يجب للفخامة أن تكون. أنتيكات وتحف، تماثيل مطلية بالذهب (إن لم تكن من الذهب الخالص فعلا، ونديم لا يستبعد هذا)، لوحات فنية معلقة على الجدران، حيث أحاطت بكل لوحة عدة مصابيح صغيرة، وضِعتْ بعناية في نقط معينة حول كل لوحة، حتى تبرز جمالها، وثمة مرآة عملاقة كانت تزين نصف الجدار بالقرب من السُلَّم، وكانت هناك تلك الرائحة.

رائحة مُعَطِّر جوّ قوي، مريح للنفس، يجعل المرء يشعر بالاسترخاء، والرغبة العميقة في النوم، وكأنه المعادل الشمّى للموسيقى.

"تفضل يا أستاذ نديم".

"أشكرك".

جلس نديم. وتأمل المكان حوله:

"يبدو أنك شديد الثراء يا كريم بك".

ابتسم كريم، وهو يرفع يديه:

"أمتلك يدين شديدتي التميز يا أستاذ نديم".

ثم مدّ يديه إلى علبة سجائر، وأخرج منها سيجارة، وضعها فى مبسم، وأشعلها بقداحته، ونفث الدخان في الهواء، ثم انتبه؛ فقال معتذرا:

"أرجو ألا تمانع في كوني مدخنًا. أعلم أنك غير مدخن، وإلا كنتُ دعوتك على بواحدة".

انتبه نديم بأن علبة السجائر والقداحة والمبسم من الذهب الخالص. لم يعقب على اكتشافه لتلك المعلومة. فقط قال وهو يغوص أكثر فى الأريكة الناعمة:

"يبدو أنك تعرف عني الكثير".

"اسمك في كل مكان على الإنترنت، والعديد من الحوارات أُجريتْ معك، ومن ضمنها عاداتك اليومية والصحية".

"هذا يفسر استعانتك بي".

"لكنى سأصدقك القول: أنا غير متأكد أن ما قرأته يقترب من الحقيقة من قريب أو من بعيد حتى".

لم يكن نديم يستهجن ما يسمعه فى تلك اللحظة، ولم يشعر بالإهانة حتى. فقط اكتفى بابتسامة هادئة، وهو يتابع كريم وهو يقول:

"رجل يعالج المرضى بالحكايات؟! يا للعجب!".

قال نديم بسرعة:

"ليس كل المرضى".

"نعم، أفهم قصدك. أعرف أنك لا تعالج من أُصيبتْ أجسادهم؛ فهذه مهمة الطب التقليدي. لكن حتى المجال المتعلق بالنفس البشرية قاصر أيضا، وإلا ما كان هناك مرضى يذهبون لأطبائهم النفسيين لسنوات، دون أن يشفوا تمامًا".

ونظر للسقف:

"حتى أتيتَ أنت وحققت طفرة في مجالك. مرة أخرى: رجل يعالج مرضاه بالحكايات! هل أنت جاد؟".

قال نديم بضيق:

"ليس من اللطيف أن تكون متشككًا فيَّ يا كريم بك. لاحظ أنني أتيتُ إلى هنا بناءً على دعوتك".

"ليس من المفترض أن أصدقك حتى تكون هناك نتيجة، المهم أن تصدقك ابنتى حتى تُشفى مما هي فيه".

ودسَّ بقايا سيجارته فى العلبة الذهبية، وهمَّ بإشعال أخرى، لكنه توقف، وقال:

"لقد بحثتُ عنك كثيرًا يا أستاذ نديم. مقالات كثيرة تتحدث عن الرجل الذي يُعالج النفوس المعطوبة، والأرواح المنكسرة. منْ أصابتْ قلوبهم عتمة، وفقدوا معنى الحياة، وهذا ليس عن طريق عملية جراحية ما للمخ مثلا، أو عن طريق أخذ عقارٍ ما يحقق المعجزات، لا؛ بل عن طريق حكاية فقط تُتلى على مسامع المريض".

ابتسم نديم:

"ألا تؤمن بوجود المعجزات؟".

بسرعة أجاب كريم:

"أنا لستُ ماديا بحتا، أو شخصا ضيّق الأفق يا أستاذ نديم. أنا قاريء نهم، وأتمتع بفضول غير عادي لكل ما هو مفهوم، وأعرف جيدًا أن جهاز المناعة مثلا لدي الإنسان يمكن تنشيطه بوسائل عدة قادرة على فعل المعجزات الطبية. كذلك أعلم أن عالمنا يحتوي على الكثير من الأشياء الغريبة، وسرُّ غرابتها-في رأيي- أنها غير مفسرة؛ أي أننا لا نعرف أسبابها، لكن لو حدث وعرفنا سيتغير الأمر. المثل الشهير: إذا عُرف السبب؛ بطُل العجب" يؤكد نفسه هنا".

"هذا صحيح. ومع ذلك استعنت بي برغم طبيعتك الميّالة للتجريب والتحقق".

"سأخبرك لماذا استعنتُ بك، وأرجوك تحملني".

أومأ نديم برأسه. أكمل كريم حديثه:

"لكن قبل أن أفعل ذلك، دعنى أخبرك بسبب آخر لتشككي".

"تفضل".

"هل تعرف تأثير البلاسيبو؟".

"بالطبع. حيث يُعالج بعض المرضى عن طريق الوهم. يأخذون حبوبا ما، لا تفعل أي شيء في الواقع، لكن تحت تأثير أنها ستحدث فارقا في حياتهم؛ تبدأ

نتيجة ما فى التحقق، وهذا يؤكد أن الوهم يصنع قابلية العلاج في الأساس. أي أن التصديق فى حد ذاته يصنع نتيجة".

"عظيم، لقد وفرت عليَّ الكثير من الشرح إذن. لكن بالإضافة إلى ما قلته أنت، يوجد سبب متعلق بجنوح النفس البشرية للتهويل والاختلاق والمبالغة. القصة الواحدة البسيطة التي تحدث على أرض الواقع تُضاف إليها العديد من التفاصيل؛ تفاصيل صغيرة جدا، ليست متعلقة بالقصة نفسها، بقدر ما هي متعلقة بالذي يروي، وشيئًا فشيئًا يتراكم جبل هائل من التفاصيل الزائفة، بينما القصة الأصلية تكاد تختنق فى الأسفل، وربما تختفي تماما. الحقيقة تخبو، والأكاذيب تنتعش. ربما قمتَ بمعالجة القليل من زبائنك بتأثير الوهم، ثم تكفلوا هم بخلق سمعة حسنة عنك، بحيث سرى اسمك كالنار فى الهشيم".

وضحك:

"تخيل أننى قرأتُ في مدونة أحد المتحمسين أنك ستجعل الأطباء النفسيين بلا عمل".

"ومع ذلك لم تخبرني لماذا استعنت بي".

قال كريم محتدا:

"لأني يائس".

نظرة دهشة على وجه نديم، ثم تلفت حوله، وقال:

"مع كل هذا الثراء ويائس؟ لا بد أني الحل الأخير لديك فعلا".

"هذا صحيح، مع تأكيد أني حتى لستُ واثقا أنك ستصل لشيء ما".

فرد نديم يده اليمنى، بحيث صارتْ بطن كفه لأعلى، ثم قلبها:

"فى الحقيقة أنا مندهش جدا من موقفك يا كريم بك. أنت لستَ مضطرًا للاستعانة بي، ودفع مبلغ هائل كهذا حتى قبل أن أبدأ. يمكننى الانصراف الآن، وتوفير المبلغ عليك".

ونهض نديم بالفعل. قال كريم بنبرة هي مزيج من العصبية والتوسل:

"أرجوك اجلس، وتحملنى قليلًا".

رمقه نديم بصمت. ثم جلس، وأشار بيده، فيما معناه: ***"هات ما لديك".***

أشعل كريم سيجارة أخرى، ونفث دخانها في الهواء. من حسن حظ نديم أن معطّر الجوّ القوي الغريب لم تفلح رائحة السجائر المميزة في محوه.

"عندما ماتت زوجتى منذ ستة أشهر انقلب عالمي رأسًا على عقب. كان السرطان اللعين ينهش في جسدها، ويبدو أنه دمَّر جسدها في أيامها الأخيرة توطئة لأن يحصد روحها. لم يفلح الطبّ في أي شيء، وفجأة في يوم وليلة لم تعد بيننا. لا توجد كلمات تُعبّر عما كنتُ أشعر به وحشة ومن برودة، ومن ألم الفقد. لكن الخطر الأكبر كان يتمثل في فقداني لابنتي الوحيدة أيضًا. هل يكون الفقد مضاعفًا هنا؟ طبعا هناك مبرر لخوفي من فقداني لمنار؛ إذ أنها كانت متعلقة بوالدتها جدًا، ولأن زوجتي تخاف على منار؛ فلم تخبرها بأمر السرطان، وبطبيعة الحال كانت تتحمل ما تنوء به الجبال، من حاجة منار للحنان واهتمام، لكن بسبب المرض والتعب كان أداء زوجتي غير مرضٍ لمنار، والتي اعتبرتْ أن أمها لم تعد تحبها بما فيه الكفاية، ووسط كل هذا كنتُ أنا غارقًا في أعمالي. أُصارحك بأني كنت مخطئًا. لقد ألهتني عملية جمع الأموال، عن إدراك معنى العائلة. لكمْ كانت زوجتى الباسلة تتحمل الكثير فى سبيل ألا أشعر بشيء. لكن مقابل هذا، خسرتُ معنى أن أكون أبًا. بعد رحيل زوجتى أُصيبتْ منار المسكينة باكتئاب حاد، هذا طبعا بعد نوبة عنيفة استمرت لأيام من البكاء المتواصل، حتى أن الاحمرار قد غزا عينيها، وهددها بفقدان بصرها".

وسكت قليلًا، ربما ليسيطر على هذا الكمِّ الهائل من الانفعالات الذي يجتاحه، ويبدو أنه قد رأي الكثير. أكمل:

" هزل جسدها، وفقدتْ عشرة كيلو من وزنها، وقد عرفتْ سبب تغيُّر أمها في الشهور الأخيرة؛ لهذا لك أن تتخيل شعور الندم الفظيع الذي تشعر به. صديقة مقربة لي تعمل طبيبة نفسية، نصحتنى بأن أكون متواجدا بجوارها طول الوقت. أقوم بإطعامها، والاهتمام بكافة الأشياء المتعلقة بها، وكأنها طفلة رضيعة فقدت والدتها، ولا تتخيل كمْ هو مرهقٌ فعل ذلك".

قال نديم، وهو ينظر إلى المريولة المعلقة بالمشجب:

"يمكننى أن أتخيل بعض الشيء".

"أطباء مهرة في علاج الجسم البشري، أكدوا أن جسدها سليم، أطباء نفسيون أعلنوا يأسهم وعجزهم. ثم أتى دجالون، جلسوا في نفس المكان الذي تجلس فيه، ووعدوني نفس الوعد الذي وعدته؛ بأنها ستكون بخير، لكن أحدًا منهم لم يف بوعده".

"لكنى لم أعدك".

ابتسم بشحوب:

"معذرة، بالفعل أنت لم تفعل، لكن هذا لا يعنى أنك مختلفٌ عنهم".

"أتفهَّم الآن سبب تشكك يا كريم بك، وأتقبله بأريحية".

"هل ستعالجها؟"

"لا أعدك بشيء. كل ما سأفعله أنى سأحكي لها حكاية، ولنر ماذا سيحدث؟".

كما لو أن هذا السؤال يؤرقه ويأكله من الداخل، قال كريم:

"هل الحكايات بالفعل تشفي النفوس المعطوبة؟ هل يمكنها أن تشفي من هم على شاكلة منار ابنتي؟".

صمت نديم، ريثما يبحث عن الكلمات المناسبة لتوصيف الأمر، ثم قال:

" لا أريد أن أُعطيك أملًا، ثم أنتزعه منك يا كريم بك. لا تضع توقعات، بالأحرى توقع أننى سأفشل فى مسعاى. لكن تأكد أننى سأبذل كل جهدي".

"جميل، لكنك لم تُجب سؤالي".

قال نديم بتؤدة:

"هناك لغزٌ مستغلقٌ في الحكاية منذ قديم الزمان، هناك شيء ساحرٌ يجعل الجميع يتوق لسماع المزيد، قراءة المزيد، رؤية المزيد، ربما هي الرغبة في المعرفة، الفضول الذي لا يرتوي، أن نشعر بما يشعر به أبطال خياليون في عوالمهم. لا أحد يعرف تحديدا. لكن هناك دراسات تتحدث عن الأثر البالغ الذي تصنعه الروايات مثلا في المخ، المسارات الجديدة التى تخلقها، هناك تأثيرٌ ما بطيء، تحت قشرة الوعي الإنساني تُحدثه الحكايات. كمْ من عالمٍ تأثر بقصة خيال علمي مثلا وسعى لتحقيقها؟ الحقيقة أن الحكاية هي القائدة فيٍ دياجير الظلام، يتبعها الجنس البشرى بافتتان، يحترقون بلهبها، ويغترفون من منهلها، كلٌ على حسب طاقته واستعداده".

كان الإحباط على وجه كريم:

"لم تُجبْ بشكل صريح".

"اعتبرها إجابتى الحالية".

نهض كريم:

"اتبعنى من فضلك".

واتجه إلى الدرج صاعدًا إلى الطابق الثالث، وخلفه نديم بعدة أمتار، ثم سارا في ممرٍ طويلٍ ينتهي بحجرةٍ، دفع كريم بابها ودلف إليها، وخلفه ضيفه.

عندما عبر نديم باب الحجرة، لفت نظره أنها رحيبة، يستقر في ركنها فراش متوسط تجلس عليه فتاة شاحبة، تحدق في النافذة المفتوحة، حيث تدخل أشعة شمس الشتاء، وتبعثْ في المكان بعض الدفء.

وكانت شجرة المانجو عملاقة تحتك بعض فروعها بإفريز النافذة.

خطر لنديم أنها تشبه مصاصيِّ الدماء؛ فلو كان لهم وجود فى هذا العالم، وكانت هي كذلك؛ فلا بد أنها ستتحول إلى كومة من الرماد!

نفض نديم عن رأسه تلكم الخواطر، وهو يتقدم نحو الفتاة، بينما كريم يقول برفق مقتربا منها:

"حبيبتي، هذا هو الأستاذ نديم، لقد أتى من أجل أن يحكى لكِ حكاية. أنتِ تحبين الحكايات، أليس كذلك؟ كانت والدتكِ تقصُّ عليكِ حكاية قبل نومك، عندما كنتِ صغيرة".

لمح نديم انفعالًا ما يمرُّ كطيفٍ على وجهها، قبل أن يتلاشى. إذن ذلك هو المفتاح. قال كريم بحزن، وهو يلوح بيده بيأس:

"لا فائدة".

"اتركنا يا كريم بك، ولا تشغل بالك".

"ماذا ستفعل؟".

"ما جئتُ من أجله".

لمع الأمل في وجه كريم.

"هل تظن....".

أخذ نديم نفسًا من الهواء المعبق برائحة المُعّطِّر القوي، وقال:

"انصرف من فضلك. لا أريد أن أضيّع وقتًا، وخاصة أن الحكاية لا بد أن تنتهي فى جلسة واحدة، وأنت تعطلنى بمكوثك هنا".

"إذن، اسمح لي أن أقوم بواجبات الضيافة معك، ولا تهتم بوجودي، سأدخل إلى هنا حاملا العصائر والشطائر، وسأخرج دون أن تنتبه لي".

أومأ نديم برأسه مبتسمًا، شاكرًا لكرمه. اتجه كريم نحو الباب، بخطوات سريعة، ثم أغلقه خلفه برفق، وهو يبتسم بامتنان لنديم، الذي سحب مقعدا، وجلس عليه، وهو يجلس قبالة الفتاة.

"هل تسمعيننى؟".

لم تبدر من الفتاة أدنى حركة. فقط تحدق فى النافذة، كأن أفكارها تسبح مع أشعة النفس ذاتها. مدَّ يده ولمس جبهتها للحظة. لم تبدر منها حركة أيضًا. عاد لمقعده. صمت للحظات، ثم قال:

"ماذا أحكى لكِ؟ ماذا أحكي لكِ؟".

خطر له أن عقل الفتاة يقبع خلف سياج كثيف، ربما هي لا تسمعه بصعوبة.

"علمتُ بأنكِ تتألمين بسبب الفقد، ويحرقكِ الندم. لقد قال كريم بك جملة عابرة عن يديه شديدتي التميز. هذا يذكرني بقصة ما كانت فيها يدان تسببان الهلاك لمن تلمسهما. سيكون من المناسب لكِ أن أحكى لكِ قصة عن الندم إذن. سأحكي لكِ عن امرأة تُدعى سارة نعمان دخلت في غيبوبة عميقة، وعندما عادتْ لم تكن تُدرك أن ثمة أحداثا جساما تنتظرها".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

أرجو أن يصلكِ صوتي أينما كنتِ، أن يعبر تلك المسافات البعيدة التي تفصل بيننا الآن؛ فبرغم أن المسافة بيني وبينكِ تقترب من المتر على الأكثر؛ إلا أني أعرف أن عقلكِ المسجون يسافر عبر رحلة طويلة جدًا. حاولي أن تتخيلي معي، وأن تحوِّلي الكلمات التي أقولها وتسمعينها إلى صور في عقلك. تعرفين أن هذه هي عظمة الحكاية؛ أنها تبعث الحياة في عقولنا وقلوبنا في كل مرة.

نحن الآن يا عزيزتي في مستشفى ما.

مجرد يوم عادي، في مستشفى خاص، يقبع في منطقة هادئة، بعيدة عن الضوضاء، وكان كل شيء يجري بشكل اعتيادي، حتى أن فتحية كانت تدندن بأغنية شعبية، تسيطر على ذهنها منذ فترة؛ فصارت مهووسة بها، وهو شيء يحدث لنا جميعًا لسببٍ غامضٍ فيما يبدو.

تسألينني: من فتحية هذه؟

هي امرأة في منتصف الخمسينات، مسئولة عن النظافة. عندما دخلتْ تلك الحجرة توقفت عن الدندنة، وألقتْ نظرة مشفقة على تلك المريضة الساكنة، التي تم إيصال العديد من الأجهزة بجسمها. منذ عام تقريبًا، وعندما استلمتْ فتحية عملها؛ بدأت تتعرف على المرضى، تسمع حكاياتهم، وكان من ضمن هؤلاء المرضى سارة نعمان، تلك المريضة الثلاثينية المسكينة، والتي وجدوها على قارعة الطريق برأسٍ مشجوج يسيل منه الدم، تسبب في دخولها لغيبوبة عميقة. قيل أنها كانت تهرب من أحد اللصوص الذي ضربها بقسوة وتركها بين الحياة والموت. أكثر التفسيرات تطرفًا أنها مَنْ فعلتْ ذلك بنفسها؛ إذ أنها علمتْ بخانة زوجها لها؛ فأرادتْ أن تنتقم منه بطريقة مبتكرة؛ بأن تجعل أصابع الاتهام تُشير إليه.

كان من الممكن أن تنطلق هذه التفسيرات في نوبة حماس، كعادة البشر في التخيُّل، وإضفاء المزيد من التوابل المثيرة على ما يسمعونه، وذلك يأخذ فترة، ثم يموت.

لكن تصرفات زوجها فيما بعد جعلت عقولهم تميل جدًا لتصديق تفسير الخيانة؛ فقد طلقَّها غيابيًا، ولم يزرها إلا مرة واحدة فقط، بل وقيل أنه تزوج بأخرى.

كل هذا قبل أشهر قليلة؛ لهذا اكتسبتْ تلك المريضة تعاطفًا شعبيًا بين العاملات في المستشفى؛ كلما مررن على حجرتها مرور الكرام، أو قامت إحداهن بتنظيفها،

أو حتى عندما يرين قريبتها وهي تزورها باستمرار، وبدأن يعقدن مقارنة كما متوقع عن نذالة زوجها-الذي لم يعد كذلك- وبين قريبتها الشابة، ذات الوجه المُريح.

في ذلك الصباح، وبعد أن ألقت فتحية نظرة شفقة على المرأة الغائبة عن العالم، راحتْ تمارس عملها بإتقان، دون أن تنتبه لذلك التغيير على المريضة الراقدة بالقرب منها؛ إذ فتحتْ عينيها ببطء، وتدفق النور المؤلم إليهما؛ وجعلها ذلك تغمضهما عدة مرات، مع قطرات من الدموع راحت تنزل وتُرطِّب قنواتها الدمعية الجافة والنائمة منذ فترة طويلة.

كانت مشوشة، عقلها لم يعمل بعد بكامل كفاءته، وكانت أشبه بطفلة وُجِدتْ لتوِّها بعد أن كانت في رحمِ العدم. أدارتْ رأسها بحسب ما تسمح به قواها الجسمانية الضامرة.

كانت في حجرة أنيقة، يسودها الأبيض، ما عدا الأجهزة الطبية المتناثرة هنا وهناك، والتي وصِّلَّ بعضها لجسدها النحيل، وثمة شاشة راح مؤشرها يتقافز، وكأنه كان خامدا بخمودها من قبل.

أرادتْ الكلام فلم تستطع، أرادتْ أن تتذكر منْ هى فلم تستطع. أرادت تحريك جزء صغير من جسدها فلم تستطع.

لكن الفكرة الأولى التي خطرت لعقلها الذي يصحو ببطء من سباته: أنها في مستشفى ما، تُعالج من شيء ما، وقد ظلت راقدة لفترة ما.

الفكرة الثانية التي قفزت لعقلها، والتي جعلتْ قشعريرة باردة تسري كدفقة كهرباء خفيفة في جسدها: أنها ربما ظلت غائبة عن العالم لفترة طويلة.

لم تكن تعرف المدة بالضبط، لكنها شعرت كأنها مومياء تعود للحياة!

فتحية أمامها تقوم بتنظيف الحجرة كعادتها في تلك الساعة من الصباح، وكانت مستغرقة في الدندنة، دون أن تنتبه للمسكينة التي تنظر إليها برجاء، وشفتاها تتمتمان، دون أن يصدر منهما صوت فعلي. وكان هذا-كما لكِ أن تتخيلي-مؤلمًا جدًا، كأنها شبح لا يراه أحد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول ما صدر منها كانت حشرجة. في الحقيقة كانت كلمة تائهة خرجت من جوفها، لكن بشكل ما تحولت إلى تلك الحشرجة، التي لم تسمعها فتحية في البداية، لكن مع تكرارها، التفتتْ إلى مصدرها، وبانت على وجهها الأسمر علامات الدهشة، ثم هرولتْ خارجا، وكأنها رأت شيطانًا، أو شاهدتْ معجزة تحدث أمامها.

لم تكن سارة تفهم شيئًا، ولم يكن اسمها قد أفصح عن نفسه بعد؛ إذ أن ذاكرتها نفسها كانت ضبابية تقبع خلف سياجٍ سميكٍ من الطوب، وهي لم تكن تملك القوة النفسية لزحزحة قالب طوب واحد.

كانت شبيهة بكِ كما أنتِ الآن يا عزيزتي.

بعد قليل، دخل الحجرة طبيب نحيل، يرتدي نظارة طبية، وبدا مذهولا.

"سارة، هل تسمعينني؟".

سارة؟ هذا هو اسمها إذن. اسم مألوفٌ هوٌ، ومع نطقه بدأت بعض الذكريات تظهر على استحياء. طفلة بضفيرتين تخرج من سيارة فيات 128 أمام مدرسة.

"سارة، لا تتركي يدي. الزحام شديد".

هكذا كانت تقول امرأة أربعينية جميلة، تقبض بيدها على يدها الصغيرة.

"سارة، هل تسمعينني؟".

الطبيب يكرر سؤاله مرة أخرى بإلحاح، بينما فتحية تتمتم خلفه بكلمات مبهمة غامضة.

كان بودها أن تخبره بأنها تسمعه بالفعل، لكنها لم تقدر على النطق، أو حتى إطلاق حشرجة كالتي سبقت؛ إذ أنه يبدو أنها قد استنفذتْ رصيدها كله منها. حاولت تحريك رأسها؛ فلم تستطع.

"لو كنتِ تسمعينني؛ فحرِّكي جفنيكِ".

صوت الطبيب يأتيها، كما لو كان يأتي من بئر عميقة، وهي مُعلقة على حافتها.

أرجوكما يا جفناي لا تخذلاني.

أعطتْ الأمر، ولدهشتها تحرك جفناها طلوعًا ونزولًا. نمتْ ملامح الطبيب عن الذهول، وهو يقول:

"أممكن هذا؟!".

أجرى لها عدة فحوص طبية، ثم جلس على المقعد وكأن الحيرة التي اعترته أعجزته عن الوقوف والتماسك.

"هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها حالةً كهذه!".

قالها، وهو يتأمل سارة، التي بدأت المرئيات تصفو أمامها، وتنقشع بعض الحيرة عن عقلها. أخرج الطبيب هاتفه الخلويِّ، وضغط على اسم ما. الرنين المألوف، ثم

صوت أنثوي قلق:

"أهلا دكتور هيثم. ما الأمر؟".

"بنت خالتك قد استيقظت يا آنسة مريم".

وكان من المتوقع أن يسمع تلك الصرخة المندهشة على الجانب الآخر من الهاتف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا بد أن ساعة قد مضت على جلوس مريم أمام سارة، تنظر إليها وتبكي، ثم تهدأ قليلا، ثم تواصل ذات الفعل لمرات عديدة، حتى كادت سارة نفسها أن تصفعها على وجهها، حتى تتخلص وتخُلِّص مريم نفسها من هذا العذاب المقيم.

"مريم، اهدئي يا حبيبتي".

قالت مريم من بين دموعها التي تتساقط منها مدرارا:

"لقد فقدتُ الأمل في عودتك، لقد مضى ما يقرب من عامٍ من مُكثكِ في الغيبوبة".

"أخبروني أنكِ الوحيدة التي كانت تحضر. أين الجميع؟".

كانت سارة قد تذكرت أن لها والدان، وزوج، وأصدقاء كُثر. الحقيقة أن هذه المعلومات ومَضَتْ كوجوه ضبابية شاحبة بلا أسماء منذ ثوان في عقلها، وقبل أن تطلب من مريم أن تهدأ، حدثت المعجزة، وتوقفتْ مريم عن البكاء، وتغيرت نظرتها بشكل مخيف، جعل سارة تتوجس خيفة.

ما الأمر؟!

لم يغادر السؤال عقلها، وإن ظهر في كل تفصيلة في وجهها. هنا، سالت دمعة ضخمة من عينيّ مريم.

"لقد مات والداكِ من الحزن يا سارة".

قالتها مريم بصوت مبحوح مختنق، ثم أجشهت ببكاء حارَّ. ثمة سؤال سريالي قفز لعقل سارة، وكان قفزه في تلك اللحظة غريبًا تبعا لسياقِ الحوار، لكنه مفهوم: من أين تأتى مريم بكل هذه الدموع؟!

سؤال عجيب، وحقّ لها أن تتعجب؛ إذ أنها لم تذرف دمعة واحدة حتى بعد أن استوعبت الخبر. قالت بصوت منخفض:

" ماذا حدث لهما؟".

مسحت مريم دموعها:

"معذرة، لم يكن عليّ أن أخبركِ بذلك الآن، ولكنى متوترة، كان من المفترض أن أنتظر قليلًا حتى...".

لو تركت سارة العنان لمريم فلن تتوقف عن الكلام ليوم الدين. هذه الفتاة تحتاج للمزيد من التحكم في أفكارها ودموعها وعواطفها كما يبدو.

"ماذا حدث لهما يا مريم؟".

سرّها أن صوتها صار أعلى، سيطرتها على حنجرتها صارت معقولة. لوَّحت مريم بيدها:

"والدتكِ دخلت في نوبة حزن عميقة مع دخولكِ الغيبوبة، وزادتْ أكثر عندما عرفت من الأطباء أن احتمالية خروجكِ منها تكاد تكون منعدمة، بالرغم من أن علاماتك الحيوية نشطة بشكل مبشّر. امتنعتْ عن الطعام، وهزل جسدها، وبرغم محاولات والدكِ المستميتة لبثِّ التفاؤل في نفسها، لكن نفسيتها لم تتحسن، وذات يوم وجدها ميتة في فراشها. حُزنُ والدكِ لفقد أمك، ولفقدكِ؛ عجَّل بموته هو الآخر".

سارة ما زالت تستمع دون أن يظهر على وجهها أي تعبير يتلائم مع الحكاية المؤلمة المتعلقة بأقربِ الناس إليها. حتى أن مريم شعرتْ بالقلق:

"هل تسمعينني يا سارة؟".

رفعت رأسها إليها، وكأنها انتشلتْ نفسها من هوّة ما. قالت بصوت منخفض:

"وماذا حدث بعدها؟".

لم تجب مريم على الفور. تطلعت للفتاة العائدة بحيرة، وشيء من الرهبة، كأنها تتطلع إلى شخصٍ آخر، وقد خطر لها أنها عائدة من غيبوبة استمرتْ لعامٍ تقريبًا، ومن الطبيعي أن تكون مشاعرها متبلدة، وعقلها مشوش. هكذا قالت لنفسها على سبيل أن تتظاهر بالتفهم لكن في ركن ما من نفسها كانت مريم تشعر بالرعب.

هي نفسها تشعر بالتأثر الشديد، وودتْ لو انفجرتْ في البكاء، لكنها تتماسكْ؛ إذ أن البكاء مثل الضحك، ينتقل بشكل سحري بين من يمارسونه، وهي من الحصافة بحيث ألا ترتكب هذا الخطأ، مع علمها بأن العلاقة بين سارة وأبويها لم تكن بأفضل حال.

سارة العنيدة، المتعجرفة، التي لا تكفّ عن الشكوى، والتي تسببتْ غيبوبتها في هلاك أبويها؛ تتلقى خبر موتهما بعينين ما زالتا ترمشان بحساسية لاستقبال الضوء، لكنهما لا تتأثران لهذا الخبر الفظيع!

"لا بأس أن تبكي يا سارة، هذا طبيعي".

أراحتْ سارة رأسها على الوسادة. تمتمتْ:

"أنا مُتعبة. أشعر بالنعاس الشديد".

نهضتْ مريم بحرج، وكأنها شعرتْ بأن سارة تطردها. لكنها كانت تلتمس العذر لبنت خالتها. ثمة أسئلة لا تقل أهمية لم تسألها سارة حتى الآن، وهذا يعني أنها لم تدرك بعد ما حدث. المسكينة لا تعرف ما ينتظرها.

قالت مريم، وهي تُمسك يد سارة الباردة:

"لن أبتعد كثيرًا. ثمة مقهى بالقرب من المستشفى، سأتناول فنجانا من القهوة فيه، وسأُجري بعض الاتصالات، ثم سأرجع إليكِ مرة أخرى".

لم تقدر سارة على منحها أي ردة فعل، اللهم إلا ابتسامة شاحبة لا تكاد تُرى، لكن الضوء الذي يمسح وجهها أبرزه قليلا. بشكل ما اعتبرته مريم ردة فعل مُرضيةً لها. غادرتْ الغرفة، وتركتْ سارة لكي تنام.

لكنها لم تنم.

ثمة طوفان من الوجوه الضبابية الشاحبة هجم على عقلها وأشعرها بالإنهاك، كأنها تجري في سباق جري يمتد لألف كيلو متر، فوق أرض رملية ناعمة، تنغرس فيها الأقدام حتى الركبة. شعور لا يمكن وصفه. يُحسُّ فقط.

ربما هذا الشعور الكاسح الجاثم على صدرها فقط هو ما جعلها تنام. كم استمر هذا؟ هي لا تعرف. كل ما تعرفه أنها استيقظتْ، وكان حولها الدكتور هيثم، ومريم التي كانت تبكي، حيث دلت عيناها الحمراوان على أن الأمر جللٌ.

تساءلت:

"ما الأمر؟".

مسحت مريم دموعها:

"لقد أقلقتنى عليكِ".

استجلبت سارة الابتسامة الفاترة إياها التي يتكفل الضوء بتعظيمها وتحويلها لشيء موحٍ بأن الأمر على ما يُرام. شيء ما في النظرات التي تحدق فيها (إذ أن الطبيب كان معه ممرضتان، وحارس أمن بدا هذا من بذلته المميزة) أن المهمة ستفشل هذه المرة.

قالت بارتباك:

"إن هي إلا بضع ساعات قد نمتها. أليس كذلك؟".

قالت هذا وهي تنظر من النافذة إلى الظلام الذي أحاط المدينة بعباءته الكحلية المحكمة.

"ثلاثة أيام يا سارة، وليست بضع ساعات!".

لوهلة لم تفهم سارة الجملة، ثم أدركتْ أن هذا غير متوافق مع الطبيعي، ثم قالت لنفسها أنها عائدة من غيبوبة استمرتْ لـ... تحركتْ قليلًا، ويبدو ان هذا الفعل كان مؤلمًا لها؛ فقد انطلقتْ منها صرخة ألم قصيرة انفلتت من حلقها. وثب هيثم إليها محذرا، وهو يدفع الوسادة تحت رأسها برفق:

"رويدكِ، لا نريد أي تهورٍ منكِ. ربما سيضاعف هذا من خطورة حالتك، وأنتِ لا ينقصكِ هذا، ربما يكون هذا من تأثير...".

ثم توقف عن الكلام بغتة. تساءلت سارة بوهن:

"من تأثير ماذا يا دكتور؟".

التفت هيثم إلى مريم وقال:

"هل أخبرها؟".

كانت لهجة مريم متوترة، وهي تتحاشى النظر إلى سارة:

"عاجلًا أم آجلا سوف نعرف. فلنطرق الحديد وهو ساخن ولتخبرها".

هتفت سارة بكل ما تلمك من قوة:

"ماذا تعنيان؟ فلتتكلما".

تنحنح هيثم:

"الحقيقة أنكِ مُصابة بسرطان غريب الشكل في مخك. سرطان لا يوجد له أي مرجع علمي تحدث عنه منقبل، وبالتالي فنحن لا نستطيع تقييم خطورته، أو كيفية علاجه".

"ماذا؟".

كانت مفاجأة قاسية لسارة. شحب وجهها أكثر مما هو شاحب، ولزمت الصمت لدقائق. قال هيثم قاطعًا حبل الصت غير المريح:

"لكن الغريب أن السرطان خامل. هو موجود في منطاق حيوية جدصا بمخك، بحيث لا يمكن أن نخاطر باستئصاله، لكن في نفس الوقت لا يهدد حياتك. على الأقل في الوقت الحالي".

قالت سارة بكمد:

"لا أعرف أن كان المفروض أن أفرح أو أحزن".

سألها باهتمام:

"ألا تعرفين كيف حدث هذا؟ كيف لا يتمدد سرطان كهذا وينهى حياتك؟".

لوحت بيدها بيأس:

"كيف أعرف إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي أعرف بها بوجوده، وكأن هذا ما ينقصني. ألا تكفي فترة العام التي كنتُ فيها غائبة عن العالم؟".

رمقها بتركيز، وكأنه يريد التأكد من صحة كلامها.

واصلت سارة:

"وها أنذا أفقد الوعي لأيام.".

ورفعت رأسها إلى هيثم:

"ثلاثة أيام يا دكتور؟".

" ثلاثة أيام".

من حسن الحظ أنها ما زالتْ مشوشة. عقلها ما زال يسبح خلف غمامة بيضاء ثقيلة، وكانت تهوى في النوم بدون سابق إنذار؛ لذا فقد كانت تعاملاتها مع الواقع سطحية، غير فعَّالة، وكأنها طرف ثالث في معركة لا ناقة لها فيها ولا جمل. كلا، التعبير الأمثل: هو أنها جالسة على ضفاف بحيرة ما، تضع ساقيها فيها كل قليل، وحينما تشعر بلسعة الماء الباردة تسحبهما بدون تأخر. لكن بعد مرور أسبوعين، حان الوقت لسارة نعمان أن تواجه الحقيقة فيما سيواجهها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يوم أربعاء. وكانت مريم قد اتصلت بها وأخبرتها بأنها ستأتى لتصحبها لمنزلها الجديد. من الأخبار المتناثرة من فم مريم-وما أكثرها-عرفت سارة أنها كانت ميسورة الحال، تعيش مع والديها في شقة فاخرة بحيٍّ راقٍ.

حسنا، لقد كانت تعيش فيها؛ إذ أنه بعد دخولها للغيبوبة، واحتياجها لعناية طبية خاصة؛ اضطر والدها لبيع كل ما يمكن بيعه، وبعد وفاة أمها كان والدها-الذي يبدو أنه قد أحسَّ باقتراب رحيله هو الآخر- قد باع الشقة الفاخرة، واشترى شقة صغيرة مكونة من حجرتين وصالة، لكن في منطقة أقل فخامة من سابقتها. كان يضع في حسابه أنه من الممكن أن تعود ابنته من غيبوبتها، فأين ستمكث؟

هذا إذا كفتَّ مدخراته في استمرار الرعاية الصحية لها، وحدوث عواقب تجعل قلبه يرتجف لمجرد تصور حدوثها فقط.

كما أخبرتكِ أنه كان يوم أربعاء. لا أعرف إن كنتِ تنصتين جيدًا لما أقوله أم لا، يرسم عقلك صورا تخيلية لما أقوله أم لا، تتواصلين جيدًا مع قصة سارة أم لا، لكننا الآن في المستشفى؛ مريم تجمع حاجيات سارة في حقيبة اشترتها خصيصًا، بينما هذه الأخيرة في الحمام، وقد اصطحبتها إحدي الممرضات لقضاء حاجتها.

قبل أن تدخل سارة الحمام لمحتْ رجلا يرتدي بذلة زرقاء قديمة، وكان يستند إلى الجدار، وهو يمسك بمكنسة، وهو يرمقها بنظرة حادة غريبة. بدا أنه من طاقم النظافة الذي ينتشر في المستشفى، وهو زي العمل الخاص الموحد بكل العُمَّال.

كانت النظرة مؤلمة؛ فخفضت بصرها أرضًا، وهي تستند إلى الممرضة، حتى وصلت الحمام بالفعل، وولجته. بعد الانتهاء وقفت أمام المرآة تتطلع للوجه الشاحب. جلد على عظم، وما بينهما مجرد طبقة رقيقة من اللحم والشحم. العينان غائرتين، وبدت كما لو كانت شبه ميتة، لا تدرك ما الذي جرى لها، ما الذي أدخلها في الغيبوبة في الأساس، متى ستحدث تلك المعجزة الكبرة وتبكي؟

قالت لمريم ذات مرة:

"أشعر بأن عينيَّ جافتان لا دمع فيهما. لماذا أستقبل ما حولي ببلادة كهذه؟".

"أنتِ كنتِ كذلك بالفعل يا سارة من قبل حتى أن تدخلى غيبوبتك. متعجرفة مغرورة، شديدة القسوة".

"أهكذا ترينني بالفعل؟".

"إنها الحقيقة؛ فلم أنتِ مستغربة؟ ثم إنها ليست المرة الأولى التي أخبركِ فيها بهذا. لكن يبدو أنك لا تتذكرين".

"دماغي مشوشة، وأشعر بتعب رهيب، ورغبة عارمة في النوم".

"لقد نمتِ بما فيه الكفاية. حان الوقت لتستيقظي".

ابتسمتْ بفتور. تشعر بأن ما في صدرها هو قلبٌ قُدَّ من صخر بارد، من المستحيل أن ينبض بشيءٍ من الحياة. خطر لها أنه ماذا سيحدث لها: لو لم تكن مريم بجوارها تدعمها؟ لوهلة شعرتْ بالامتنان، لكن هذا لم يستمر؛ بسبب ذكرى مرقتْ بذهنها، ولم تكن لطيفة، ذكرى جعلتها ترتجف.

تذكرت أنها تشاجرت مع مريم، قبل دخولها الغيبوبة بعامين تقريبًا، ولسبب وجيه؛ فقد كانت مريم على علاقة عاطفية ملتهبة مع رجل يُدعى تامر، تكللت في النهاية بخطبتهما، وكان تامر شابا وسيمًا قسيمًا، من ذلك النوع الذي تتمنى بعض الفتيات الارتباط به.

وحدث أن سارة كانت بصحبة صديقاتها في ذلك المقهى، ودخلت مريم بصحبته. تراهنت صديقاتها مع سارة بأنها لا تستطيع أن تجعله يحوِّل مشاعره ناحيتها بدلًا من مريم، لكنها رفضتْ في البداية.

الحقيقة أن علاقتها بمريم ابنة خالتها لم تكن جيدة بالمرة، كانت هناك مشاكل أسرية بين أمها وبين خالتها، وبشكل ما انعكستْ تلك المشاكل على الفتاتين، وحدث جفاء استمر لسنوات، لكن ليس لدرجة العداوة.

كان من الممكن أن ينتهي الأمر هكذا، خاصة أن صديقاتها لم يلححن في طلبهن هذا؛ فهن يعلمن أن طلبهن صبياني سخيف، ويشبه الأفلام العربية القديمة، حيث تقوم شريرة الفيلم بتدبير مكيدة في البطلة الطيبة، قبل أن تكشف الظروف الخدعة الدنيئة، وتفوز البطلة بقلب البطل.

لكن مريم فعلتْ شيئا سخيفًا:

فقدْ ألقتْ نظرة ساخرة شامتة على سارة من بعيد، وكأنها تقول: يا لي محظوظة!

هذا التصرف أغاظ سارة كثيرًا، أغاظها لدرجة أنها التفتتْ إلى صديقاتها وقالت:

"بكمْ الرهان؟".

وفي الأيام التالية جعلت سارة شغلها الشاغل خطيبها هذا. مكالمات هاتفية ناعمة، تداعب غروره، وتُشعره بأهميته، وبرغم أن مريم أجمل، لكن سارة كانت ذكية، وكان لها حضورًا خاصًا، ووقع خطيب مريم في الفخّ، ولم يعد حبيبها.

في الواقع صار مُدلهًا في سارة، وفى خطوة غير مدروسة منه نزع دبلة الخطوبة، ثم طلب مقابلة سارة، وأعلن لها حبه، وبما فعله. لكِ أن تتوقعي ما حدث؛ فقد رسمتْ سارة الرعب على وجهها، وهى تخبره بأنها نزغة شيطان، وسألته ببراءة لمَ فعل ذلك؟ وهنا بدا الارتباك على الشاب، ووقع في تلك المنطقة المُحيِّرة التي يسأل فيها نفسه إن كان أخطأ في تفسير الإشارات التي بدرتْ من سارة؟

تلك الأخيرة راحتْ تتحدث عن محاسن مريم، وقلبها المصنوع من ذهب، وجمالها الفائق، وأنه لو بحث في العالم كله عن فتاة مثلها؛ فلن يجد.

كما أخبرتكِ فإن تامر كان مرتبكًا، مرتبكًا لدرجة أنه قال بحنق:

"كيف تقولين هذا عليها، وهي تعتبركِ مغرورة متعجرفة، ذات قلب قاس".

قالت سارة بحزن مصطنع:

"فلتقل ابنة خالتي عني ما تريد، لكن ما أقوله عنها هو الحقيقة".

جُنَّ الفتى من تصرف سارة، والحقيقة أن ردة فعلها الآسرة، ومدحها لمريم جعله يتمسك بها أكثر، وبدأ الموضوع يصل لحدّ التوسل، لكنها نهضت من مقعدها ورفعتْ رأسها بكبرياء، وغادرت المقهي، ولو قُدِّر لتامر أن يُلقى بنظرة على وجهها في تلك اللحظة؛ لرأي الابتسامة العريضة الساخرة على شفتيها.

مكالمات كثيرة منه ولا ترد، ثم قامت بحظر رقمه.

حاول تامر العودة لمريم، وفي محاولة من محاولاته هذه أخطأ وأخبرها بكل شيء، وهذا لم يجعلها تعد إليه بالطبع، وإن تسبب هذا في مضاعفة كرهها لسارة أضعافا مضاعفة.

بينما كانت سارة أمام المرآة تتذكر هذه التفاصيل لأول مرة، كانت تشعر بتشوشٍ في عقلها، وقلبها يخفق كثيرًا.

في تلك اللحظة كانت تشعر بالخجل من نفسها؛ تفعل هذا بمريم، وهذه الأخيرة تقف بجوارها في محنتها، وتتولى أمورها، لتثبت فعلًا أنها صاحبة قلب من ذهب.

وقفت سارة أمام المرآة تتأمل ملامحها الشاحبة. هذه ملامح جثة عادت من الموت للحياة مؤخرًا؛ فكم تحتاج من الوقت لكي تستعيد نضارتها؟

ذلك الصداع اللعين في رأسها يعود مجددًا. تحسستْ مؤخرة رأسها، حيث شعرت بذلك الشقّ الملتئم. لا بد أنه من عملية أجريت لها. غسلتْ وجهها، ثم تأهبتْ لأن تستدير وتغادر المكان، لكن لم تفعل؛ هذا لأن يدين باردتين كالثلج أحاطتا

برأسها من الخلف في حركة مباغتة أصابتها بالذعر، لدرجة أنها حاولتْ أن تُلقى نظرة على صاحب اليدين؛ لكنها لم تستطع، ليس بسبب قواها الواهنة، وبنيتها الضعيفة فحسب، بل لأن صرخة هائلة صرخ بها جسمها، وكل خلية منه تتعذب وتئن، ووجدت سارة نفسها تهوى أرضًا، وهي تعبر أول عتبات اللاوعي، ثم عندما تهاوت على الأرضية الباردة؛ رأت ذلك الرسم الغريب على الجدار المقابل لها فوق المرآة، حيث راح يتكون ما يشبه رجل غير محدد الملامح، يرتدي عباءة سوداء وقلنسوة على وجهه، وخطر لها أنه رجل بلا وجه، واستقر هذا في أعماقها. تجسَّد الرجل الذي لا وجه له على الجدار للحظة قبل أن يتلاشى كسحابة من دخان.

ومع تلاشيه تلاشى وعيها أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

عندما استيقظتْ سارة كانت ممددة على فراشها، ومريم قلقة والدموع تملأ وجهها. من أين تأتي الفتاة بكل هذه الدموع؟ هذا لغزٌ بالنسبة لها. وكان الدكتور هيثم يفحصها، وهو يبتسم، كعادة الأطباء في بث الطمأنينة في عروق المرضى، وهو ما يُفلح أحيانًا، لكنه يفشل أحيانًا أخرى. سألتْ بحيرة:

"ماذا حدث؟".

قالت مريم وهي تمسح دموعها:

"لقد شعرتْ الممرضة بالقلق عليكِ، وزاد قلقها عندما سمعتكِ تصرخين؛ فدخلت الحمام؛ لتجدكِ راقدةً على الأرض فاقدة لوعيك".

قالت:

"لقد قام أحدهم بإمساك رأسي من الخلف، وذلك الرجل الذي لا وجه له ظهر على الجدار، ثم اختفى".

"ماذا؟".

تساءل هيثم وهو يجلس على المقعد المجاور لها.

كانت ستحكي ما رأته بالتفصيل، لكنها توقفت.

قال هيثم بقلق:

"هذا ما كنتُ أخشاه".

قالت سارة:

"ماذا تقصد؟".

"هل تذكرين سبب دخولك في الغيبوبة أصلا؟".

"للأسف لا؟".

"حسنًا، لقد وجدوكِ على ناصية طريق خالٍ، ورأسكِ يسيل منه الدم، والحقيقة أن بقاءك على قيد الحياة يُعدُّ معجزة. ثمة جزء من جمجمتك قد تهشَّم، ونحن نعرف أن هناك احتمالية لحدوث أضرار ستحدث لكِ في حالة عودتك، ليست الهلاوس أقلها. ألا تتذكرين ما حدث لكِ قبل الحادث؟".

"لا".

قالت لنفسها بأن ساميا جديدًا قد كَتب لها. كانت تشعر بصداع راح يتسلل لجمجمتها بشكل مؤلم؛ جعلها تضع يدها على رأسها:

"صداع".

قال هيثم:

"هذا شيء متوقع. سأضيف لكِ بعض المورفين، الذي سيخفف كثيرا من آلامك. من المهم ألا تفكري كثيرًا. حاولي أن توقفي عقلك قليلا".

"سأحاول. البحث عن زرّ لفعل هذا سيستغرق وقتًا".

قالتها متهكمة؛ فضحك.

شرع الدكتور هيثم في إضافة المورفين بالفعل، وانكشف جزء من ذراعه؛ فرأتْ سارة وشمًا مميزًا فيه. ثم تعلَّق بصرها بالرجل ذي البذلة الزرقاء القديمة الذي رأته قبل أن تدلف للحمام، وكان ينظر لها ذات النظرة المزعجة من خلال نافذة الحجرة المفتوحة. كان من الممكن أن يمرُّ الموقف مرور الكرام، دون أن يثير في نفسها أي شيء، لكن الرجل في الواقع فعل شيئا في غاية الغرابة. لقد ابتسم. لم تكن ابتسامة عادية، أو ابتسامة مواساة من رجل مشفقٍ عليها كمريضة راقدة بلا حول ولا قوة، بل كانت ابتسامة سخرية. التفتت إلى هيثم وقالت:

"من هذا الرجل؟".

نظر هيثم ومريم إلى حيث تشير، وقال الأول بحيرة:

"من تقصدين؟".

كان الرجل ما زال يرمقها بذات النظرة الغريبة. قالت سارة بعصبية:

"هذا الرجل؟".

نظر إليها بتشكك. ثم ابتسم، بينما قالت مريم برفق:

"تحتاجين إلى الراحة يا سارة".

نظرت للنافذة المفتوحة، حيث كان الرجل قد اختفى.

قالت سارة:

"إنه يرتدي زّي عمال النظافة".

قال هيثم:

"وما الغريب في رؤية أحدهم؟".

لم تحر جوابًا. وماذا عن ابتسامته؟

كان الدكتور هيثم قد انتهى من عمله وغادر الحجرة، بينما مريم تُقبِّلها فى جبينها:

"حاولى أن تستريحي. سأكون بالخارج لو احتجتني فى شيء".

أومأت برأسها. غادرت مريم الحجرة. أما هي فقد كان ممزقة بين أفكارها المشوشة كقطع من الزجاج تحاول أن تعود لتُشكِّل شيئا ما دون جدوى، وفي النهاية وجدت نفسها تغرق في نومٍ عميقٍ بلا أحلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت حديقة المستشفى تستحم في ضوء الشتاء الدافيء. ما زالت سارة تترنح، لكن كتف مريم كان موجودًا عندما احتاجته. جلستا على مقعدٍ خشبيٍّ، وأخرجتْ مريم من حقيبتها إناء معدنيًا، فتحته وأخرجتْ منه طعاما ساخنًا شهيًا، ثم أخرجت طبقين كبيرين ووضعت فيهما الطعام، وقالت:

"لقد أخذ منى أكثر من ساعتين تعب ووقوف في المطبخ".

كانت سارة شاردة؛ مما جعل مريم تلكزها في كتفها:

"هيه!".

انتبهت سارة، وقالت وهي تحاول أن تبتسم، لكن المحاولة باءت بالفشل:

"لا شيء".

سألتها مريم:

"ما هذا الذي في يدكِ؟ مفكرة!".

هزت سارة كتفيها:

"لقد أهداني إياها دكتور هيثم. قال بما أن ذاكرتي مشوشة؛ فمن الأفضل أن أدوّن كل ما أمرٌّ به، وما أشعر به".

"فكرة عظيمة".

"أعجبتني أنا أيضًا، وبدأتُ في تدوين كل ما أتذكره بالفعل".

ساد الصمت للحظة. همَّتْ مريم بقول شيء ما، لكن سارة قالت مرتجفة، وهي تشير إلى نقطة ما:

"هذا الرجل".

نظرتْ مريم إلى حيث تشير سارة، وقالت متساءلة:

"من؟".

"هذا الرجل الذي يجلس بجوار الشجرة يا حمقاء! ذلك العجوز الذي يرتدي بذلة زرقاء، هو نفسه من رأيته بالأمس وكان يمرُّ أمام النافذة، وقد ابتسم بسخرية غريبة، كأنه يعرفنى. حاولتُ أن أنبهكِ أنتِ والدكتور هيثم، لكن لم تنتبها".

"لا أعرف عن أي شيء تتحدثين يا سارة. لو كنتِ تقصدين هذه الشجرة الضخمة التي تستقر على بُعْدِ عشرين مترا؛ فلا يوجد تحتها أي إنسان أصلا".

نظرت إليها سارة بعصبية:

"هل تمزحين معى؟ إنى أراه بوضوح".

"أين؟".

نهضت سارة:

"لماذا نُحيّر أنفسنا. فلنتجه إليه، حتى أثبت لكِ أن العمى قد أصابك".

"والطعام؟".

"سينتظر. اتركي كل شيء هنا كما هو".

ثم يممت وجهها للشجرة، وكان عليها أن تمرّ بطريق مرصوف يبلغ خمسة عشرة مترًا تقريبًا، قبل أن تنحرف للشجرة، وقد فعلت هذا، ومريم تتبعها متبرمة، وهنا توقفت سارة مبهوتة. لم يكن هناك رجل. نظرت حولها بسرعة. هل يمكن أن يكون قد اختفى بمثل هذه السرعة؟ جلستْ على أقرب مقعدٍ لها، وهي تُقلّب كفيها بحيرة:

"لقد اختفى! عجبًا!".

"لا تتوهمي ما هو ليس موجودًا".

قضمت سارة أظافرها بغيظ:

"أؤكد لكِ أنه رجل عجوز، يرتدي زي عمال النظافة".

أشارت مريم إلى عاملي نظافة جرّان عربة بلاستيكية مُحملة بالقمامة، وقالت:

"مثل هذين الرجلين؟ ما الغرابة في هذا؟".

"ابتسامته الشامتة المرعبة، وكلامكِ أنكِ لا ترينه".

"أنتِ لستِ بخير يا سارة".

رمقتها سارة بعصبية:

"فلتقولي أني قد جننت. لماذا لا تقولينها؟".

أشاحتْ بوجهها:

"لا أقصد هذا. لكن كان هناك الرجل الغامض الذي لا وجه له ، ثم الآن يأتى هذا الرجل الأكثر غموضًا".

"ليست هذه هي أول مرة أراه فيها. لقد رأيته قبل أن أدخل الحمام، ثم رأيته بالأمس يمرُّ أمام نافذة حجرتي، وها هو ذا أراه للمرة الثالثة. فما معنى هذا؟".

مسَّتْ مريم كتفها برفق:

"معناه أنكِ متعبة، وتحتاجين للراحة، وتحملين بعض الأشياء التافهة فوق ما تحتمل. ما مررتِ به ليس هينًا. سقوطك ودخولكِ الغيبوبة، وموت والديك، وزوجكِ الذي لم يعد زوجك".

صرخت سارة بعصبية:

"لا تأتي على ذكر ذلك الوغد".

وتلفتت حولها بشراسة هاتفة:

"لقد مللتُ كل هذا!".

كان صوتها عاليا لدرجة أن من حولها نظروا إليها بدهشة، مع وجود بعض النظرات المتلهفة التي ترغب في أن يزداد الأمر سوءًا. لو كانت النظرات تقوم مقام الزيت الذي يوضع فوق النار؛ لكانت النتيجة مبهرة حقًا، والحق أن النتيجة كانت مبهرة فعلًا؛ فقد توهجت عينا سارة بالغضب، وقالت صارخة:

"يبدو أنكِ لم تنسى بعد".

قال مريم وهي تكتم غيظها:

"أنسى ماذا يا سارة؟".

"موضوع حبيبكِ السابق".

"ماذا تقولين؟".

"أذكركِ بما لم تنسينه أصلًا. لا بد أن قلبكِ ما زال مشتعلًا بالكراهية وحب الانتقام منذ أن تركك تامر وتقدم لي معلنًا حبه، وبرغم أني رفضته، لكنكِ تعتبريني- بشكل أو بآخر- السبب في نهاية خطبتكما".

"هذا غير حقيقي".

صرختْ في وجهها:

"لا تنكرى. حنانك الزائف، واهتمامك المقزز، وهذا الطعام الذي تأتين بها خصيصًا من أجلى، وخوفك المصطنع على صحتي العقلية، برغم أنكِ تبثين بذور الشك في نفسي، حتى أفقد الثقة فيها، وأصدق حقا أنى مجنونة!".

ولوحت بإصبعها في وجه ابنة خالتها الشاحب:

"لكنى برغم خروجي من غيبوبة سخيفة وطويلة وثقيلة الوطأة على قلبي وروحي؛ إلا أنني ما زلتُ في قمة تركيزي، وأعرف ما تنوين فعله. فلا تحاولي. لقد كشفتُ حقيقتك".

لا بد أن ما تجسّد على وجه مريم كانت نظرة ازدراء، وهي تتمتم:

"يا لكِ من مسكينة! يبدو أن ما مررتِ به قد أفسد عقلك فعلًا، حتى أنكِ صرت عاجزة على التمييز بين من يحبونك حقًا، وبين من يتمنون لك الشرّ. لكنى لستُ مندهشة على كل حال؛ فقد كان والداكِ يُشعلان لك أصابعهما شمعًا، وماذا كان جزاءهما منك؟ جحود ونكران، وغلظة في التعامل معهما، وبرغم هذا فلم يتخليا عنكِ عندما سقطتِ وكادت حياتك نفسها تنتهي، وقاما برهن ممتلكاتهما من أجلك، حتى تستطيع المستشفى تولي أمر علاجكِ دون أن يقلقا عليكي حتى لو ماتا".

كان وجه سارة هو الشاحب هذه المرة. كانت الكلمات تتدفق من فم مريم؛ فبدتْ أشبه بطلقات الرصاص. وختمت مريم كلامها بضحكة عالية تموج بالسخرية والمرارة وهي تقول:

"حتى عندما أردتِ الخروج من المستشفى لم تفكري أن تزوري قبريهما أولًا. كل ما فكرتِ فيه أنك تريدين الذهاب لشقتك الجديدة. لو كنتِ تبحثين عن الجحود في أجلى صوره يا بنت خالتى؛ فانظري في المرآة. أؤكد لكِ أنكِ سترين انعكاسا آخر يبين حقيقتك".

وتركتها وانصرفتْ. أما سارة فقد تعلق بصرها بمن حولها، وهم ينظرون إليها، وكأنهم يترقبون اللحظة التي تنفجر فيها بالبكاء، مع أن البعض منهم قد شعر بالشفقة عليها. كانت تريد الإنصراف لكنها ما زالت متعبة. فلم تجد بُدًّا من أن تجلس، وقد تحولت إلى تمثال من الصخر لا تبدر منه حركة تؤكد على أنه حي أصلا، اللهم إلا من خيطي الدموع اللذين انسابا على وجنتيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ينقطع بكاءها حتى بعد أن عادت لحجرتها، بعد أن قامت فتحية بمحاولة تهدئتها.

قالت سارة من بين دموعها:

"إنها تتهمنى بالجنون. أقول لها بأني رأيتُ ذلك الرجل ذي البذلة الزرقاء ، وتخبرني أني مجنونة".

هل كان شحوبًا هذا الذي ظهر على وجه فتحية؟ وسارة-برغم حالتها النفسية السيئة التى تلامس الحضيض ذاته-لاحظت هذا. سألتها بريبة:

"مالكِ؟".

أشاحت المرأة بوجهها:

"لا شيء يا بنيتي، لا شيء. حاولى أن تستريحي".

فى العادة، لا تتمتع سارة بفضول جارف، بل تتراجع للخلف مع أول إشارة من الإعراض والرفض. لكن فى تلك اللحظة لمحت شيئًا غير طبيعي في المرأة التى شهدت أولى لحظات فتحها لعينيها في العالم الجديد لو جاز التعبير؛ لذا فقد تشبثت بذراعها:

"أخبريني يا فتحية، ما الأمر؟".

قالت بعد تردد:

"لقدُ كنتُ موجودة عندما أتيتِ إلى هنا أول مرة. لقد كان جسدك محطمًا والدم يسيل من مؤخرة رأسك، وكان بقاءكِ على قيد الحياة شيئًا لم يصدقه الأطباء".

خفق قلبها:

"حقا؟".

"حتى الآن يتناولون قصة استيقاظكِ بدهشة وحيرة. عندما نجحت العمليات التي أُجريتْ لكِ لم يتفاعل الأطباء كثيرًا. ظنوا أن جسدكِ سينهار عما قريب، حتى

لو استقر لفترة وجيزة؛ فلو نجوتِ من مشكلة؛ فماذا عن الأخرى. لكن بمرور الوقت، بدأت حالتك تستقر بشكل غير متوقع، برغم وقوعكِ في غيبوبة عميقة".

"أمعقول هذا؟".

قالت فتحية:

"لقد رأيتُ أشياء غريبة في هذا المستشفى، لكن نجاتكِ يا بنيتي شيء لم نره من قبل".

قالت سارة وهي تبتسم بشحوب:

"كأنكِ تقولين أني أفلتُ من الموت".

"لا أحد يُفلت من الموت. كأن عودتك لهدفٍ ما".

"وما هو هذا الهدف يا فتحية؟".

"علمى علمك يا بنيتى. عقلى لا يستطيع أن يستوعب هذا، ولكن...".

قالت سارة بلهفة:

"ولكن ماذا؟".

هزت فتحية كتفيها:

"الرجل الذي تقولين أنه يرتدي البذلة الزرقاء. إن هذا هو زيّ عمال المستشفى الموحد يا بنيتي. رجل بالأوصاف التي تقولينها ينطبق على أكثر من ثلاثة أو أربعة رجال، وربما أكثر. المستشفى واسعة، ومتعددة الطوابق والأقسام كما تعلمين. احتمال الخطا وارد، واحتمال التوهم أيضًا".

وصمتتْ فتحية. استحثتها سارة على الحديث:

"أخبريني بما يدور في ذهنك. هناك شيءٌ مهمٌ تريدين قوله".

قالت فتحية بتردد:

"إنه بشأن الرجل الذي يرتدي عباءة، وقلنسوة تخفي وجهه. ذلك الذي تقولين بأنه الرجل الذي لا وجه له".

"ماله؟".

"إنه من أتى بكِ في ليلة الحادث".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا بد أن دقيقة قد مرت بعد جملة فتحية الأخيرة. قالت سارة بصوت مبحوح:

"هو من أتي بي إلى هنا. كيف؟".

قالت فتحية:

"ما سأخبركِ به لم أُخبر به أحدٌ إلا ابنتي سها، وهي لم تصدقني على أية حال. كنتُ أقوم بتنظيف الممرّ بالقرب من المصعد. ورأيتُ رجلًا يرتدي عباءة طويلة تكنس الأرض بأطرافها، ويضع قلنسوة على رأسه، بحيث لا يظهر أي شيء من وجهه. كان الممر خاليًا في تلك الساعة المتأخرة يا بنيتي. كانت ليلة ممطرة، وعنيفة، والجو شديد البرودة، وثمة مشاكل في شبكة الكهرباء. لم تكن هناك عمليات عاجلة، وثمة مباراة مهمة بين الأهلي والزمالك. رأيته يخرج من المصعد حاملا جسدكِ، والدم يسيل منكِ بغزارة. شعرتُ بالهلع، وأنا أفتح إحدى الحجرات وأُشير إلى ترولي بداخلها. دخل الغريب الحجرة، ولم أر أي ملمح من وجهه، على الرغم من أني كنتُ قريبة جدًا منه، وكأنه بلا ملامح أصلًا، ووضع جسدكِ على العربة، وقد وقفتُ على الباب وأنا أصرخ منادية الأطباء.. وعندما التفتُ إلى داخل الحجرة كان الرجل قد اختفى! اختفى كأنه لم يكن. لم أخبرهم بما حدث، وإلا قالوا أني مجنونة. قلتُ بأن أحدهم قد أتي ولم أدقق في ملامحه، وانصرف دون أن أنتبه. وبسبب مشاكل الكهرباء كانت كل الكاميرات معطلة، وظروف الليلة الغريبة جعلت عملية التحقق من وصول هذا الشخص إلى المستشفى تكاد تكون مستحيلة".

كانت سارة تفغر فاها متعجبة. بينما فتحية تقول وهي تنهض:

"لقد انتهت نوبتى، وابنتى سها لا بد أنها قد عادت الآن من الكلية. الخائبة لا تعرف كيف تسلق بيضة".

كانت سارة غارقة في التفكير دون أن تنطق بكلمة. استرخت في مقعدها وهي تفكر في كلام فتحية. إذن فهي لا تتخيل. الرجل الذي لا وجه له موجود بالفعل، وهو من أتى بها إلى المستشفى. لكن لماذا؟ وكيف عثر عليها أصلا؟ أم أنه هو المسئول عما حدث لها؟ أخرجت المفكرة من تحت الوسادة، ودونت فيها تلك التفاصيل، ثم أغلقت عينيها، وغرقت في نوم عميق، وعلى الرغم من أنها لم تر أحلامًا بالمعني المتعارف عليه، إلا أنه قد خُيِّل إليها أنها رأت وسط عتمة الأحلام ذلك الرجل الذي لا وجه له وهو يبتسم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت فتحية تتهيأ للعودة إلى منزلها. أبدلتْ ثياب العمل في حجرة مخصصة لهذا الغرض، ثم تركت المستشفى. كان هذا بعد الثامنة مساء تقريبا. الجو بارد، المارة

قليلون، وثمة رذاذ مطر غسل الطَرقات الأسفلتية؛ فبدت لامعة، وكانت هناك شجرة عطرية الرائحة عند مدخل المستشفى؛ هذا ما جعل الرائحة العطرية تنتشر لمسافات لا بأس بها.

كان منزلها يقع على بُعْد محطة مترو واحدة، وقد أغراها ذلك الجو الساحر أن تسير بدلا من أن تستقل المترو.

وخطر لها أنه سيكون مزدحمًا فى تلك اللحظة. راحت تسير، واشترت بعض الحاجيات من أجل البيت، ثم دخلت ذلك الشارع الضيق، الذي مرت به كثيرًا من قبل، حتى صارت تحفظ كل جزء فيه. فى تلك اللحظة - وعندما دخلت الشارع- بدأت تسمع صوت الخطوات. خطوات بطيئة تتبعها.

شعرتْ بالقلق وتوقفتْ؛ فتوقفتْ الخطوات بدورها. هل يكون أحد اللصوص أو المتحرشين؟ سكتت الخطوات فور وقوفها. خطر لها أنها تتخيل، أو أن الأمر لا يخصها بأي حال من الأحوال. أكملت السير، وأذناها تنتصبان في تركيز، وللغرابة الشديدة؛ بدأت الخطوات تعود مرة أخرى.

راح التوتر يُعلن عن نفسه بداخلها. يركض مع دمها، يعبث بقلبها العجوز، ويسبب لها حالة من الذعر غير الممنطق. ما تجهله هو ما يسبب الخوف فعلا، وفكرة أن تسير امرأة وحيدة بعد الثامنة في شارع ضيق فى تلك الساعة بدت لها فكرة مخيفة بالفعل.

أسرعت في مشيتها حتى تخرج بسرعة من الشارع، وتسارعات خطواتها، ومع خطواتها المتسارعة بدأت الخطوات تتسارع أيضا وهي تتبعها بدأب. بدأت تركض، وتلهث والعرق يتصبب على وجهها، ولعلها المرة الوحيدة التى تتعرض فيها لموقفٍ كهذا، ولكِ أن تتخيلي حالة المسكينة.

رأت نهاية الشارع؛ فلاح الأمل على وجهها، لكنها -وسط العتمة- انتبهتْ أن هناك من يقف منتظرًا إياها، وكان يبتسم. كانت تعرف صاحب الوجه، فهي تراه في المستشفى كثيرًا، وتساءلت عن السبب الذي يجعله يأتي لشارعٍ كهذا، ويتتبعها بهذه الطريقة العجيبة. وقبل أن تنطق بكلمة معلنة عن دهشتها هذه. تحرك ذلك الشخص نحوها، وابتسامته تتسع، وهو يمدُّ يديه نحوها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى صباح اليوم التالي كان هناك توتر غريب يحوم في الجوّ. شعرت سارة بهذا وهي تستيقظ من نومها. حتى أنها سألت أحد الممرضين:

"ماذا حدث؟".

قال الرجل بحزن بالغ يبدو واضحًا في عينيه وصوته ووجهه:

"فتحية المسكينة؛ وجدوا جثتها في أحد الأزقة".

اقشعر جسدها برعب وعدم تصديق. فتحية التى كانت تتسامر معها بالأمس، وتحدثها عن الحاج بدر؟ مستحيل!

"لقد مزَّق أحد المختلين وجهها وحنجرتها. لا بد أنه أحد المجانين. مسكينة ابنتها سها. لقد كانت فتحية كل حياتها. ماذا ستفعل الآن بعد رحيلها؟".

الحق أن سارة لم تستوعب حقًا ما سمعته. انصرف الرجل وتركها، وبرغم أن أي شخص سينظر إليها من النافذة سيظن أنها وحيدة، جالسة في فراشها، تريح رأسها على الوسادة، وعيناها تتثاقلان، تفكر في عشرات الأشياء.

فتحية ماتت؟

يا لها من المسكينة!

تشعر بحزن عليها. تتذكر العديد من الحوارات التي دارت بينهما، وهي تحكي لها عن حياتها وما لاقته من مشاكل عامة، ومشكلتها الخاصة جدًا مع ابنتها الوحيدة سها. خاصة وأن فتحية تحتفظ بسرٍّ ما عن ابنتها هذه، هذا السر الذي....

في تلك اللحظة- وهي بين اليقظة والنوم- شعرتْ سارة بأنها ليست بمفردها، وأن ثمة وجودًا ما معها فى الحجرة. رفعتْ رأسها بتوتر، وهنا أمكنها أن ترى الرجل الذي لا وجه له، وقد كان يرتدي عباءة، وقلنسوة على وجهه تخفي رأسه بالكامل، وراح يقترب منها، ثم وقف أمامها.

لكِ أن تتخيلي المنظر المرعب، ولكِ أن تتخيلي أيضًا أنها تجمدت من الرعب، تجمدت لدرجة أنها لم تستنجد بأحدٍ ممن كان في الخارج. الصمت يخيّم على الحجرة.

ثم تحرك الرجل ناحيتها أكثر. هل كان هذا صوت يشبه الهسيس يخرج منه، والغريب أنها فهمته. كان يقول لها:

"عندما تشعرين أنكِ محاصرة، ولا يوجد مهرب أمامك، كل ما هو مطلوب منكِ أن تغمضي عينيكِ، وتتخيلي أنكِ مسجونة في حجرة ما، وأن للحجرة بابٌ أخضر. افتحي هذا الباب واعبريه. افعلي هذا، وسأحميكِ".

ثم تلاشى من أمامها، كأنه سحابة من دخان.

ثم انتبهتْ سارة وفتحتها عينيها. هل كان ما رأته حقيقة أم مجرد حلم؟

ظلت سارة في مكانها لنصف ساعة، وعندما بدأت تخرج من دائرة الذهول التي كانت تحاصرها، قالت لنفسها:

"لا بد أن أخرج من هذا المستشفى اللعين، الذي يكاد يصيبني بالجنون".

أخرجت المفكرة من تحت الوسادة، ودونت فيها ما شعرت به، وما رأته، أو ما تتخيل انها قد رأته، ثم اتخذت قرارًا ما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" ثمة من ينتظركِ بالخارج".

قالت مريم مندهشة:

"من؟".

هزّ الساعي رأسه بلا مبالاة، وتركها تضرب أخماسًا في أسداس لمعرفة هوية الزائرة المجهولة؛ إذ أنها المرة الأولى التى يحدث فيها هذا الموقف، طوال عملها كبائعة للأدوات الطبية. غادرت مكانها، ولم يكن يخطر ببالها أصلا أن من تنتظرها هي ابنة خالتها سارة. فور أن رأتها تجمدت، وظهر الضيق على وجهها. لكن سارة، وذلك الانفعال على وجهها؛ جعلها تتوجس خيفة.

"سارة؟".

قالت هذه الأخيرة بعصبية، حتى دون أن تُلقي التحية أو حتى تعتذر عما حدث بينهما:

"لماذا لا تردين على هاتفك اللعين؟".

"كنتُ مشغولة فحسب".

"مشغولة أم غاضبة؟".

قالت مريم ببرود:

"ما رأيك أنتِ؟".

تجاهلتْ سارة سؤالها، وقالت بعصبية:

"أخبرتكِ أن موضوع الرجل الذي لا وجه له كان حقيقيًا".

كان صوتها عاليًا بعض الشيء، وتذكرت مريم موقف الحديقة، وصوت سارة الذي لفت إليها الأنظار، ولم ترغب أن يتكرر نفس الموقف المحرج في مكان عملها.

"ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟".

"لقد رأيته مرة أخرى يا مريم. لقد رأيته هناك وكلمني".

" الرجل الذي لا وجه له؟".

أومأت برأسها بانفعال. تنهدت مريم وكأنها تكتم غيظها، وسحبت سارة لركنٍ خالٍ يسمح بترديد كلامها العجيب.

"مرة أخرى يا سارة؟ لماذا لا تريدين أن تفهمي أنكِ...".

ثم قطعت كلامها وهي تتنهد. رفعت يديها في الهواء ولوحت بهما وهي تقول:

"اسمعى؛ سأفرغ من العمل بعد نصف ساعة تقريبًا. دعيني أنتهى ثم نتقابل في ذلك المطعم الصغير أمام مقرّ العمل".

ثم رفعتْ رأسها متحيرة:

"كيف سمحوا لكِ بترك المستشفى أصلًا؟".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جمعهما المطعم الهادىء. طلبت مريم شطيرة برجر، بينما كانت سارة سارحة فى المارة، تنظر إليهم عبر الحائط الزجاجي. شعرتْ براحة. الوضع مختلف عن الإقامة فى المستشفى الكئيبة، وكأن رؤية مظاهر الحياة تبعث فيها بعض الحياة بالفعل.

"والآن أنا منتظرة ما ستقولينه يا سارة".

"هه! ماذا تقولين؟".

لوحت مريم بيدها وكانها تُعلن يأسها من قريبتها. أما سارة فقد أخذت دقيقة على الأقل حتى تستجمع أفكارها، ثم قالت:

"سأحاول أن أرتب أفكاري معكِ يا مريم من البداية، وحاولى التركيز فيما أقوله".

قالت مريم معترضة:

"ظننتكِ ستعتذرين على كلامك السخيف لي فى حديقة المستشفى".

قالت سارة:

"يبدو أننى تعرضتُ لشيء ما لا أتذكره جعلني أواجه خطر الموت، لكن بدلا من ذلك فقد دخلت فى غيبوبة سخيفة بعد أن تعرضتُ لحادثٍ ما، وبعد مضىّ ما يقرب من عام عدتُ؛ لتبدأ سلسلة من الأحداث الغريبة برؤيتى للرجل ذي البذلة الزرقاء القديمة، وللرجل الذي لا وجه له. تحليل الدكتور هيثم أن الأمر متعلق بالجزء المهشم من جمجمتى، والذي ربما قد أثَّر على صفاء رؤيتي وقدرتى المعتادة على استيعاب العالم من حولي، وأنشأ سلسلة من الأوهام والهلاوس، وهو تفسير أنيق لكنى لا أشعر أنه حقيقي. ما أشعر به فعلا أن ما أراه موجود بالفعل أو شبه موجود".

صمتت للحظة، ثم قالت:

"ثم أن موضوع الرجل ذي البذلة الزرقاء هذا مثير للتساؤلات؛ فيبدو أني الوحيدة القادرة على رؤيته، خلال المرات الثلاث التي رأيته فيها".

قالت مريم بعصبية:

"بالضبط، الأمر كله متعلق برؤيتكِ أنتِ له؛ مما يؤكد أنها مجرد هلاوس بصرية غريبة. لا أعرف لماذا أنتِ متأكدة من صحة مما ترينه، برغم أنه لا يوجد دليل قوي على صحة ما تدعينه، ناهيكِ على أن الوصف الذي أخبرتني به يطابق العديدين من عمال النظافة".

"نفس كلام فتحية المسكينة".

قالت مريم بدهشة:

"المسكينة؟ مالها؟".

"لقد ماتت".

كادت تقفز مريم من مقعدها:

"ماذا؟".

"هذا ما جعلنى أخرج من المستشفى وآتي إليكِ، بما أنكِ لا تردين على مكالماتي الهاتفية التى تجاوزتْ العشرين مرة".

" هل تخيلتِ أنى سأرد عليك بعد الذي قلته؟".

ثم قالت مريم بأسى ظهر على وجهها:

"فتحية المسكينة. منْ الوحش الذي يقوم بتمزيق وجهها وحنجرتها هكذا!".

قالت سارة بشرود:

"ربما تعرف شيئًا مهمًا قد يلقى الضوء على الغموض الذي يُحيط بي".

ضحكت مريم، وكانت ضحكتها عالية، تموج بالسخرية:

"يبدو أن الأمر كله يتمحور حولكِ. أليس كذلك. ما ترينه، ما تشعرين به. أتعرفين أن هذه هي مشكلتك دوما يا ابنة خالتى العزيزة. حتى قبل أن تدخلى المستشفى".

قالت سارة بضيق:

"هل ستعودين لانتقادي مرة أخرى كما فعلتِ فى المستشفى"

قالت مريم بشراسة:

"أنتِ لم تعتذري حتى الآن، وكأن الأمر متعلق بكِ أولًا وأخيرًا. أنتِ تفترضين أني شخص مُسلَّم بوجوده في أي وقت تحتاجين إليه، دون أن تهتمى بي، أو تسألى عنى. كان هذا ديدنك قبل الغيبوبة، وديدنك بعد عودتكِ. يبدو أن العادات السيئة لا تموت في النهاية".

"ما دمتِ ترينني هكذا دومًا؛ فلِمَ أصررتِ على زيارتى والاهتمام بي؟ تعلمين أني عندما أستيقظ لن أمنحكِ عناقًا حارًا. أم ظننتِ أن تلك المأساة سوف تغير شيئا فيّ؟".

قالت مريم:

"هذا ما ظننته فعلا. ظننتُ أنكِ عندما تعودين وتجدين أنكِ صرت بلا والدين مُحبين، وبلا زوج قام بتطليقك، وتركك لأخرى؛ أن تدركي أني عائلتك الوحيدة، ولحمك ودمك. لكن كما قلتُ لكِ منذ لحظات: هذه الأشياء لا تموت بسهولة".

نظرتْ إليها سارة متفحصة وجه بنت خالتها، وكأنها تسبر أغوارها. لم يستمر هذا سوي دقيقة فقط، وسارة تنهض:

"إلى أين؟".

"سوف أذهب لزيارة ابنة فتحية. ربما أجد عندها بعض الإجابات لتساؤلاتي، أخبريني بالعنوان لو كنتِ تعرفينه، ولتذهب كل واحدة منا في طريقها".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت سها فى أواخر العشرينات تقريبًا، جميلة الملامح إلى حدٍ ملفتٍ، وكانت ترتدي ثوبًا أسود، وتطلعت بحيرة إلى سارة التى تقف أمام باب بيتها القديم المكون

من طابقين، والذي يقع في ذلك الشارع المتطرف شبه الخالي في تلك الساعة:

"أفندم".

"هل أنتِ سها؟".

"أجل".

"أنا سارة. جئتك أعزيكِ في وفاة والدتك".

همهمت الفتاة ببضع كلمات غير مفهومة. كانت سارة تنتظر أن تدعوها الفتاة للدخول. لكنها لم تفعل. فقط تجمدت في مكانها، وكأن الزمن نفسه قد أُصيب بالشلل. خطر لسارة أن الأمر يشبه عودتها من الغيبوبة، حيث صارتْ استجابتها للأشياء شبه منعدمة، وكأنها تحتاج إلى وقت لكي تتعود على العالم الجديد. هل سها في وضع مماثل؛ تحاول التعود على عالم لا توجد فيه والدتها؟

الغريب أن ردة فعل سها تختلف تمامًا عن ردة فعل سارة؛ سارة التى التى لم تذرف دمعة واحدة على والديها. لمريم الحق إذن أن تشعر بالضيق، وكأن سارة قد تحولت لتمثال من حجر. على ذكر مريم؛ فمن الطريف أنه فور مرورها بذهن سارة حتى ظهرت بشحمها ولحمها، وتقول:

"ألن تدعينا إلى الدخول على الأقل؟".

اندهشت سارة من وجودها، ولاح على شفتيها شبح ابتسامة. لكنها لم تنطق بكلمة. سها هي من تكلمت:

"تفضلا".

دخلا للمكان الصامت الكئيب، حيث راح حزن الفقد يمارس سلطته كما يجب أن تكون. كانت هناك ثلاث لوحات كبيرة معلقة على الجدار، تمثل سها وأمها فتحية، في مراحل سامية متعددة. بشكل ما- كما خطر لسارة- كانت علاقة سها بأمها متوطدة، بعكس علاقتها هي مع أبويها. جلست سارة ومريم بينما توجهت سها للمطبخ لعمل واجب الضيافة. مالت سارة نحو مريم:

"بالمناسبة: كيف تعرفين عنوان فتحية أصلًا، والذي أعطيتني إياه؟".

"لقد أتيتُ إلى هنا من قبل. ربما لا تعلمين أن فتحية كانت تشعر بالشفقة عليكِ، وكنت أوصيها بكِ خيرا. وتوثقتْ علاقتنا لدرجة أنها قد دعتني على الغداء هنا منذ أشهر، لكن ابنتها لم تكن موجودة".

تراجعتْ سارة للخلف بدهشة:

"إذن؛ فقد أتيتِ من أجل فتحية، لا من أجلى".

"لا فائدة فيكِ. هل نسيتِ بهذه السرعة أني كنتُ أوصيها بكِ حتى تهتم بكِ وأنتِ فى غيبوبتك اللعينة أيتها الجاحدة!".

الحق أن عينا مريم كانت تشتعلان غيظًا، وكأنها ضجرت من حماقات ابنة خالتها. قطعت سها ذلك الصمت المشحون بالتوتر بصينية عليها كوبان ساخنان. بعد لحظة من الصمت غير المريح قالت سارة:

"ما الذي تعرفينه عن الرجل الذي لا وجه له يا أستاذة سها؟".

لاحت ابتسامة شاحبة على وجه سها:

"هه! إن فقد أخبرتكما أمي عن تلك القصة الخرافية؟".

تمتمت مريم:

"القصة الخرافية؟".

جلست سها، وقدمت لهما المشروب الساخن، وقالت:

"بالطبع قصة خرافية. من يصدق هذا الهراء؟!".

نطقت ذلك باشمئزاز وتبرم غريبين. سألتها سارة:

"هل كانت العلاقة بينكما طيبة يا سها؟ أقصد بينكِ وبين أمك".

أما مريم؛ فقد فقالت معترضة:

"ما هذا السؤال الغبي يا سارة؟ لقد كانت علاقتهما عظيمة. هل تظنين أن كل العلاقات سيئة مثل علاقتك بـ...".

ثم بترتْ عبارتها متحرّجة، وأمسكت مشروبها، وبرغم أنه ساخن بشدة، لكن قبضتها التفت حوله، وكأن حرجها قد غطّي على ألمها.

"لا، لم تكن كذلك".

إجابة سها كانت أشبه بسدادة فلين انتزعت على حين غرة من فوهة زجاجة مُحكمة الغلق بالنسبة لسارة، وهذا أشعرها بالدهشة؛ لقد رأت كيف كانت فتحية تتحدث عن ابنتها بفخر، وعيناها تلمعان؛ حتى أنها- للحظات- شعرتْ بالغيرة. لطالما كانت مصدر متاعب لوالديها، لطالما عانيا من عجرفتها وصلفها وخشونتها في التعامل.

فهل كانت فتحية كاذبة في الحوارات التى أجرتها معها، أم سها هي من تكذب، أم أن الأمر متعلق بالسرّ الذي أخبرتها فتحية به؟ ربما هو كذلك.

لاحظي أنها استيقظتْ من غيبوبتها حديثًا، وهذه الأشياء عندما تلح جدًا على الذهن تسبب للرأس صداعًا.

قالت سها:

" ربما كانت والدتي تبدو حنونة ومبتسمة طوال الوقت أمامكما فى المستشفى، لكنها قاسية جدا. لقد حكمت حياتي بالحديد والنار طوال الثانوية العامة، وحتى عندما دخلتُ الكلية، كنتُ أُقنع نفسي بأنها تفعل هذا من أجل مصلحتى. حتى قابلتُ حسن".

تمتمت مريم:

"حسن؟".

"كان زميلي في الكلية. شيئًا فشيئًا بدأنا نتعارف. أعرف أننى جميلة، ولكمْ سمعتُ شهقات الإعجاب من أفواه الرجال، حتى غدا هذا طبيعيًا ومملًا بالنسبة لي. لكن حسن لم يفعل. أعجبني ذكاؤه وعقله، وأدركتُ أنه يستحق أن أمنحه قلبي".

جذبت تفاصيل القصة انتباه سارة؛ فقد حكت لها فتحية أجزاءً منها، وشعرتْ أن الأحداث تتلامس بشكل مع قصة زواجها، التى ما زالت تقبع خلف سياج من الضبابية، وتعرف أنها ستواجه ذلك الألم في مرحلة ما مستقبلًا. سألتْ سارة سها:

"وماذا حدث بعد ذلك؟".

"تهاوت قصتي ولم تكتمل بسبب أمى؛ فقد رفضتْ أن أرتبط به؛ بحجة أنى ما زلتُ فى كلية الطب، وأن هذا سيؤثر على مستقبلي".

وأطلقتْ ضحكة قصيرة، لا تتوافق مع روح الحزن المخيمة على ذرات الهواء ذاته في ذلك المنزل:

"ويبدو أن لوالدتي سطوة وقوة؛ فقد تقابلا، وأسمعته ما يكره؛ فشعر حسن بأن كرامته قد أُهينت، حتى أني حاولت التواصل معه أكثر من مرة، لكنى فشلت. كان يشيح بوجهه عنى، وآلمنى هذا كثيرا، آلمنى جدًا".

كانت علامات الألم تظهر بالفعل على وجه الفتاة:

"أنا لا أكره أمي لو كنتما تظنان هذا. لكنى ما زلتُ غاضبة منها. في كل مرة كنا نتكلم فيها كنت أشعر بالغضب منها، وحتى وهي فى عالم الحق وأنا في عالم

الباطل؛ أنا غاضبة منها. لقد خذلتنى، ولا أستطيع أن أسامحها. بمعنى أدق: لا أقدر على فعل ذلك".

قالت سارة:

"أنتِ مخطئة يا سها. أنتِ لا تعرفين القصة كاملة".

رفعتْ مريم رأسها مندهشة. أما سها فقد قالت بخشونة:

"غير صحيح".

قالت سارة، وعيناها تلمعان بانفعال، بدا غريبا لمريم التى لم تتعود على ذلك من قريبتها:

"بل صحيح، ودعيني أحكي لكِ ما حدث. لقد قرر حسن أن يفاجئك بطلب يدكِ من أمكِ، ويقدم لكِ هذا الخبر السعيد كهدية لكِ في عيد ميلادك. الحقيقة أنكِ كنتِ تخجلين من عمل أمكِ كعاملة نظافة؛ فلم تخبريه بذلك. كل ما عرفه منكِ عن أمكِ كعاملة نظافة في المستشفى، وتركتِ هذه المعلومة عائمة دون توضيح. ذهب للمستشفى ذات مساء، ولأنه يعرف اسم أمك كاملا؛ فقد وصل إليها بسهولة، وصُعق عندما رآها ترتدي زي عاملات النظافة وتقوم بعملها بدأبٍ، وهي توزع ابتساماتها العذبة على الجميع. كان مُحرجًا كما لكِ أن تتخيلي. وكانت والدتك من الذكاء أن تلاحظ نظراته. وبسبب ارتباكه وتخبّطه في الكلام قال كل شيء. هل تعرفين ماذا قالت والدتكِ له؟".

كان وجه سها شاحبًا، وهي تقول باضطراب:

"ماذا قالت له؟".

كانت انفعالات سها جيّاشة. بدا هذا على ملامح وجهها، الذي احمرَّ بشكل ملحوظ. أما سارة فقد واصلت شاردة، وكأنها تلتقط الذكريات من حقل شاسع المدى:

"أخبرته بأنكِ فتاة رائعة ومتميزة وطيبة، وأنه محظوظ حقًا لأنكِ تحبينه، ولو أنه بحث فى العالم كله عن فتاة أخرى مثلك؛ فلن يجد".

هنا سالت دمعة من عينيّ سها، دمعة صغيرة، وكما تعلمين؛ فإن أول الدموع قطرة.

أكملتْ سارة:

"قال لها بأن أية أم ستقول هذا عن ابنتها. قالت له بأن هذا صحيح، لكنها أكدت له أنها لا تبالغ في شيء؛ فأنتِ بالفعل فتاة مذهلة. هل تعلمين ماذا قال لها؟ لقد

قال لها بأنكِ لو فتاة طيبة على خَلق بالفعل؛ لم تكوني لتكذبي بخصوص عمل أمك".

قالت سها وهي تمسح دموعها، وخرج منها صوت أجشّ:

"لم أكذب، فقط لم أخبره بكل التفاصيل".

قالت سارة:

"على كل حال؛ فقد قال بأن من تكذب أو تخبيء هذا أو تتحرج من ذكره؛ فهي ليست جديرة به، إنه لم يعد يشعر بالثقة نحوك. حاولتْ والدتك كثيرًا لكي يتراجع عن قراره، لكنه كان مُصّرًا. قالت له أمكِ بأن بتخليه عنكِ سوف يكسر قلبك، وأن الحل الوحيد الذي تراه أمامها أن تتظاهر بأنها من سترفضه. بهذا سيتحول غضبكِ إليها، وهي على استعداد لكي تتحمله، لكن أن تعيشي بقلب مكسور؛ فهذا ما لا تقدر على تحمله".

هنا كان نشيج سها يعلو ببطء حزين. ودموعها لم تجد أمامها حاجزا يمنعها؛ فانهمرت. ساد الوجوم على وجهي سارة ومريم، والتأثر على وجهيهما.

"لماذا لم تخبرني، لماذا؟".

قالت سارة:

"لو أخبرتكِ فستلومينها أيضًا، وستلومينه وستعيشين في ندم يقتلكِ من الداخل".

"صدقتْ. هذا ما يحدث لي الآن. الندم يكاد يأكلنى من داخلي".

كانت مريم بجوار النافذة، تُلقى نظرة عابرة. قالت بدهشة:

"منْ هذا الرجل القادم من هناك؟".

قفزت سها وسارة إليها، ونظرن جميعًا إلى الشارع الخالي، حيث كانت الشمس تتأهب للغروب بالفعل، وبدأت بوادر الليل القادم، حيث رأين ذلك الرجل الذي يرتدي ثوبًا أزرق، ويبدو تقدُّم السن والإرهاق عليه. مجرد رجل عادي بائس، فلمَ الخوف؟

لكن الحقيقة أن قلب سارة كان يخفق برعب. قالت مريم:

"لمَ يبدو مألوفًا لي؟ هل رأيته من قبل؟ آه، لا بد انه أحد عمال النظافة بالمستشفى. لكن ما الذي أتى به إلى هنا؟".

قالت سارة بصوتٍ مرتعب:

"أترينه؟ إنه من أخبرتكِ عنه من قبل، واتهمتني بالجنون".

وكان الرجل ذو البذلة الزرقاء يتجه نحوهن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

كما ترين يا عزيزتي؛ فنحن الآن نشاهد مأزقًا شديد الخطورة.

لم تكن سارة تحتاج لأن تكون عبقرية حتى تُدرك أن ذلك القادم من آخر الطريق لم يأت بخيرٍ معه. الآن انتقل من خانة الحكايات الخيالية إلى الواقع، وصار شخصًا تراه كل الأعين بوضوح، بدلا من كونها الوحيدة التى كانت تراه من قبل. كان أشبه بموظفٍ مرهقٍ عائد لتوِّه من عمله. على الأقل تعرف أنها لم تفقد عقلها بعد.

قالت سها مرتعبة:

"من هذا؟".

قالت سارة بصوت مرتجف:

"لا يوجد خير يُرجى من وراءه".

قالت مريم كمن تريد التوثق:

"الرجل الذي رأيته في الحديقة؟".

أجابتها سارة:

"ليس فى الحديقة فحسب، بل رأيته فى داخل مبنى المستشفى نفسه أكثر من مرة".

وصرختْ في وجه ابنة خالتها، ربما لتفرغ تلك الشحنة المتراكمة هناك من الانفعالات:

"هل صدقتنى الآن؟".

كانت سها أكثر عملية منهما؛ فقد جرت نحو الباب الذي كان مُغلقًا بطبيعة الحال، لكن هذا لم يمنعها من أن تضيف المزلاج الحديدي الإضافى. ثم عادت للفتاتين، وتساءلت:

"لكنى لا أفهم. ماذا يريد منا؟".

قالت سارة وهي تشير إلى نفسها:

"بل ماذا يريد منى أنا؟".

قالت سها بضيق:

"هل جلبتِ هذا الرجل إلى هنا؟".

أومأت سارة برأسها بحرج. قالت سها وهى تشير إليه، وقد صار على مسافة أقرب عن ذي قبل:

"هل هو رجل حقًا، أم أنه مخلوق غير بشري؟".

أخرجت مريم هاتفها المحمول:

"سأتصل بالشرطة".

تعلقت بها الفتاتان بلهفة. الشرطة؟ كيف لم يفكرن بهذا من قبل؟

"غريبة! لا توجد شبكة!".

هتفت سارة:

"حاولى مرة أخرى".

رأتها سارة تُجرى عدة محاولات باستماتة، ثم رأت الفشل على وجه مريم. عدة محاولات أخرى، ونفس النتيجة. وعلا الإحباط وجوه الفتيات. عدن للنظر، لكنهن لم يجدن الرجل. فقط الشارع الخالي، و....

"لقد رحل".

قالتها مريم، وهي تضع هاتفها في حقيبتها. الحقيقة أن هذا الارتياح والسعادة دام لثوان معدودات فقط؛ فقد ارتفعت دقات واضحة على الباب.

وضعت سها يدها على فمها. تمتمت سارة بخوف:

"هو!".

قالت مريم بصوت خفيض:

"لا تنطقا بكلمة حتى ينصرف. سنتظاهر بأننا لسنا هنا".

الدقات تعود مجددًا بإلحاح. مع صوت هذه المرة، وصوت مألوف أيضًا:

"سها. افتحي الباب. لقد نسيتُ المفتاح اليوم قبل ذهابي للعمل".

امتقع وجه سها، وهتفت:

"أمي!".

الارتباك على وجه مريم، أما سارة فقد كانت تعرف الصوت جيدًا؛ فقد كانت الراحلة مؤنسة لياليها ورفيقة مسامراتها، وتكاد تحفظ نبرة الصوت ذاتها. كيف ذلك؟!

وثبتْ سها نحو الباب، ونظرت من ثقب الباب، وهناك كانت فتحية تقف أمام الباب، والضجر على وجهها، وهى تحمل كيس الحاجيات كعادتها كل يوم.

وهنا شرعت سها في إزاحة المزلاج، وبدأت في فتح الباب، لكن مريم قفزت نحوها وهى تصرخ:

"لا تفعلي يا حمقاء!".

لكن قفزتها أتت بعد فوات الأوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يحدث شيء مخيف. فبرغم أن وجود فتحية نفسه غير متوقع، بما أنها ميتة في الأساس، لكن بخلاف ذلك فقد دخلت الشقة وهي تخطو بخفة. لا شيء غير اعتيادي.

قالت فتحية بحيرة:

"أستاذة سارة! كيف أتيتِ إلى هنا. لقد تركتكِ فى المستشفى لتوي مع الدكتور هيثم الذي يُجرى عليكِ فحصًا كعادته".

تراجعتْ سارة للخلف بخوف، بينما مريم تتصنع الهدوء وهي تقول:

"حقًا؟".

لكن سها كانت تقف وهى ترتجف، بينما دموعها تنسكب بغزارة. لقد ذكَّر المشهد سارة بما كانت تراه من قبل من ابنة خالتها.

لماذا لا تملك ذلك الشيء السحري الذي يجعلها تبكي بدون انقطاع؟ هل قسا قلبها مثلا؟ كان من الممكن أن تترك نفسها لهذه الخواطر وتسرح معها، لكنها الآن أمام ظاهرة عجيبة لا يوجد لها تفسير: فتحية الميتة قد عادت للحياة!

الموقف أغرب من كل ما سبق.

"أماه، أنتِ حية؟".

قالت فتحية بتذمر وضيق:

"بالطبع، أنا حية يا سها. ما هذا الكلام الغريب الذي تقولينه؟".

ثم استدارت إلى سارة:

"أخبريني يا أستاذة سارة: ما الأمر؟ هل فعلتْ سها شيئًا أزعجك؟ كيف غادرتِ المستشفى أصلا؟".

قالت مريم:

"أنا أخبرتها يا ست فتحية.. أتذكرين.. لقد أتيتُ إلى هنا من قبل".

واصلت فتحية كلامها المندفع:

"بالطبع أتذكر، لكنى مندهشة من أن قريبتك أتت معكِ. هل أتيتما عبر طريقٍ مختصرٍ؟ ولماذا أتيتما؟ هل أرسلكما الدكتور....".

"اهدئي يا أماه، أرجوكِ".

صمتت فتحية، وهي تنقل عينيها بين الفتيات، وكأنها تريد معرفة ما الذي يحدث بالضبط.

مدت سها يدها برهبة وأمسكت بذراع أمها، وكأنها تتأكد من وجودها في الواقع. لامستْ ذراعًا طرية دافئة بالحياة. ثم وجدت نفسها تعانقها وهي تبكي بحرقة. هنا تجمدت فتحية وقالت:

"أنتِ تبكين يا سها! هذه أول مرة أراكِ تبكين فيها منذ فترة طويلة".

"أنا مسرورة لوجودكِ يا أماه".

قالت فتحية، والحيرة على وجهها:

"وما المناسبة؟ ثم لماذا ترمقنني بهذه النظرات الغريبة كما لو أنكن رأيتن شبحًا!".

قالت سارة وهى تجلس، وقد عجزت ساقاها عن احتمال ما تراه بعينيها:

"جملتكِ صادقة إلى أقصى حد يا ست فتحية. نحن بالفعل نرى أمامنا شبحًا".

"هل جننتِ؟".

صرخت بها فتحية بغلظة، وهي تضع حقيبة الحاجيات الورقية جانبًا على منضدة قريبة. قالت سارة وهى ترفع يدها:

"هذه المرة الأولى في حياتي التى أتمنى فيها أن أكون مجنونة. لو تبين لي أن الموتى يعودون للحياة؛ سأفقد إيماني بكل شيء. سيكون هذا العالم عبثيًا لا تحكمه قوانين، وكأني أمشي على سحابة ستبلعني في أي وقت. إنه الشك الكفيل بتدمير كل شيء".

قالت فتحية، وقد استكانت ملامحها نوعًا:

"أنتِ مجنونة بالفعل".

أجلستْ سها أمها برفق:

"ألا تتذكرين ما حدث يا أماه؟".

قالت فتحية بشكّ:

"وما الذي حدث؟".

مسحت سها دموعها:

"لقد وجدوكِ ميتة في شارع قريب من المنزل، ذلك الشارع الذي تسلكينه دومًا. ألا تتذكرين؟".

"هل أصابكِ الجنون أنتِ أيضا؟!".

"إنني أراكِ حية أمامي، برغم أني رأيتُ جثتكِ في المشرحة منذ ثلاثة أيام".

وثبتْ فتحية كمن لسعتها أفعى:

"جثتي؟!".

عادت دموع سها في الانهمار مرة أخرى:

"نعم يا أمي، أنتِ ميتة، ميتة!".

حدقت فيها فتحية بحيرة، ثم ضيق، ثم غضب:

"هكذا إذن؟! لا بد أنكِ تنتقمين منى بسبب ما فعلته مع حبيبكِ الوغد هذا".

ثم استدارتْ إلى سارة التى جلست ترقب ما يحدث أمامها بعينين متسعتين، وكأن عقلها يعجز عن التعامل مع ما تراه، وقالت فتحية لها بشراسة:

"إذن، فقد أخبرتها، أخبرتها بالسرّ الذي بحتُ لكِ به".

قالت سارة مرتبكة:

"كنت مضطرة، لقد كانت تظن...".

وثبت فتحية نحو سارة، وأمسكتْ بذراعها:

"لكنكِ بُحتِ بالسرِّ الذي ائتمنتكِ عليه أيتها الخائنة".

كانت سارة مرتعبة، وهي تحاول تخليص نفسها من قبضة فتحية الثقيلة. لأول مرة ترى جانبًا قاسيًا مخيفًا في فتحية الرقيقة المليئة بالعطف والحنان.

أمسكتْ سها ومريم بفتحية بصعوبة.

"أرجوكِ اهدئي يا أمي. هى لم تقصد شيئا. لقد كانت تريد أن تخبرني أنى كنتُ مخطئة في حقك. لقد شعرتُ بندمٍ بالغٍ بعد أن عرفت الحقيقة".

هدأتْ فتحية فعلا، وقالت بصوت خفيض:

"هل حقا شعرت بالندم؟".

"نعم، لقد ظللتُ عامًا كاملا أُحمِّلك مسئولية فشلي في هذه العلاقة، وأنكِ السبب فى انفصالنا، ثم أدركتُ أنكِ أردتِ أن تحميني من تبعات هذه العلاقة، تحميني من الألم".

قالت فتحية وهي تعود للجلوس:

"هذا ما يفعله أي والدين على كل حال. أن يحميا أولادهما من الألم".

ثم ابتسمتْ:

"لقد عرفتِ هذا الآن، أليس كذلك؟".

أومأتْ سها برأسها؛ مما بدا لسارة- وهي تراقب الوضع- أن الموقف مخيف أكثر من تعاملهن معه. في أي واقع بديل آخر سيصرخن، وسيحاولن الهرب من هذا المسخ، وسيكون هناك الكثير من الصراخ والركض، ومحاولات الفهم والتحليل.

لكن يبدو أن سها قد استكانت لوجود أمها بشكل غير متوقع، وبدأتْ تتعامل معه بشكل يؤكد أن الفتاة حصيفة أكثر مما ينبغي، أو حمقاء أكثر مما ينبغى. هى نفسها لما رأت الرجل الذي لا وجه له كانت ردة فعلها أكثر احتراما مما تراه أمامها فى تلك اللحظة.

أربدَّ وجه فتحية، وهى تقول متذمرة:

"لمَ عاملتني بهذه الطريقة المهينة إذن؟".

لم تجب سها، وهى تعضُّ شفتيها. واصلتْ فتحية:

"لقد تركتينى أقاسى من هجركِ وعقوقكِ لى، وأنتِ تشيحين بوجهكِ عني، وتتعاملين وكأنني غير موجودة في المنزل، برغم أني أنا منْ أقوم بالطرْقِ على باب حجرتك كل صباح، ومنْ أُجهِّز لكِ طعام الإفطار، ومنْ تغسل ملابسك وتكويها، ومن تُنفقِ عليكِ، ومن تُغدق عليكِ حنانها، حتى لو لاقيتُ منكِ صدًا وهجرانًا".

نكستْ الفتاة رأسها:

"سامحيني يا أمي".

قالت فتحية:

"ربما لم تريني وأنا أتكور على نفسي كل ليلة، وأنا أبكي بصوتٍ محترقٍ من الألم، وجوفى يشتعل حزنا وكمدا، لكني كنتُ أحرص ألا أُصدر صوتا حتى لا أزعجكِ. أقول" قلبي على بنتى انفطر، وقلب بنتي عليَّ حجر".

سالت دموع سها، وبدا أن كلمات أمها كسياطٍ حامية تمزق جسدها.

"أقول لنفسي: هل أخطأتُ بعدم الزواج بعد وفاة والدكِ؟ ربما لو فعلتُ كان من الممكن أن أحظى بحياة فيها دفء وحب، والعديد من الأبناء الذين سيكرمونني ويقدروننى حق التقدير، ولا أتعرض حينئذٍ لعقوقكِ. ربما لو حدث ذلك ما كنتُ سأستيقظ كل يوم وأذهب لعمل مرهقٍ ومتعبٍ، وأنا أقابل الجميع بابتسامات مزيفة، محاولةً أن أترك انطباعًا جيدًا عند الجميع بحيث يتقبلوننى ويحبونني. نعم، كنتُ أحاول أن أجد فيهم ظلًا من المحبة، التي لم أجدها في ابنتى الوحيدة. يا لخسارتي يا سها! يا للوجع الذي يستقر في قلبي، والذي ينهش قلبي كل يوم بسببكِ!".

انهارت سها فى البكاء، وهي تجثو على ركبتيها:

"سامحيني يا أمى، لم أقصد هذا. كنتُ غبية وأنانية لا أري إلا نفسي وما أريد. لم أفكر فيكِ، ولا فيما تشعرين به. كنتُ معمية بحبي، مشوشة بما أشعر به من ألم".

قالت فتحية وهي تشيح بوجهها:

"من الممكن أن أسامحكِ الآن، لكنى لن أفعل".

هتفت سها:

"لماذا يا أمي؟ أرجوكِ سامحيني، الألم يكاد يقتلني".

"لقد قتلني عقوقكِ من قبل آلاف المرات. لكنكِ لم تشعري بذلك".

قبَّلت سها قدمي أمها:

"ماذا أفعل حتى تسامحيني؟".

كان يبدو أن سها فى حالة نفسية غير مسبوقة، الدموع لا تكفُّ عن السقوط، وجهها مُحمّر من الانفعال، عيناها حمراوان، وبدا كأن العالم كله قد اختفى، ولم يعد فيه سواها هي وأمها.

قالت فتحية، وثمة قسوة غريبة تظهر على وجهها:

"كيف أسامحكِ، وقد فات الوقت على هذا يا سها؟ كيف تطلبين السماح من امرأة قد رحلتْ بالفعل؟ أنا ميتة يا سها. ميتة، وأستقر تحت طبقات التراب. لقد فات إصلاح ما أخطأتِ فيه".

تجمدت سها، وقد صدمها الجواب. جثت فتحية على ركبتيها، وقالت لها وهى تنظر في عينيِّ سها مباشرة:

"ستعيشين حتى آخر أنفاس ساميكِ حزينة، وسيقتلكِ الندم يوما بعد يوم، وعندما تتزوجين ستنجبين أطفالًا ستكوني لهم الأم الحنون، كما يجب لأي أم أن تكون، لكن خمنى ماذا سيحدث؟ سيعقونكِ أيضًا، وسيكسرون قلبك، وسينتهى بكِ الأمر في دار مسنين، وحيدة، ينخر الألم والعجز في عظامك، ثم يأتى ألزهايمر، وتنسين الجميع، وتموتين ناسيةً منسّية".

بدا الرعب الشديد على وجه سها. أكملت فتحية:

"هل تريدين حياة قاسية مثل هذه؟".

هزتْ سها رأسها أن لا.

"هل تريدين أن أُجنبكِ قسوة انتظار هذه الحياة، هل تسمحين لي أن أعفيكِ منها للأبد؟".

أومأت سها برأسها، بينما سارة ومريم تقفان أخيرًا، وقد تخلصتا من حالة الشلل التى أصابتهما، وهما يشاهدان ما يحدث بين سها وأمها، وكأن تنويمًا مغناطيسيا قد أثرَّ عليهما بقوة؛ فلم تُصدرا أية ردة فعل. نهضتا، وقد أدركتا أن شيئا ما سيحدث، شيئا غير مريح بطبيعة الحال.

مدت فتحية يديها إلى وجه سها بحنان، وراحت تُمرر أصابعها برفق على وجنتيها، واستكانت الفتاة لهذه اللمسة الدافئة من أمها، ثم انطفأت الأنوار بغتة لدقيقة او أكثر. ثم عندما عاد النور مجددًا للحظة ظهر منظرٌ غير متوقع:

فبدلا من الأم كان الرجل العجوز ذو البدلة الزرقاء القديمة، جاثيا على ركبتيه، وهو يغرس أصابعه في عنق سها التى كانت جاحظة العينين، تحاول أن تأخذ أنفاسها، لكن بدون جدوى، وقد اتسعتْ عيناها رعبًا وألمًا.

صرختْ سارة ومريم، وقفزتا للخلف بخوفٍ ملتصقتين بالجدار، ويبدو أن حركتهما قد أزعجتْ العجوز؛ فنظر إليهما.

حسنًا، لم يكن هناك شيء فى عينيه العاديتين، ومع ذلك، فقك كانت عيناه مخيفتين. ربما يكون العادي البريء مخيفًا أكثر من الذي يستخدم اكسسوارات

مؤثرة.

ثم عاد العجوز مرة أخرى إلى سها، وضغط أكثر بأصابعه في عنقها، بينما هذه الأخيرة تشهق، وعيناها تكادان تخرجان من محجريهما.

كانت سارة ومريم تريدان التحرك، فِعِلُ شيء ما، لكن الخوف- فيما يبدو- شلَّهما، وقسوة المشهد المخيفة جعلتهما لا يتحركان.

جلد سها بدأ يشحب، ثم تهاوتْ على الأرض، وهى ترتجف، ثم سكن جسدها.

ثم وقف العجوز، واستدار للفتاتين.

تعلقتا بشفتاه وهى تتحرك، ويصدر منهما صوت كأنه قادم من بئر عميقة:

"واحدة منكما ستلاقى مصير ما لاقته هذه الفتاة، وسيحدث هذا قريبًا".

الأنوار تنطفيء مجددًا، ثم عندما عاد الضوء كانت سها قد اختفت، العجوز قد اختفى، فتحية لم يعد لها أثر، لكن بقيت سارة ومريم، ومعهما الخوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكفُّ مريم عن البكاء، بخلاف سارة التى جلست بجمود أمام كورنيش النيل، حيث جلستا.

قالت مريم:

"هل رأيتِ ماذا فعل ذلك اللعين بتلك المسكينة؟".

"مسكينة فعلا، لم تستحق هذه النهاية".

توقفت مريم وقالت وهي تمسك بذراع سارة:

"كيف لا تنهارين، كيف لا تبكين؟ منذ استيقظتِ من غيبوبتكِ ولم تذرفي دمعة واحدة. هل أنت ابنة خالتى فعلا، أم واحدة غيره؟ا".

قالت سارة بارتباك:

"ماذا تقولين يا مريم؟ انا ابنة خالتك طبعا".

"الهول الذي رأيناه يجعل أكثر القلوب قسوة وجمودا تنفجر من التأثر. هل أثرت الحادثة على جسمك ومشاعركِ؛ فصرت لا تتأثرين بشيء؟".

"ربما هذا ما حدث".

ثم قالت سارة:

"لماذا منعتنى من إبلاغ الشرطة؟".

لوحت مريم بيديها بيأس:

"وماذا نقول لهم؟ هل ترين فيما شاهدناه أمرًا طبيعيًا؟ أبسط شيء سيسألون عن مكان العجوز وسها وفتحية؟ ماذا سنقول لهم وقتئذ؟".

أومأت سارة برأسها. مريم على حق.

ارتفعتْ رنة موسيقية من حقيبة مريم؛ مسحت دموعها في منديل ورقي وهي تدفع بيدها داخل الحقيبة. أخرجت هاتفها ونظرت للشاشة المضيئة وقالت بدهشة:

"إنه زوجك السابق محسن".

ارتبكت سارة، بينما مريم ترد:

"أهلا محسن. أنا بخير. سارة؟ إنها بخير. لا تقلق عليها".

وأبعدت الهاتف قليلا عن فمها، هامسة:

"إنه يريد التحدث معكِ. ماذا أقول له؟".

شعرت سارة بخوف مبهم. قالت وهي تسرع أكثر:

"لا، أخبريه أنى مشغولة، أو غير موجودة، أو أنى لا أريد أن أكلمه أصلًا".

تفهمت مريم ردة فعلها على الفور، وهى تعيد الهاتف لأذنها وتقول:

"الوقت غير مناسب الآن يا محسن. ربما فيما بعد. سلام".

ووضعت هاتفها في حقيبتها:

"النذل تذكر الآن أنكِ استيقظتِ، برغم أني أخبرته منذ عدة أيام على الواتساب".

"لا تذكري اسمه أمامي مجددًا. اتفقنا؟".

"كما تريدين".

"والآن، خذينى للبيت".

"بالمناسبة: لقد تحدثتُ مع الدكتور هيثم، وأخبرني بأنكِ أصررتِ على الخروج؛ فلم يجد مناصًا من تنفيذ رغبتك، ويكتب لكِ إذن خروج".

مرة أخرى ارتفع رنين هاتف مريم. تنهدت بضيق وهي تُخرج الهاتف مجددًا. دهشة على وجهها.

"آلو. من المتحدث؟ صبري أبو النور؟ منْ صبري أبو النور؟ صحفي؟ وماذا تريد منا الصحافة يا أستاذ صبري؟ ماذا؟ الوقت غير مناسب بالمرة. مع السلامة".

نظرة متساءلة في عينيِّ سارة، لكن مريم لوحت بيدها:

"كما سمعتِ. إنه صحفي. دعكِ منه. والآن هيا بنا إلى الشقة".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشقة في بناية قديمة، بحيّ أقل بكثير من الحيّ السابق، وكانت ضيقة نوعًا، وملآنة بحاجيات الشقة السابقة الواسعة؛ فبدت ضيقة مزدحمة إلى حدٍ كبيرٍ.

راحت سارة تتحرك ببطء، مُحاذرةً أن ترتطم بشيء، ثم توقفت أمام صورة ضخمة معلقة على الجدار، تتضمن والداها وأخوها الراحل جبريل. كان أبوها يضع جبريل على فخذه، وأمها تفعل معها المثل، وكانا ينضحان بالشباب.

صورة أخرى تحمل أبويها أيضا، وهى تقف خلفهما، والحزن على وجهى والديها، وقد بدت عليهما علامات تقدم السن.

قالت مريم وهى تفتح الثلاجة:

"لقد أتيتُ بالأمس، وطبختُ لكِ الأصناف التى تحبينها".

وأخرجت عدة أكياس ورقية، ودخلت المطبخ، ولا بد أنها قد ركزت كثيرًا فيما تفعله، حتى أنها لم تلاحظ اقتراب سارة منها، وهي تقول بصوت خفيض:

"هل كانا يذكراننى؟".

التفت إليها مريم، وسألتها:

"من؟"

"والداي".

"وهل هذا سؤال؟ لم يكفا عن الكلام عنكِ للحظة واحدة".

كانت ابتسامة سارة شاحبة وهي تقول:

"لم أكن أتخيل أن هذا سيحدث".

"ولمَ؟".

"بسبب جبريل".

نهضت مريم، ومسحت يديها بمنشفة نظيفة، وهي تخفض من لهب الموقد قليلا:

"لا تفكري في ذلك. هذه قصة قديمة وذهبت لحالها".

جلست سارة على مقعد مُتْرِب:

"لا شيء يذهب حقيقة. من الممكن أن يتوارى، لكنه سيظل في مكان ما في الذاكرة، حتى لو كان في منطقة مظلمة. مع والديَّ دومًا كان جبريل في المقدمة برغم غيابه. دومًا يتصدر المشهد حيًا وميتًا".

"أنتِ لم تري ما رأيته يا سارة. أخبرتكِ أن والدتك لم تكفّ عن البكاء. فقدانها لجبريل، وخوفها من فقدانكِ عجلا بموتها، وموتها عجَّل بموتِ والدك؛ فلا تنبشي فى الماضي، وانظرى للمستقبل".

ضحكت سارة. الحق أنها أول ضحكة تخرج من جوفها، منذ أن عادت من الغيبوبة، ومع هذا لم تكن ضحكة طبيعية، بل كانت تموج بالمرارة والسخرية.

"أنظر للمستقبل؟ أي مستقبلٍ هذا؟ أنا مُطلَّقة، وزوجي الحبيب تخلى عني وتزوج أخرى، والداي قد رحلا، لا يوجد عمل لي، سأُقيم في شقة قديمة، وسأشعر فيها بالوحدة الشديدة قطعًا، وهناك رجل ما يضعنى هدفًا له، وربما ألحق بوالدي عن قريب. ألم يكن من الأفضل أن أظل في غيبوبتي حتى تحين ساعتى، بدلا من العودة إلى هنا في عالم لم يعد لي فيه شيء؟".

سالت دمعة من عينيِّ مريم، وهي تقترب منها وتحتضنها برفق:

"لديكِ أنا يا حمقاء. أنتِ ابنة خالتى الحبيبة برغم أنني لا أتحملكِ أحيانًا".

ابتسمت سارة بشحوب، وتركت نفسها لمريم تعانقها، وللغرابة شعرتْ بشيء من الدفء والحميمية؛ فاستكانت بين ذراعيها. رائحة شيءٌ محترقٌ ملأت المطبخ تدريجيًا؛ فانتشلتْ مريم من وقفتها، وجعلتها تهرع للطعام، تنقذ ما يمكن إنقاذه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الطعام شهيا. برغم إلحاح مريم أن تقضى ليلتها مع سارة، إلا أن هذه الأخيرة أصرَّت أن تذهب لشقتها.

كانت مريم تعيش بمفردها في شقة بعد وفاة والديها، وقد تعودت على الوحدة، وعلى تصريف أمورها بنفسها، بينما تجد سارة نفسها مرتبكة في تصريف أمورها هى الأخرى.

كانت مُرهقة ومتعبة والخواطر والأسئلة تزدحم في ذهنها كسربٍ من النحل لا يتوقف عن الطنين، وكان هذا مؤلمًا. كأنها طفلة أتت للعالم، وعليها أن تتحمل المسئولية فجأة.

وهى تجلس في ذلك المقعد المُترِب، متأملة المكان حولها بعينين نصف مغلقتين، وبرغم أنها كانت تنظر هنا وهناك، لكنها كانت تتحاشى النظر للوحة المعلقة التى تضمُّ أربعتهم، قبل أن يصيروا ثلاثة في اللوحة التى تليها على الجدار.

كانت لديها رغبة أن تقوم وتنتزع اللوحة من مكانها، وتضعها جانبًا على الجدار، أو تغطيها بقطعة قماش عريضة تحجبها عنها. لكنها كانت مرهقة ومستنزفة، وكان النوم يحوم حولها بعصاه.

ونامت.

وفي النوم تنبعث حياةٌ من نوع آخر.

حياة مختلطة بالعديد من الذكريات التى راحت تظهر بشكل مضطرب. أخوها جبريل يقفز في الصالة مثيرًا الكثير من الإزعاج، وهو يتحرك بنشاط مزاولًا بعض التمرينات الرياضية، وكانت هي فى حجرتها تذاكر، والضجيج يكاد يمزق طبلتى أذنيها.

لم تحتمل وخرجت غاضبة وهي تصرخ. نظرة مندهشة في عيون الجميع، مع الكثير من الصمت، ثم تختفى الصورة. تعود صورة أخرى حيث كان والداها في زفافٍ ما، وكانت هي في ثالثة إعدادي، فتاة نحيلة بضفيرتين، بينما شقيقها صار فارع الطول ممشوقًا، ووسيمًا بشكل ملف للنظر.

أبوها يقدمه بفخر شديد، بينما هي تنزوى وراء أمها بخجل، وهى تتوقع أن يقدمها والدها هي الأخرى، لكنه - لسبب ما- لم يفعل. حزن كثيف يغطي قلبها...

تختفى الصورة... ثم تظهر صورة أخرى....

ثم تظهر وهى تسير فى الشارع، بينما أخوها يقف مع بعض رفاقه، وهو يضحك مشيرا إليها بخبث.. يضحك أصدقاؤه أيضا.. تُسرع فى خطواتها أكثر هربًا من نظراته الساخرة الحارقة هو ومن معه.. وكما يحدث في الأحلام كانت تشاهد الحدث نفسه وهى ترى نفسها، لكن المشاعر المضطربة المؤلمة تحزُّ فيها كسكين..

اختفاء.. ظهور....

أمها تبكي بحرقة وأبوها يكتم دموعه، بينما هى ترتدي الأسود مثل أبويها، وتجلس دون أن تنزل منها دمعة واحدة، وكانت تضع ذراعها الأيمن فى الجبس..

اختفاء.. ظهور....

كانت تكلم أمها، والتى كات تحدق في الأمام، حيث صورة أربعتهم مُعلّقة على الجدار.. تربت على كتف أمها مواسية، لكن أمها لا تنتبه إليها أصلا.. تتجه إلى والدها حيث يمسك مسبحته.. تكلمه فيلتفت إليها بنظرة خاوية، ثم يعود لعدِّ حبَّات المسبحة بحركة آلية، بينما تشفُّ عيناه عن حزن عميق وشرود أعمق..

اختفاء.. ظهور..

هي في حجرتها تبكي..

اختفاء.. ظهور..

فى حجرتها تحطم الأشياء...

اختفاء.. ظهور..

وهى شابة، تسير فى الشقة بوجه جامد بين أبويها اللذين يرتديان الأسود، يرمقانها بصمت دون أن تبدر منهما حركة او اهتمام بوجودهما.. كانت- كما أخبرتكِ- تشاهد كل هذا بعين كُلِّية المعرفة، وكأنها انقسمتْ لذاتين.. وأثناء مراقبتها لنفسها شعرت بوجود ما.. شخص ما يقترب منها من الخلف، وهو يميل نحوها ويقول بصوتٍ مألوف:

"أعرف ما الذي فعلته".

انتبهت من النوم فجأة، وهى تفتح عينيها، وذعر بالغ على وجهها، وهى تنظر للخلف بسرعة.. لا شيء.. تنهدتْ، وهى تضع يدها على قلبها الذي كاد يتوقف من ذلك الخوف العميق المستقر بمنطقة مظلمة بداخلها.

تستعيد الجملة مرة أخرى بالصوت المألوف الذي تعرف صاحبه جيدًا..لم تعد تحتمل فى جلستها أن تنظر إلى الصورة المعلقة، وخُيِّل إليها أن أخوها جبريل يرمقها بتركيز، وربما كانت هناك ابتسامة لوم على وجهه.

نعم، لقد كان الصوت هو صوته نفسه. أشاحتْ بوجهها. لكن هذا لم يفلح في إخماد توترها. نهضتْ، وقامت بفكّ اللوحة بشيء من الصعوبة، حيث كانت معلقة بمسمارٍ غليظ. فكرت أنها تتركها على الأرض، لكنها خشيت أن ترتطم بها بدون قصدٍ؛ فتحطمها. دارت بعينيها في المكان الذي لم تستكشف تفاصيله بعد.

ثم رأت ذلك الدولاب.

دولاب قديم صغير الحجم، كان والدها يضعه دومًا في الصالة بشقتهم القديمة. اقتربت منه، وفتحته ووضعت فيه اللوحة بالفعل، بعد أن لفتها بقطعة قماش سميكة.

ثم انتبهت لذلك الشيء القابع هناك.

كان هاتف شقيقها الراحل بلونه الأزرق المميز، والذي لم تنس شكله قط. لم يكن هاتف شقيقها فحسب، بل هاتف والدها بلونه الأسود، ذي الماركة القديمة، حيث أنها تتذكر أنه لم يرض بتغيير هاتفه، وكانت تعاتبه أحيانًا على الهاتف القديم؛ فكان يقول لها:

" بهذا المنطق؛ إذن عليَّ أن أستبدل والدتكِ بأخرى".

كان يقولها على سبيل الدعابة، بينما أمها تمطُّ شفتيها بامتعاض. وجدت نفسها تبتسم على الرغم منها. هذه ذكرى باسمة من الماضي البعيد.

الحقيقة أنها لم تجرؤ أن تلمس هاتف أخيها، لكنها أمسكتْ بهاتف والدها، وعادت للجلوس مرة أخرى، وراحت تُقلِّب فيه. كان هناك ملَفًّا على الهاتف يحمل اسم والدتها؛ ففتحه بفضول.

وسرت في جسدها قشعريرة لما رأته. كانت والدتها راقدة على سرير بأحد المستشفيات، وقد نحل جسدها، وغزا الشحوب وجهها، حتى أن عروق جبينها كانت بارزة. كان والدها هو منْ يصورها وهو يتكلم(صوته كان قادما من خارج المشهد بطبيعة الحال) وهو يطلب من زوجته أن تبتسم.. لكنها كانت شاردة.. ناداها مرة أخرى؛ فانتبهت.. ابتسمت أمها هذه المرة.

" لا تعجبني هذه الابتسامة يا حبيبتي".

هكذا قال أبوها وهو يقترب منها.

"هل هو زر أضغطه؛ فأبتسم".

قالت أمها هذا وهى تبدو متبرمة.. ضحك أبوها وقال لها:

"تخيلي أن سارة سترى ابتسامتك هذه ذات يوم بعد أن تعود وبعد أن تُشفى من مرضك.. هل تريدين أن ترى هذه الابتسامة الشاحبة؟".

"هل ستعود حقًا؟".

"ستعود. عليكِ أن تتحملي وتقاومي ليس من أجلي أو من أجلك فقط، ولكن من أجل سارة".

طافتْ ابتسامة حزينة على وجهها، وهي تكرر سؤالها:

"هل تظنها ستعود حقا؟".

"بدون شك".

هتف أبوها بحماس، لم تدر إن كان حقيقيًا أم مفتعلًا. لكن يبدو أن هتافه كان مقنعًا لأمها؛ فقد ابتسمت، وعندما فعلت ذلك أضاء وجهها حقيقة، بينما صوت أبيها يقول بابتهاج:

"هكذا تكون الابتسامة. لقد عدتِ عشر سنوات للخلف".

"ما زلتُ أحتفظ بجمالي؟".

"أنتِ كذلك يا حبيبتي، أنتِ كذلك".

بدا أن التوتر الذي كان يسود الحجرة راح يتلاشى. فجأة ظهر على الباب الدكتور هيثم. شعرت سارة بالدهشة..

هذه هي المرة الأولى التى تعرف أن الدكتور هيثم كان يعالج أمها. الرجل لم يتكلم كلمة عن هذا من قبل. كانت صورته تبدو بوضوح وهو يقترب من أبيها حامل الهاتف، وهو يقول:

"كفّ عن التصوير يا أستاذ نعمان. دع زوجتك تستريح".

"سأفعل يا دكتور هيثم. فقد خذ لنا هذا اللقطة ونحن معًا".

بدا أن الدكتور هيثم يمسك الهاتف، ويختفى من الكادر، بينما يدخل أبوها المشهد وهو يحتضن زوجته بحنان. كانت ملامح وجهه مرهقة متعبة، وكان هناك حزنٌ عميقٌ أعمل أثره في جلده، لكنه كان يبدو سعيدًا وهو يحتضن زوجته. قال وهو يقبل زوجته فى جبينها:

" ستكتمل سعادتنا عندما تستيقظ سارة يا عزيزتى".

كانت شفتا أمها تتحركان، هل كان هذا دعاءً صامتًا من قلبها أن تتحقق تلك الأمنية؟

انتهى الفيديو، لكن أثره العظيم لم ينته من قلب سارة، والتى وجدت نفسها تبكي. الحقيقة أنها لم تشعر بأنها تبكي أصلًا، كل ما حدث أنها تجمدتْ في المقعد، وهي تمسك بالهاتف النقَّال دون أن تبدر منها حركة، ثم فوجئت بنفسها تبكي، بل وكانت دموعها تخضب ثوبها بالفعل.

كم استمر هذا؟

ربما ساعة. نعم، ربما ساعة بالضبط، ثم نهضتْ وقد شعرت بأن ثمة ثقلا قد انزاح عن قلبها؛ فشعرت بالخفة. اغتسلتْ بماء ساخن أزال عنها تعبِ اليوم، والأحداث الغريبة التى حدثت فيه.

كانت مريم قد رتبتْ ثيابها في الدولاب الكبير في حجرة النوم؛ فانتقت طقمًا قديمًا كانت تستريح فيه في الماضي، وجلست أمام المرآة تُسّرح شعرها ببطء. وفى تلك اللحظة شعرت سارة بالوحدة.

إنها وحيدة بالفعل، بدون والدين، بدون شقيق، بدون زوج، بدون مال كافٍ، وفي مكانٍ أقل من مستواها المادي الذي اعتادتْ عليه، لقد انهار عالمها الذي كانت تعرفه قبل دخولها تلك الغيبوبة، ولم يبق منه سوى أشباح تتحرك في الظلام، أطياف ضبابية قطعت علائقها بها، لكنها ما زالت تؤثر عليها بشدة.

وكان هذا الشعور مخيفًا، وربما هو ما تشعرين به الآن.

أقول: ربما.

المهم، أنها بعد أن انتهتْ من تصفيف شعرها، وارتدتْ منامتها وكانت تريد النوم. نومًا تعرف أنها ستستيقظ منه على الأرجح. كانت متعبة جدًا، وبالرغم أن الوقت كان مبكرًا إلا إنها تمنت أن تظل طوال الليل نائمة.

اندست تحت أغطية الفراش وأغمضت عينيها، وتركت نفسها تنزلق في أودية النوم، حيث كان التعب يقودها عبر دروب العتمة.

لكنها اعتدلت فجأة على الفراش، وقد طافت بذهنها ذكرى قريبة. هل ما رأته حقيقة أم خيال؟ هل الرجل الذي لا وجه له هو نفسه من حكت عنه فتحية؟ ثم أية طريقة هذه التي تجعلها تدخل في حجرة محصنة من الأذى؟ كيف لها أن تصدق لها هذا الجنون؟

ماذا قال لها عندما كانت في المستشفى، وقد تلقت خبر مقتل فتحية؟ لا تتذكر كلماته بالضبط. أخرجت المفكرة من تحت الوسادة، وقلبت صفحاتها. نعم، إنها تتذكر أنها قد دونتها. وصلت عند صفحة معينة، وقرأت:

"عندما تشعرين أنكِ محاصرة، ولا يوجد مهرب أمامك، كل ما هو مطلوب منكِ أن تغمضي عينيكِ، وتتخيلي أنكِ مسجونة في حجرة ما، وأن للحجرة بابٌ أخضر. افتحي هذا الباب واعبريه. افعلي هذا، وسأحميكِ".

كادت تقول: يا سلاااام! هذه التي يقولها المصريون تعبيرًا عن دهشتهم. لماذا لا تجرِّب؟ وضعت المفكرة جانبًا، وأغمضتْ عينيها، وتخيلت أنها حبيسة حجرة ما،

وأن ثمة باب أخضر يقبع أمامها ينتظرها. اقتربت من الباب، وفتحته وعبرته. لا شيء. لم يحدث شيء. فتحت عينيها، وهزَّت رأسها في خيبة أمل. ما كان لها أن تصدّق هذا الهراء.

فجأة انطفأت أنوار الصالة، وضوء الأباجورة الموجودة على الكومود بجوارها.

وقف شعر ذراعها برعب.

هل يكون هو؟

من حسن الحظ أنها أخذت هاتف والدها معها، والذي كانت تضعه على الكومود. أشعلتْ المصباح الصغير المعلق بقمته وراحت تتجول في الشقة، وفي تلك اللحظة تعالى طرقٌ خفيفٌ على الباب.

دست سارة يدها في فمها وقلبها المرعوب يهتف:

"إنه هو! لقد أتى من أجلك!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس

لكِ أن تتخيلي كيف كانت تشعر فتاتنا العزيزة سارة فى تلك اللحظة. الرعب كان يصول ويجول في أعماقها، وركبتاها تتخبطان في بعضهما البعض، وكان من الطبيعي أن تتعثر عدة مرات برغم ضوء المصباح الصغير المُطل من هاتف أبيها الراحل.

اقتربتْ من الباب بحذر، وهى تحرص ألا تُصدر صوتًا، نظرتْ من ثقب الباب، وعلى ضوء القمر رأتْ رجلا يقف فى منتصبًا، وهو يدقُّ على الباب بتؤدة متسلطة، وكأنه واثق من بلوغ هدفه.

تضاعفت جرعة الخوف بداخلها أكثر، تراجعت للخلف، حتى صارت في أبعد نقطة من الشقة. للأسف كانت شقتها فى الطابق الأخير، حيث كانت الشقة المقابلة لها- كما أخبرتها مريم من قبل- خالية، وبالتالى ففكرة أن تصرخ من الممكن أن تُهيّج عليها زائرها، وتجعله يقوم بمهمته بسرعة. مهمته التى لا تعرف لماذا يفعلها أو كيف يفعلها، وما الذي يفيده منها.

أخرجت من حقيبتها الهاتف الجديد، المُسجَّل فيه رقم مريم، وحاولت السيطرة على دقات قلبها، والتى كانت تخاف أن يسمعها من يدق على الباب. طبعا من المستحيل أن يسمعها كما تعرفين، لكن أثناء الخوف تكون الأشياء غير منطقية بالمرة. أتاها صوت مريم:

" أما زلتِ مستيقظة يا سارة؟".

كان صوتها نعسانًا، وبدا أنها قد انزلقت لمملكة النوم منذ فترة لا بأس بها.

"إنه هنا".

"من؟".

"قاتل سها".

أتاها صوت مريم المفزوع، وكأن أثار النوم تلاشت دفعة واحدة منه:

"ماذا تقولين يا سارة؟ هل أنتِ متأكدة؟"

وجهت سارة سماعة الهاتف نحو الباب، حيث كانت الدقات تُسمع بوضوح:

"أتسمعين يا مريم. إنه هنا. لقد انطفأت الأضواء، ولا أعرف ماذا افعل؟".

"أنا بالقرب منكِ، سوف...".

وفجاة انطفأت بطارية الهاتف. لقد نسيتْ أن تقوم بشحن بطاريته الجديدة؛ لهذا لم تأخذ وقتًا طويلًا.

الدقات تتعالى مرة أخرى:

"أستاذة سارة، أنا صبري أبو النور".

صبري أبو النور؟

اقتربتْ من الباب، وقد بدأت تهدأ قليلًا. قالت بصوتْ مرتجف:

" من أنت؟".

أتاها الصوت وهو يقول بلهجة مهذبة:

"أنا من اتصل بالأستاذة مريم مساء اليوم. توجد معلومات جديدة بخصوص المسكينة سها".

كان عليها أن تتخذ قرارًا: أن تدعه يدخل، أو تنتظر مريم حتى تأتى. لكن فضولها كان أقوى. كانت لديها رغبة عارمة ألا تستسلم للخوف. فكرة أن تجلس منكمشة على نفسها كقطة خائفة تنتظر من يأتى لينقذها؛ لهي فكرة مقيتة لا تحبها، تؤكد أنها ضعيفة وهشَّة، لا حول لها ولا قوة.

وعلى سبيل التحدى لنفسها، أزاحت مزلاج الباب بيدين مرتعشتين، ثم فتحته. فى نفس اللحظة التى وطأت فيها قدماه للشقة عادت الأضواء مرة أخرى وغمرتْ المكان، وأبانت عن ملامحه الوسيمة، وهو يبتسم. فى تلك اللحظة أدركت سارة شيئين:

الأول: أن هذا ما حدث فعلا فى شقة سها من قبل، وبالتالى فهى تقف أمام ذلك المخلوق الخارق متنكرا فى هيئة الصحفي.

الثاني: هو مجرد شعور بأنها ضحية وقعت في المصيدة، ولم تقاوم إغراء الذات اللعين، وكان عقلها بصرخ في تلك اللحظة: ***يا لكِ من حمقاء!***

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما حدث في النصف ساعة التالية كان غريبًا يا عزيزتي...

لم تهرب سارة، وتولي الأدبار من ضيفها المخيف، الحقيقة أنها استسلمتْ بشكل عجيب، وكأنها سئمت من كل الذي تتعرض له. كأنها كانت تريد التخلص من عبء العودة للحياة. فى الواقع هي تشعر بالراحة. لقد عادت؛ فوجدت عالمها قد تغيَّر، لم يعد لها أحدٌ فيه، حتى قول مريم المطمئن لها لم تشعر به.

إنها مجرد عبء على بنت خالتها. من الأفضل إذن أن تترك هذا العالم، وللأبد. لهذا كان من الغريب- حتى لسارة نفسها وهى تراقب نفسها من الداخل- أن ترى نفسها وهى تقوم بإعداد الشاي ببال رائق وبتركيز، وتقدمه لزائرها، بينما يتناوله هو شاكرًا.

على الأقل ستجد صحبة ما قبل رحيلها. جلست قبالته وهي تتأمله. الحقّ أن تنكُّره متقن في هيئة ذلك الصحفي، ولا عجب، فقد رأت كيف تنكر المخلوق في شكل فتحية من قبل، حتى أنه خدع ابنتها ذاتها.

شرب صبري الشاي ببطء، وهو يحنى رأسه بامتنان. واو! إتقان بارع! كيف يفعلها؟ مرَّ هذا السؤال بذهنها؛ فخرج على لسانها على الفور:

"كيف تفعل هذا؟".

قال بدهشة:

"أفعل ماذا؟"

"كيف تتنكر في شكل شخص ما بهذه الدقة والبراعة؟ كيف تفعل هذا؟"

قال صبري بدهشة:

"أتنكر؟".

زفرت بضيق:

"هل ستستمر هذه المسرحية الهزلية كثيرًا؟ أسألك كيف تفعلها؟".

نظر إليها بحيرة، وكأنه لا يفهم عن أي ترهات تلك التى تتفوه بها. ثم بدا أنه قد فهم. اهتزَّ قدح الشاي في يديه، هذا لأنه كان- بكل بساطة- يضحك باستمتاع.

"ما المضحك في كلامي؟".

سألته بضيق وغيظ.

"هل تظنيني هو؟".

"ألستَ كذلك؟".

وضع القدح، واستعاد طبيعته الرصينة وقال:

"أؤكد لكِ أني لستُ كذلك".

قالت بشك:

"هل من المفترض أن أصدقك. احتمالية الكذب واردة جدًا".

"وما الذي سيجعلني أكذب. لو كنتُ كذلك فمن الممتع أن أؤكد على كلامك، وأنتِ تعرفين أنه لا مهرب منى".

تمتمت:

"هذا صحيح".

كان باب الشقة مفتوحًا بطبيعة الحال، والذي اندفعتْ عبره مريم مسرعة، وهى تلهث، والعرق ينضح من جسدها، حتى أن سارة نفسها ظنت أن قريبتها سوف تُصاب بأزمة قلبية عاجلة. قالت مريم بقدر ما تسعفها به قواها الواهنة:

"م.. ماذا.. ح.. حدث؟".

نهضت سارة وقال باشفاق:

"إنه الصحفي صبري أبو النور. لا تقلقى".

وألقت نظرة متشككة على ضيفها وقالت:

"صبري أبو النور بنسبة 99%".

ألقتْ مريم نفسها على أقرب مقعد وهى تلهث. أحضرتْ لها سارة قدحًا من الماء، ثم عندما انتظمت أنفاسها قليلا قالت:

"وما الذي أتى بالصحفي صبري أبو النور في ساعة متأخرة كهذه؟".

ثم قالت وقد أدركتْ أن هناك سؤال أكثر أهمية:

"وكيف عرفت العنوان هنا؟".

ويبدو أن سارة قد تذكرت بأنها نسيت سؤالا أكثر أهمية أيضًا:

"وكيف عرفت ما حدث لنا؟".

قال صبري بسرعة:

"آكل الخطّائين".

رددت مريم الاسم، بينما سارة في المطبخ تستمع إليهما بتركيز:

"آكل الخطائين؟".

"إنه من تنكر في صورة أم سها، ثم قتلها بعد ذلك".

"وكيف تعرف أن اسمه هو ذاك؟".

قال وهو يأخذ نفسًا عميقًا:

"ليس المهم كيف عرفت اسمه. المهم أنه موجود بالفعل، ويمارس عمله منذ ما يقرب من العام. ليست هذه الحادثة الوحيدة للأسف. ثمة ثلاثة لقوا مصرعهم هذا العام بسببه. حوادث مشابهة: الوغد يتنكر في صورة أحد مقرب، يتسلل لعقل ضحيته، يشعرها بالعجز ويوقظ فيها خطايا قديمة فعلتها، ويجعل الندم يستعر بداخلها، بهذا تغدو ضحيته هشة ضعيفة، تحت سيطرته، ومن ثم يقوم بأكلها".

اشمئزاز متوقع ظهر على وجهى الفتاتين. استطرد صبري:

"ليس تعبيرًا مجازيًا بالمناسبة، هو يأكل ضحاياه حرفيًا، لكن لا أحد يعرف كيف. هل يفعلها عندما يسود الظلام أم ماذا. رأيتما ذلك الذعر المخيف على وجه سها، قبل أن تختفي. الحقيقة أنها كانت غارقة حرفيًا في الندم، ولا بد أن آخر ما طاف بذهنها هو تقصيرها في حق والدتها".

شعرت سارة بمعدتها تتقلب في تقزز، بينما هرعت مريم إلى الحمَّام، وحيث سمعتْ سارة صوت تقيؤها الواضح. كانت هذه معلومات تفصيلية تملا الكثير من الفراغات التى قابلت الفتاتين من قبل، وتفسر الكثير مما حدث، أو ما يمكن أن يحدث.

"لقد أخبركما أنه قادم من أجل واحدة منكما. تُرى من فيكما قد أجرمت في حق أحدهم، وتشعر بتأنيب الضمير؟".

قالت سارة بغيظ:

"ولماذا لم تخبرنا بهذا نهارًا عندما اتصلت بمريم؟".

"ابنة خالتك لم تسمح لي بالشرح. لكنى أدركتُ أنى قد أتحمل جزءًا من دمكما لو تأخرتُ أكثر من ذلك، ومن يدري ربما أكون هدفا له أيضًا".

مرت لحظة صمت مشحونة بالتوتر. لا بد أن الكثير من الأفكار قد طافت بأذهان الجالسين.

سألته سارة:

"كيف عرفت كل هذا؟".

"هذه المعلومات جائتني من مصدر موثوق لن أبوح به. على الأقل الآن، لكن تأكدا أنها معلومات دقيقة لا شكّ في صحتها".

قالت سارة بتشكك:

"الغريب أن ثمة تفاصيل قد حدثت في منزل فتحية؛ فكيف وصلتْ إليك بدقة كهذه؟".

"كما أخبرتكما؛ إنه مصدر موثوق، ولن أقول كلمة أخرى بخصوصكنه هذا المصدر".

سألته مريم بدورها:

"كيف يمكن محاربة مخلوق كهذا؟".

قال بسرعة:

"بالمقاومة، وعدم الاستسلام لفكرة الشعور بالذنب وتأنبيب الضمير. هذا هو مدخله ونقطة الضعف التى يتسلل من خلالها إلى ضحاياه".

قالت سارة:

"لا يوجد في حياتي ما أخجل منه".

قالت مريم:

"وأنا كذلك".

قال بإشفاق:

"كثيرون يقولون هذا، وهم يخفون بداخلهم الكثير من الخطايا المتعفنة. لاحظوا أن أول طريق للعلاج هو الاعتراف بالخطأ ثم علاجه وإصلاحه إن أمكن، وفي الحالتين لا بد من التصالح معه. لكن هذا الكيان يقوم بهذا بشكل مختلف. إنه يضخم إحساس تأنيب الضمير حتى إنه ليأكل صاحبه أولا قبل أن يقضي عليه هو بعد ذلك. وبما أنه أخبركما أنه قادم من أجل واحدة منكما؛ فتأكدا أنه سيفعل ذلك. لذا فخذا الحذر، وتحسسا خطواتكما جيدا فى هذا الطريق المظلم".

ونهض.

وجَّه نظرة أخيرة إليهما:

"أرجو أن أكون قد أتممت واجبي نحوكما، وعلى كل حال هذه بطاقة تتضمن كل طُرق التواصل معي. اتصلا بي في أي وقت تحتاجان إلىَّ فيه. هل تفهمان ذلك؟".

أومأتا برأسيهما. غادر الشقة، وأغلقت مريم الباب خلفه. جلست مرة أخرى وقالتْ:

"حكاية أغرب من الخيال".

قالت سارة بضيق:

"لكنها حقيقية. لقد رأيناها بأعيننا".

"ما هي الخطوة التالية؟".

قالت سارة، وهى تعد على أصابعها:

"فلنرتب الأمور فى نقاط.

النقطة الأولي: لدينا كيان خارق يقوم باستغلال الندم لكى يقضى على ضحاياه، ورأينا نموذجًا في الراحلة سها. النقطة الثانية: بدأ هذا منذ عام تقريبًا.. النقطة الثالثة.. هناك ثلاثة ضحايا متضمنة سها نفسها.. النقطة الرابعة أن كل هؤلاء الضحايا كانوا موجودين فى المستشفى. فما الذي نستنتجه من كل هذا؟".

قالت مريم ببطء:

"أن المستشفى هي العامل المشترك الأكبر".

قالت سارة، وعلامات التفكير على وجهها، حتى أن جبينها قد تقطِّب بشكل غير معتاد:

"هذا صحيح. المستشفى. وبما أن الوغد يجيد التنكر بطلاقة؛ فهذا معناه أنه أحد المترددين عليها".

قالت مريم:

"أو أحد الموظفين".

قالت سارة:

"أتفق معكِ. ربما يكون عاملًا بسيطًا أو حتى مدير المستشفى ذاته".

قالت مريم:

"أو ربما طبيب".

وقالت بلهجة خاصة:

"هل تعرفين من يمكن أن يفيدنا في هذا الموضوع؟".

"من؟".

"الدكتور هيثم".

قالت سارة:

"لماذا هو تحديدًا؟ هل أنتِ معجبة به يا فتاة؟".

قالت مريم وهى تضحك:

"ليس كذلك، لكنه شخص محبوب وخدوم فى المستشفى، ولا بد أن لديه الكثير من المعلومات".

"فكرة لا بأس بها".

تثاءبت مريم:

"أنا متعبة، أريد النوم بشدة".

"لن تعودي في ساعة متاخرة كهذه. يمكنكِ أن تظلي معي الليلة".

قالت مريم وهى تتثاءب مجددًا:

"بالطبع سأبيت عندك. أنا لا أستطيع تحريك قدمي خطوة واحدة. سألقى بجسدى على الفراش بدون أن أغير ملابسي حتى".

وقرنت القول بالفعل، وهي تنهض متجهة لحجرة نوم سارة. ابتسمت سارة، ثم تبعتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كانت سارة تقوم بإعداد الإفطار، كانت مريم تكلم الدكتور هيثم، والذي أخبرها بأنه مشغول مع العديد من الحالات، وأنه ينتظرهما في فيلته الصغيرة في الساعة الرابعة مساء تقريبًا. قضت سارة الوقت مع قريبتها مريم، وأثناء ذلك أتتها العديد من المكالمات من زوجها السابق، لكنها رفضتْ الردّ عليه.

قالت مريم:

"لماذا أنتِ خائفة من الردّ عليه؟".

قالت سارة بعصبية:

"كيف تريدين أن أردّ على ذلك النذل، الذي تركني وتزوج أخرى؟ تعرفين حبي الشديد له؛ فلكِ أن تتخيلي حجم الجُرح الضخم بداخلي الذي تسبب فيه".

قالت مريم بدهشة:

"لهذه الدرجة؟".

"وأكثر".

نظرت مريم في ساعتها:

"على كل حال سنرى موضوع زوجك النذل هذا فيما بعد. فلننصرف الآن حتى نلحق بموعدنا مع الدكتور هيثم".

كانت الفيلا صغيرة في حي راقٍ هادىء، وكان هيثم ينتظرهما على بوابة الفيلا مرتديًا بنطالًا بسيطًا وقميصًا أبيض، وهو يدعوهما للدخول. بعد أن استقر بهما المقام قال:

"هل تشعرين أنكِ بخير يا سارة؟".

"بخير يا دكتور هيثم. أشكرك".

قالت مريم:

"هل سمعت عن آكل الخطائين يا دكتور هيثم من قبل؟".

قال وهو يحك ذقنه مفكرا:

"ربما".

"يُقال بأنه مخلوق خارق يجول ويقتنص ضحاياه".

قال هيثم:

"خرافات. تعرفان كيف يميل البشر للتضخيم والتهويل".

قالت سارة:

"لدينا معلومات تقول أن الأمر حقيقي يا دكتور هيثم. والحقيقة هى ليست معلومات فقط، لقد رأيتُ هذا بنفسى".

قال باهتمام:

"رأيتِ ماذا؟".

"رأيت فتاة يصيبها آكل الخطائين وهو يلمسها بيدها؛ ليظهر على وجهها أعتى علامات الذعر، قبل أن يأكلها".

تراجع للخلف مرتعبًا:

"يا للبشاعة! هل أنتِ بخير؟".

قالت سارة بضيق:

" لقد رأيت هذا بعينيّ رأسى، وكانت مريم معي".

قالت مريم:

"هذا صحيح".

تمتم هيثم:

"رأيتهي أكلها أمامك؟".

"لا، لقد اختفتْ فجأة".

رمقها هيثم بصمت، وكأنه يتعامل مع مجنونة تحتاج لمعاملة خاصة.

قالت مريم وهى تنظر حولها:

"الفيلا ساكنة أكثر مما ينبغي".

قال هيثم وهو يهزّ رأسه:

"أنا هنا بمفردي. الحاجة في زيارة لأختها".

بدا التوتر على الفتاتين وهما تنظران لبعضهما البعض. صحيح أن الليلة الفائتة كان صبري أبو النور يزورهما، لكن الباب كان مفتوحًا، والشقة المقابلة غير مأهولة؛ فلا مجال لسوء الظن والقيل والقال. لكنهما الآن في فيلا رجل عزب بمفرده.

قالت سارة فجأة، وقد لاحظتْ شيئًا، وهي تحدق في ذراع هيثم:

"أين الوشم يا دكتور هيثم؟".

مال نحوها وقال:

"معذرة".

أشارت سارة إلى ذراعه:

"لقد رأيت وشمًا عندما انكشف ذراعك عندما كنت تعطيني المورفين".

أنزل هيثم كُمْ القميص وقال بحرج:

"آه، لقد محوته. وجود وشم كان مزعجًا، و...".

قالت سارة وهى تقبض على ذراع مريم برهبة:

"إنه أنت!".

قال بتوتر:

"ماذا تعنين؟".

نظرت سارة إلى هيثم، وهى تقول ببطء:

"العامل المشترك الأكبر: أنت!".

وفي اللحظة التالية انطفأت أضواء الفيلا، وخيَّم الظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هتفت سارة:

"مريم، أين أنتِ؟".

أتاها صوت مريم من قلب العتمة:

"اهربي يا سارة".

وكان صوتها يبتعد:

"ابتعدي، اهربي بجلدك".

كانت سارة تود لو أنها بقيتْ وأنقذتْ ابنة خالتها، لكنها لم تستطع. الخوف كان يغرس سكينه الحامية في جسدها، وهى تخرج هاتفها النقال وتشعل مصباحه وهي تتلمس طريقها.

راحت تركض عبر الممر الخارجي، ثم الحديقة الصغيرة، ثم للشارع الواسع.

واستندت لعمود إنارة وهي تلهث، ودموع القهر تطفر من عينيها، ثم ألقت نظرة على الفيلا وهتفت:

"مريم!".

ثم تذكرت شيئًا، وأخرجت من جيبها بطاقة صغيرة، وطلبت رقمًا، وهي تقول:

"أستاذ صبري أبو النور؟ أنا سارة. لقد حدث شيء مريع".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ساعة إلا ربع كانت سيارة صبري أبو النور يومض مصباحيها من بعيد. الشارع شبه خالٍ؛ لهذا كان مرآها باعثًا للراحة في نفس سارة. غادر صبري السيارة وهو يعدل هندامه. نظر للفيلا وقال:

"هذه؟".

أومأت سارة برأسها. قالت بضيق:

"كنت أظنك ستأتى وبصحبتك قوة من الشرطة ".

"وبماذا أخبرهم؟ أن كيانا خارقا يجوب الطرقات ليأكل ضحاياه بسبب ندمهم؟ أقل ما سيواجهنى هو تهمة الجنون يا مدام".

وهزَّ رأسه متعجبًا:

"هيثم؟ كان لي أن أخمن ذلك منذ البداية".

كانت تشعر بالضيق من قوله، وكأنه يذكرها بفشلها هى الأخرى، برغم معرفتها أنه محق. هى نفسها رأت تلك النظرة عندما كانت تحكي لمريم عما قابلته فى الحديقة، وظهور آكل الخطائين لها. فوجئتْ به يخرج من تابلوه السيارة مسدسًا. حدقت في الكتلة المعدنية السوداء برهبة. قال صبري:

"لا تقلقي. إنه مُرَّخص. ربما نحتاجه في الدفاع عن أنفسنا".

تبعت صبري وهو يدخل الفيلا، والتحفز على وجهه.

سألها، وهما يعبران الممر المُشجَّر للداخل:

"هل أنتِ متأكدة أن أحدهما لم يغادر الفيلا؟".

"لقد مكثتُ أنتظرك أمام البوابة الرئيسية، ولم أر أحدًا يخرج منها".

"أخشى أن يكون هناك مخرج آخر".

"أو أن يكون الوغد قد أكل ابنة خالتي المسكينة، مع أني لا أظن أن ثمة ندم تعاني منه".

"ليس وقت الاستنتاجات الآن، بل وقت البحث".

دخلا الفيلا وبحثا جيدًا، وكانت النتيجة مخيبة: لا يوجد أحدٌ فيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت شمس الشتاء الدافئة تمسح الطُرقات بيدها الحانية، وسارة وصبري يجلسان في ذلك المطعم. عيناها محمرتين، وفي قلبها وجع. لكنها كانت منهمكة في تدوين التفاصيل التي تقابلها في مفكرتها.

قال صبري بإشفاق:

"لم أكن أعرف أن علاقتكِ بابنة خالتك قوية هكذا".

ابتسامة فاترة على وجهها، وهي تضع الفمكرة جانبًا بعد أن انتهت:

"الحقيقة أنها لم تكن كذلك من قبل الغيبوبة".

نظرة متساءلة في عينيه الضيقتين. قالت مفسرة:

"كانت هناك قطيعة بيننا".

ارتشف مشروبه بتلذذ:

"ماذا حدث؟".

هل كان ذلك الاحمرار على وجهها خجلا؟

"لقد سرقتُ منها حبيبها".

لا بد أنها كانت إجابة غير متوقعة. أعلن صبري عن دهشته برفع إحدي حاجبيه فقط.

"كانت تتباهى أمامى بأن خطيبها تامر يحبها حبًا جمًا، وأنه لا يطيق الابتعاد عنها. أخبرتها أنه لا يوجد شيء مضمون فى هذه الحياة، وأن القلوب قلَّابة. لا بد أنى استفززتها بهذا القول؛ فقد راهنتني بأن تحويل قلب تامر مستحيل. حسنٌ، أخذ الأمر منى أسبوعين؛ فقد جعلته يقع في غرامي. ما حدث بعدها أنها قاطعتنى تمامًا".

كان صبري قد انتهى من مشروبه.

"يا لها من حكاية!".

استعادت سارة ابتسامة ما، ربما من الجوّ المبهج حولها:

"لكن كل هذا قد تغير بعد أن حدث لي ما حدث. ابنة خالتى كانت هي سندي الوحيد، وظهرى الذي لم ينكسر".

وقالت بتصميم:

"لهذا لا بد أن نستعيدها".

قلب كفيه:

"الوضع حرج ودقيق كما تعلمين. لن أستعين بأحد في قضية حسَّاسة كهذه. أنا وأنتِ فقط في ذلك الأمر حتى نستعيدها. أرجو أن نفعل هذا قبل الأوان".

رنين هاتفها جعل قلبها ينتفض. نظرة واحدة إلى الشاشة لتجد اسم مريم مع صورتها، كإشارة نجدة تبعثها منارة في ليلٍ حالكٍ. قفزت يدها للهاتف:

"إنها مريم!".

قال بلهجة آمرة:

"ضعي الهاتف على السماعة الخارجية".

فعلتْ ذلك. أتي صوت مريم مبحوحًا متألمًا:

"سارة".

"مريم، هل أنتِ بخير يا حبيبتى؟".

"لستُ كذلك. ذلك الوغد اللعين...".

انقطع صوتها مع ظهور صوت أجشّ. هل استعاد الكيان صوته الحقيقي الذي لم يكن لطيفًا بأي حالٍ من الأحوال؟

"لو كنتِ تريدين ابنة خالتك حية؛ فافعلي ما تؤمرين. ابحثي في ذهنك عن أكثر مكان في هذا العالم يستحق منكِ أن تعترفي بخطيئتك فيه. أنتظركِ هناك".

ثم انتهت المكالمة فجأة. لا بد أن خمسة دقائق قد مضت، وسارة تقلب كفيها يأسًا:

"فشلتُ، لا أعرف ما هو المكان الذي يجب ان أقرُّ فيه بخطيئتى، التى لا أعرف ما هى أصلاً".

"معلوماتي تقول أن الكيان يتغذى على الخطايا. إنه لم يُسمى ب"آكل الخطائين" من فراغ. لقد عرفنا الآن أن مريم ليست ضحيته. إنها أنتِ. ما هو المكان الذي يتطلب منكِ أن تعترفي فيه بأسوأ شيء فعلته، أو- على الأقل- ذنب دفين يأكلكِ من الداخل".

لم تجب. مرة أخرى يعود صوت جبريل فى ذهنها يدوى بنبرته المألوفة:

"أعرف ما الذي فعلته".

لا بد أن صراعًا كان يدور بداخلها، يُمزقها إلى شظايا، جعلها تقول، وقد تهدل كتفاها، وكأنها أعلنت استسلامها:

"أعرف أين ستكون مريم".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت المقبرة تقع على أطراف المدينة. أشجار تحيط بسورها القصير، والشواهد تترامى على مرمى البصر أمامها. ولجتْ سارة للمكان وهي ترتعش. كانت هذه هى الزيارة الأولى للمكان منذ أن دُفن أخوها جبريل. تقترب من مكان دفن عائلتها. تشعر بوحدة طاغية، وألم غير مسبوق، ويبدو أن الألم كان من القوة حتى أنها نسيت الدموع التى تسيل منها. قالت لنفسها على سبيل الخروج من تلك الحالة:

"لقد تفوقتِ على مريم نفسها".

تقترب أكثر من المكان، ها هى ذي شجرة الصفصاف، لقد غدت كبيرةعملاقة. تتذكر أبوها الذي زرعها في نفس يوم دفن شقيقها.

وارتجف قلبها عندما رأت مريم تستد إلى مقبرة جبريل، وهى تبدو غائبة عن الوعى. هتفت بلهفة:

"مريم! مريم!".

تسرع الخُطى، وقلبها يقفز من الفرحة لأنها حية. بدا أن مريم تستيقظ، ما زالت تهتف:

"مريم، أنا هنا يا حبيبتى".

تهز مريم رأسها، وقد بدتْ غافية في النوم، أو ربما هو من تأثير ضربة ما. سعيدة هي؛ لأنها وصلتْ إلى مريم قبل أن يحدث لها لسها أو ما حدث لفتحية، والتي مُزقت حنجرتها ووجهها، و.....

مهلا!

تذكرتْ سارة في تلك اللحظة شيئًا ما، عندما ذهبت لمريم في مقرّ عملها، وأخبرتها بما حدث لفتحية؛ فبان عليها الذهول وعدم التصديق، بما أنها تسمع الخبر لأول مرة، لكن مريم بعد ذلك تكلمتْ عرضًا عن البشاعة التي حدثت لفتحية من تمزيق وجهها وحنجرتها؛ فكيف عرفت هذا، إذا كانت تسمع خبر موت فتحية لأول مرة؟

وومضتْ الحقيقة في ذهن سارة ساطعة.. تراجعتْ للخلف في عدم تصديق، وقالت بصوت مرتجف:

"أنتِ يا مريم، أنتِ آكل الخطائين!".

تفتح مريم عينيها وهي تبتسم، ثم تتسع الابتسامة أكثر، ثم تتحول لشيء آخر، لابتسامة خبيثة ماكرة، ابتسامة منْ حصلتْ على مبتغاها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقتربت منها مريم وهي تسير بتؤدة وثقة، كأنما لم يعد هناك مجالٌ للهرب. قالت سارة بصوت مبحوح:

"كيف؟".

قالت مريم:

"كان عليكِ أن تثقى بحدسكِ منذ البداية. هل من الممكن أن تعود ابنة خالتكِ بعد الذي فعلته بها؟ لكنكِ حمقاء. لم تفهمى".

سألتْ سارة:

"منذ متى؟".

"منذ أن تهشم جزءٌ من دماغك. لقد تعرضتِ لشيء ما، لا تتذكرين منه شيئًا على الإطلاق، وهذا الشيء كنتُ أريده منكِ؛ لهذا أعدتكِ للعالم".

كان هناك وجعٌ رهيبٌ يتحرك على في قلبها، وهي تقول:

"أنتَ أو أنتِ؟ أنا لا أفهم".

"كنتُ أري هذا الشيء الكامن بعقلكِ، لكن من أجل أن أحصل عليه علىَّ أن أعيدكِ مجددًا، وجودكِ في الغيبوبة لم يكن يفيدني بأي شيء، لهذا كان على أن أمكث بجوارك أطول فترة ممكنة، ولم أجد أفضل من قريبتك مريم. إنها تكرهك بالمناسبة كراهية عظيمة، وربما لا تعلمي هذا، لكن الكراهية والبغضاء تجعلني أنتحل شخصية صاحبها بسرعة. أما منْ أنتحل شخصياتهم على عجلٍ؛ فغالبا تكون قلوبهم نقية بيضاء".

"مثل المسكينة فتحية. أليس كذلك؟".

تنهدت مريم فيما بدا لها أنه أسف:

"كان هذا من أجل أن أصل إلى ابنتها سها".

"وما دخل سها بما في عقلي؟".

قال بسرعة:

"لا يوجد علاقة لها بكِ، إلا لو فرضنا أن رؤية أمها لكِ فى المستشفى هي ما قادكِ إليها في النهاية. لكنى مخلوق ويحتاج أن يتغذى، ولا يوجد مثل الندم يا عزيزتي".

كانت مضطربة، حائرة، تتكشف لها الكثير من المعلومات.

"وما الذي يوجد فى عقلي حتى يكون بهذه الأهمية؟".

"معلومة ما، مطمورة فى عقلك الباطن، موجودة في خزانة سرية، وموصد عليها بابٌ سميكٌ من الفولاذ، لكن هذا الباب-للأسف-لا يفتح بسهولة. إنه يحتاج لمفتاح خاصٌ من نوعه".

كانت الشمس توشك على الغروب، وكانت الريح الباردة تضرب وجهها برفق، لكن ما كانت تسمعه كان أكثر وقعا على أذنيها، وكأن كل كلمة تصدر منه تتحول للوح رقيق من الثلج يتهشم عند قدميها.

"وما هو هذا المفتاح؟".

"أخبرتك. لا يوجد شيءٌ مثل الندم في إضعاف دفاعاتك، وتحطيم إحساسكِ بالثقة، وإصابتكِ بالبلادة. يتكشف للعالم كم أنتِ هشة وضعيفة من داخلك، تطفر عيناكِ بالدموع بعد سقوطكِ في غيبوبة لعام. لقد أخذتُ الكثير من الوقت والعمل والجهد يا عزيزتي حتى أوصلّكِ إلى هذه الحالة".

حاولت أن تتماسك:

"من الخطأ أن تخبرني بخطتك".

قررت أن تخاطبه كما لو كانت تخاطب مخلوقًا، وليست مريم ابنة خالتها.

هزَّ آكل الخطائين رأسه، أو رأس مريم، فيما بدا لسارة أنه إشفاق من جهلها المطبق:

"أنتِ لم تفهمى بعد. المسألة ليست لها علاقة بما يمكن أن تعرفيه، بقدر ما هو متعلق بالشرخ الصغير الذي أحدثته في جدار نفسك".

"ستقتلني؟".

"بعد أن أنتهى منك؟ نعم، غالبا سأفعل ذلك. أنتِ وجبة شهية لي فى الحقيقة".

شعرت بالاشمئزاز والرغبة في القيء. قالت بغيظ أسفر عن نفسه قليلا:

"أشكرك على صدقك".

قال فيما بدا أنه تواضع، لكن سارة تعلم أنه ليس كذلك:

"العفو".

"قبل أن تأخذ ما تريده، على الأقل لا تدعنى أموت بفضولي".

"ماذا تريدين أن تعرفي؟".

"من أنت؟"

"لي أسماء عديدة: لكن أشهرها المتحول وآكل الخطائين، وأنتِ تعرفين الآن لماذا سُميت بهما".

"لقد تحولت لفتحية ومريم في نفس الوقت عندما كنتُ في منزل الأولى. كيف حدث هذا؟".

ضحك:

"هذه من الأشياء الممتعة في الواقع؛ أن أتحول للشخصيتين بفارق زمنى بسيط جدًا. لاحظي أن صورتي كمريم تجمدتْ للحظة وظننتِ أن هذا من الخوف الشديد، لكنى فى الواقع كنتُ أقوم بعمل دور فتحية، ثم انتقل لمريم، ثم أنتقل للرجل ذي البذلة الزرقاء. المسألة متعلقة بفارق زمنى ضئيل كنتُ ألعب من خلاله. نفس الأمر حدث في حديقة المستشفى. كنتُ بجوارك، وفي اللحظة التالية كنتِ ترينني في هيئة الرجل العجوز ذي البذلة الزرقاء".

"لماذا لا تتنكر في كل صورة إذن؟"

"المسألة ليست بهذه السهولة؛ فلكي أتنكر في صورة ما؛ هذا يأخذ الكثير من طاقتي. بالمناسبة هيثم ومريم وسها ما زالوا على قيد الحياة".

انتعش قلبها ما سعادة:

"حقًا؟"

"لكن ليس لفترة طويلة، حين تنتفي الحاجة إليهم؛ سوف أقضى عليهم".

شعرت ببعض الراحة. من كلامه. احتمالية أن يكون كاذبًا في قوله ليست مستبعدة طبعًا، لكن ما الداعي للكذب وهو يتحكم في مجريات الأمور؟

سألته:

"لماذا أنتَ تنتحل شخصية مريم حتى الآن؟ لماذا لا تريني هويتك الحقيقية؟ أريد أن أرى وجهك".

قال آكل الخطائين على لسان مريم:

"لن تتحملي رؤيتي على حقيقتي".

"ثق أنك لن تستطيع أن تهزمنى. سأقاوم حتى آخر مدى".

"معجبٌ أنا بثقتكِ هذه، لكنها لن تساوى شيئا عند أول مواجهة فعلية".

الريح الباردة تزداد، الظلام بدأ ينسكب على الوجود. قال لها:

"لقد ارتكبتِ العديد من الخطايا يا عزيزتي.. لقد استلبتِ حبيب مريم وتسببتِ فى كراهيتها لكِ، هذه الكراهية التي استفدتُ أنا منها. بداخلك تعلمين أنكِ مخطئة ونادمة على ما فعلته معها. لقد تعاملتِ مع أبويك بكل حقارة وقلة أصل، وأنتِ تلومينهما طوال الوقت على تفضيلهما لجبريل، حتى بعد أن رحل، ظل هو ماكثًا في المنزل كالكابوس. لقد آلمك هذا بشدة. أليس كذلك".

الحقيقة أنها حاولت التماسك، لكن يبدو أنه على حق. لقد تهاوت حوائطها، وهي ذي تبكي، دون أن تقدر على التحكم في دموعها.

"لكن ندمك الأكبر يا عزيزتي هو أنكِ تعتبرين نفسك مسئولة عن مقتله. أليس كذلك؟".

ارتجف جسدها بقوة، وكأنه يرُجُّها بكل قسوة.

"تلك الرحلة المشئومة التى تنمَّر فيها عليكِ، وأذاقكِ من صنوف الإهانة. لقد ربي والداكِ وحشًا صغيرًا في المنزل، حتى أنه تسبب فى كسر ذراعيكِ، وكل مرة يعتذر بأنه تصرف بحسن نية. تذكرين عندما ألقاكِ أرضًا؛ فانخلع كتفك الأيسر، وظللتِ فترة تتعافين، لكن ألمكِ الداخلى كان أعظم. ثم بعدها كسر معصمك عندما دفعك أرضًا؛ فالتوى معصمكِ تحتك. لقد مثَّل أمام والديك أنه أخطأ، وراح يذرف دموع التماسيح، ووالداكِ الأحمقان صدقاه".

جثت على الأرض، وهى تواصل بكاءها. اقترب منها وقال:

"هل تذكرين؟ عندما زلَّت قدمه من فوق ذلك المرتفع الصخري في قمة ذلك الجبل، حيث كان والداكِ فى مكان آخر بعيد. لقد مدَّ يده إليكِ وهو يصرخ، وقد مددتِ ذراعك إليه، لكن الألم الذي أحدثه هو من قبل في ذراعكِ، ومن بعده خلف كتفكِ، ومن بعده كسر معصمكِ؛ تسبب في أن أصابعك قد انفرطت في ضعف، ولم تقدر على أن تقبض على يده؛ فسقط في الهاوية. لقد بكيتِ وأنت تشرحين أنكِ حاولتِ إنقاذه، لكن في عينيهما كانت هناك نظرة اتهام، ومن داخلكِ كنتِ تعلمين أنك مسئولة عن موته".

صرختْ:

"لقد حاولتُ إنقاذه أيها اللعين!".

قال وهو يرفع إصبعه في وجهها:

"بل قتلته مع سبق الإصرار والترصد. كان من الممكن أن تقاومي، أن تحتملى الألم، أن يتدفق الأدرينالين في جسدك حتى تنقذيه. لكنك لم تفعلى. لماذا؟ لأنك من داخلكِ تريدين أن يموت".

أمسكتْ بصخرة ضخمة وهوت بها على وجهه، أو على وجه مريم، لكنه تحرك بسرعة متفاديًا إياها، ثم لطمها على وجهها؛ فسقطت أرضا وهى تنزف.

"لا تكابري. كنتِ مستريحة في أعماقكِ لموته، كنتِ تعرفين أنكِ كنت قادرة على إنقاذه. لكنكِ لم تفعلي".

واصلت البكاء الذي صار نشيجا عاليا مُترعا بالآلام، وهو يواصل تمزيقها بلا رحمة:

"أنت مصدر تعاسة للجميع. تسببتِ في قتلِ شقيقك، كسرتِ قلبي والديك من الألم، عاملتهما بجفاء طوال سنوات، حطمَّتِ قلب مريم، حتى زوجكِ السابق شعر بالسعادة عندما سقطتِ فى الغيبوبة، وتزوج غيرك. أنتِ حمل زائد على هذا العالم؛ فدعيني أخلصكِ منه".

فى تلك اللحظة شعرت سارة أنها فعلا حمل زائد عن العالم، لا أحد يحبها، لا أحد يريدها. اقترب منها، وقال برقة:

"استسلمى لي. سأحرص أن يكون الأمر سريعا بلا آلام. اتركي نفسك لي".

أومأت برأسها:

"سؤال أخير: من هو الرجل الذي لا وجه له؟".

قال بهدوء:

"آه، القصة التى تحدثتِ عنها من قبل، ذلك الذي رأيته في الحمام. لا علم لي. أغلب الظن أن هيثم على حق. مجرد هلاوس".

"لكنى أشعر أنه حقيقة".

هز كتفيه:

"لا يعنيني".

رفعت رأسها إليه بتصميم:

"لكن يعنيني أنا".

وصرختْ:

"الآن يا صبري".

مع آخر كلمة صرخت بها ظهر صبري، وهو يمسك مسدسه، وأطلق عدة رصاصات على آكل الخطائين، لكن هذا الأخير تحرك بسرعة مختفيًا خلف أحد الشواهد العملاقة. ثم ساد الصمت عندما نفدت رصاصات صبري التي أطلقها في غزارة من مسدسه المزوَّد بكاتم للصوت. تمتم بقلق وهو يتلفت حوله:

"أين ذهب؟".

همست سارة:

"هل أصبته؟".

"ربما، لكن حتى لو أصبته؛ هل تظنين أن الرصاص سيؤذيه؟".

فجأة ظهرت مريم من خلف شجرة الصفصاف، وضربتْ صبري في ظهره بقدمها؛ فهوى من فوق المنحدر. صوت آكل الخطائين يقول بهدوء:

"أرأيتِ؟ كل محاولاتك للنجاة أو المقاومة أو حتى اتخاذ ردود فعل تتسبب في الأذى لمن حولك. ألا تتعلمين؟".

تراجعتْ، حتى التصقت بشاهد قبر جبريل، وقالت:

"أشعر أن ما تريده من عقلى هو شيء ثمين أيها الوغد، شيء ربما سيدفع البعض ثمنًا باهظًا من أجله".

"لا يوجد لكِ مهرب منى. إما أن تستسلمى وينتهى الأمر بسرعة، أو تقاومي، ولحظتها سوف أذيقك من العذاب صنوفًا".

قالت ببرود:

"ربما يوجد حل آخر".

توقف في مكانه وهو يقول بحذر:

"وما هو؟".

ابتسمتْ في تشفٍ:

"لن أخبرك".

كانت تعرف أن ذلك الحل الآخر غالبًا لن يتحقق، لكن مرأي التشكك على وجهه يسعدها، على الأقل سترحل وهي مرفوعة الرأس.

راحت تتذكر عندما ظهر لها الرجل الذي لا وجه له في المستشفى، وعرض عليها هذا العرض الغريب، والذي حاولت تجربته في شقتها الجديدة، ولم يعمل.

فلتجربه مرة أخرى وأخيرة.

ربما.

أغمضتْ عينيها، وهي تحاول أن تركز، تتجاهل الوضع الدقيق الذي هي فيه.

الآن، هي تتخيل نفسها مُحاصرة في حجرة، لها باب أخضر، اقتربت منه- في ذهنها طبعًا- وفى نفس اللحظة كانت تسمع خطوات آكل الخطائين وهو يقترب منها منه بدوره في الواقع؛ فتقترب أكثر من الباب في عقلها. حاولتْ أن تتجاهله. كانت مُرغمة أن تتجاهله.

فتحتْ الباب وهي تعرف من يقبع خلفه. لا شيء، مثل المرة السابقة. لكن العجيب أنها في تلك المرة كان الوضع مختلفًا. كان ينتظرها خلف الباب شخصٌ ما، نعم، كان هو الرجل الذي لا وجه له، وبشكلٍ ما كان يبتسم. ثم تموَّج وتحول إلى ما يشبه الهوّة العميقة وابتلعها. فى نفس اللحظة كان جسدها- في عالم الواقع- يسقط حرا للخلف، وآكل الخطائين يصرخ وهو يقفز للأمام:

"لاااااااااااااااااا".

ووثب ناحية سارة، لكن بعد فوات الأوان؛ فقد سقطت سارة أرضًا، غائبة عن العالم، وقد عادتْ إلى مرة أخرى إلى غيبوبتها، أو إلى ما يشبه الغيبوبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غابت سارة في عالم من الظلام، انعدم فيه الزمن، ولم تشعر فيه إلا بالهدوء والسكينة للحظة، ثم بدأت تشعر بأنها في سجن. شعور أنها مُحاصرة وسجينة لم يكن محببًا. حتى أنها ندمت على قبول عرض الرجل الذي لا وجه له.

ثم سمعتْ صوتًا رخيمًا قادمًا من بعيد. إنه رجل يتكلم. في الواقع هي لا تميّز كلمة مما يقول، لكن الفضول كان يقودها لأن تقترب من الصوت. بدأتْ أخيرًا تميّز الصوت وتفهم عما يتحدث بالضبط. إنه شخص يُدعى نديم شوكت، ويعالج مرضاه بالحكايات.

يا للغرابة!

إنه يتحدث عنها. يتحدث عن قصتها، وما مرَّ بها، وهو يتحدث إلى فتاة اسمها منار. الآن على سارة أن تقاوم حتى تخرج من تلك العتمة، وترى المدعوة منار هذه، وما علاقتها بها. لا بد أن تقاوم. لا بد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقف نديم شوكت عن الحكي، وهو يحدّق في وجه الفتاة الجالسة أمامه وهي ترمقه بعينين تتابعانه باهتمام طفيف، يؤكد أنه نجح في مسعاه إلى حد كبير.

لقد عادتْ الفتاة من العالم الذي كانت فيه، وقد استطاع صوته المميز أن ينفذ عبر هذا السياج المحيط بها، من خلال ثقب متناهٍ فى الصغر، ورويدًا رويدًا استطاع أن يوسعه ويمزق جوانبه حتى صار أكثر اتساعا ورحابة، حتى استعادت وعيها، ورأت رجلا يحدق فيها بترقب.

"هل تسمعينني؟".

نظرت حولها:

"أين أنا؟ ومن أنت؟".

"اسمك ليس منار، بل أنتِ سارة نعمان، وأنا نديم شوكت، وأنتِ هنا، فى عرين الوحش".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انفتح الباب، ودخل من خلاله كريم الباجوري وهو يقول بلوم عابث:

"إذن فأنت تعرف من أنا، أو ما يُخيَّل إليك أنه أنا؟!".

انكمشت سارة في فراشها تلقائيًا، بينما كريم يتقدم، وهو يقول:

"كانت خطوة ذكية منها أن تعود لغيبوبتها، وإن كنتُ لا أعرف كيف فعلت هذا من خلال قبولها لعرض الرجل الذي لا وجه له. لكنى سأسعى لمعرفة هويته بكل تأكيد. لقد فشلتْ كل الطرق التي نفذتها في إعادتها، ولم يتبق أمامى سوى نديم شوكت الأسطوري حتى يعيدها بمهارته العجيبة في الحكي".

وضحك:

"لكن يا للعجب؛ فأنت تعيدها بقصتها هى، وبتفاصيل أنا نفسي لا أعرفها. هذا لم أتوقعه، ويثير فضولي يا عزيزي نديم، عن كيفية وصول هذه المعلومات إليك".

قالن نديم بتوتر:

"أنت لم تسمع قصتي جيدًا فيما يبدو. ألم أتكلم عن صبري أبو النور؟".

قال كريم:

" إذن فقد نجا".

"نجا بصعوبة بالغة. كُسرت ساقه وتحطمت ثلاثة من أضلاعه، وكاد أنفه أن يتحطم تماما، وقد استنجد بي. لقد أعطاني صورة لسارة، وأخبرنى باحتمالية أن يُستعان بي فى هذا الشأن".

قال كريم:

"هل معنى هذا أنك المصدر المجهول الذي استقى منه معلوماته بخصوصي؟".

"لا".

والتفت نديم إلي سارة:

"لقد كنتُ في شقتي أقرأ بريدًا إلكترونيًا من هذا الوغد الذي يُدعى كريم الباجوري يدعوني فيه لمعالجة ابنته المسكينة منار. فجأة رنَّ جرس الباب، ووجدتُ رجلًا على الباب يسلمني طردًا كان عبارة عن مفكرة، وقد أرسلها إلىَّ مريض في المستشفى يُدعى صبري أبو النور. المفكرة تحتوي على يومياتك، وما تتذكرينه. من هنا عرفتُ تلك التفاصيل التي حكيتها".

قالت سارة وهي تنقل رأسها بخوف بين الرجلين، وظهر صوتها متحشرجًا مبحوحًا بطبيعة الحال؛ إذ أنها لم تستخدم حبالها الصوتية منذ فترة:

"لكنى لم أحكِ له عما حدث مع أخى".

قال نديم:

"بل فعلتِ، عندما كشف لكِ ذلك اللعين ما حدث في المقبرة. أنسيتِ أن صبري كان هناك يستمع إلى كشفه لخطيئتكِ الدفينة بخصوص أخيك جبريل؟لقد دوَّن صبري هذه التفاصيل في عدة وريقات في آخر المفكرة".

طقطق كريم أصابعه، وهو ينظر لسارة:

"من هو صبري أبو النور يا تُرى؟ هو من دلكِ علىّ، وهو من دلَّ نديم إلىَّ أيضا، أي مصدر معلومات يمتلكه؟ الحقيقة أنى أشعر بفضول جارف حتى أعرف منه هو. فليكن هذا بعد أن أنتهى منكما".

وضحك:

"الحقيقة أن كمية الألغاز مثيرة جدًا للتعجب: أنتَ، وصبري أبو النور، ومصدره الغامض".

ونظر إلى سارة:

"ووسط كل هؤلاء، وفي المنتصف توجد سارة نعمان، والتي يبدو أن لها أهمية كبيرة. لهذا يمكنكَ أن تتفهم يا عزيزي نديم، أنني لن أسمح لكما بالخروج من هنا".

قال نديم بهدوء:

"لا تكن واثقًا من هذا".

"أنت لا حول ولا قوة لك يا عزيزى".

شعر نديم فى تلك اللحظة بأن جسده يعتريه خمول غريب وكأنه تخدَّر، ولم يشعر بساقيه حتى:

"الفضل يعود للمشروبات التى كنتُ أُتحفك بها كل قليل، فيها مادة مخدرة بدأ يظهر أثرها الآن. بعد قليل سيتسنى لك مراقبتي وأنا أقتحم عقلها، وأعبث به باحثًا عما أريد، ثم سألتهم ندمها، وستكون وجبة دسمة لي لو أخذت رأيي، ثم بعدها سأتحول إليك. لا بد أن لكَ نقطة ضعف أنت الآخر، ندم ما يختبيء في أعماقك. ستظل مشلولًا لعدة ساعات أكون انتهيتُ فيها من مهمتى".

حاول نديم أن يتكلم، لكنه فشل. شعر بأن لسانه ثقيل كصخرة خشنة تلتصق بسقف حلقه. أما كريم الباجوري فقد اقترب من سارة، والتى زاد انكماشها أكثر. كانت تقول في نفسها:

"ألا توجد طريقة للتخلص من هذا الكابوس؟".

هنا لمحت إصبع نديم وهو يتحرك بصعوبة، وهو يشير للباب. كان يحثها على المقاومة والهروب. لكن جسدها كان خاملا.. تقول لنفسها: *تحركي يا حمقاء، إن حياتكِ على المحك. هل سيروق لكِ أن تتركي ذلك اللعين ينتصر؟*

جعل هذا الدم يجري في عروقها، وهى تنزلق بصعوبة عبر الباب المفتوح. لا بد أنها كانت أول من اندهش من حدوث ذلك، وتبعها كريم، والذي تجمد للحظة قبل أن يلحق بها.

راحت سارة تنزل على درجات السلم بقدر ما تستطيع ساقاها الواهنتان. الرغبة في النجاة تحركها، لكن كيف تفعل ذلك مع مخلوقٍ مثله؟ اتجهت لباب الفيلا، لكنه كان موصدًا بإحكام. حاولت فتحه للحظات، لكنها فشلت. لا بد أن كريم قد توقع خطوة كهذه.

نظرت حولها في حيرة. فجأة، لمحت ذلك الباب الجانبي المصنوع من المعدن؛ فاتجهت نحوه، ودفعته بصعوبة، ثم أغلقته خلفها، وأحكمت المزلاج، ثم نزلت عبر السلم الخشبي الضيق.

فكرت بأنها ستسجن نفسها فى القبو، لكن لا بأس؛ فحسب معلوماتها أن آكل الخطائين لا ينفذ عبر الحواجز الصلبة. شعرت بتأنيب الضمير لأنها تركتْ نديم، لكنها قالت لنفسها بأنه رجل، وسيصرّف أموره، ثم إن ذلك الكيان يركض وراءها هي، وليس وراء هو.

راحت قواها بدأت تخور، وخوفها من أن تسقط وتُدَّق رقبتها، وهي تعاود النزول على السلم الخشبي.

كانت هناك عتمة غير محببة، عتمة تذكرها بما مضى، حينما كانت مسجونة في ذلك الفراغ، الذي صنعه الرجل الذي لا وجه له، الذي أنقذ حياتها، وبالرغم من هذا؛ فما أن تتذكره حتى تسرى في جسدها قشعريرة باردة. بحثت يدها عن مفتاح الإنارة، ثم ضغطتْ عليه، وانسابت الأنوار فى القبو.

قلبها يقوم بعمل واجب كبير معها؛ فلا ينهار أو حتى يركض بجنون داخل قفصها الصدري، وخطر لها أنه لو كان عليها أن تموت؛ فلتمتْ مرفوعة الرأس. لقد قاومت بما فيه الكفاية، ويمكنها أن تخرج من هذه المعركة منتصرة، كما فعلتْ في المقبرة. استجلبت ابتسامة واثقة، لا تحتاج سوى لهبَّة ريح واحدة، حتى تتشقق وتتهاوى.

كان القبو واسعًا كائبيًا كالحًا، وكانت هناك فجوات بالقرب من الثقب، يتسرب منها هواء الشتاء الثقيل، الذي كان يضرب وجهها.

لمحتْ بطرف بصرها عدة أجساد هامدة. تفحصتهم، ووجدت نفسها تصرخ من السعادة. كانت مريم وسها والرجل العجوز ذي البذلة الزرقاء القديمة وهيثم.

تحسست وجه مريم:

"مريم، هل أنتِ بخير؟".

لم تجب ابنة خالتها، حيث كانت غارقة في غيبوبة عميقة فيما يبدو. لطمت وجه فتحية دون جدوى. ماذا تفعل؟

هنا سمعت الخطوات القادمة. صوت كريم وهو يقول:

"سارة، عزيزتي العنيدة. لماذا لا تستسلمين، ألا تعرفين أنه لا يوجد مهرب منى فى نهاية المطاف؟ ألا تتعلمين يا حمقاء؟".

كان عليها أن تفكر سريعًا...

اقتربتْ الخطوات أكثر.. هنا سمعته وهو يحاول فتح الباب المعدنى. وصلتها زمجرته الغاضبة؛ فشعرت بالارتياح قليلا. الحقيقة أنها تندهش من نفسها ومن ردود فعلها. كيف يمكنها ألا تفقد الوعي، أو تنخرط في البكاء، أو تنتابها نوبة هلع مزرية؟

توقفت الخطوات وراحت تبتعد.

التقطتْ أنفاسها، وبدا أن نوبة ذعر في طريقها إليها، وكأن مخزون الأدرينالين لديها أوشك على النفاد. كانت تحتاج إلى أن تغسل وجهها بماء بارد حتى تفيق. اقتربت من حوض متسخ في ركن القبو، ومدت يدها لإناء زجاجي، لكنها لمحت ذلك الظل وهو يقترب منها من مدخل جانبي.

للقبو مدخل آخر؟ اللعنة!

لم تستطع أن تتخذ ردَّ فعل مناسبًا؛ فقد أحسَّت بيديه تطوقان رأسها، وشعرتْ كما لو كانت هناك صاعقة كهربائية عنيفة مرت من يديه إلى رأسها، حتى أنها انتفضت بقوة، وعندما فتحت عينيها مجددًا انتبهتْ لتلك الظاهرة العجيبة؛ فقد راحت أصابع كريم تستطيل بشكل بشع، وبدأ يكشف أخيرًا عن وجهه الحقيقى.

وكان وجهه بشعًا، وجه لا يمكن وصفه، لزج قبيح، تسيل منه قطرات صفراء لزجة، وكانت هناك هذه الرائحة الكريهة. الرائحة التى لم تفلح رائحة معطرات الجو في محوها. الآن فهمت السبب في وجود معطر الجوّ المميز هذا.

وفهمت لما تحدث عن وجهه الحقيقي الذي لن تستطيع رؤيته. كان على حق إذن؛ فقد كان وجهه هو البشاعة ذاتها!

"ألا تستسلمين؟".

أتي صوته مخترقا ذهنها كمثقاب من فولاذ، وشعرت بالألم. كان يفتش فى ذهنها بتصميم عن تلك المعلومة، وحاولت أن تشغل نفسها بأي شيء، لكنها لم تستطع.

عارية، أوهنها الندم، واستشرى فيها الضعف، وأدركتْ أنه سيصل بعد قليل لمبتغاه، ثم سيلتهمها كما التهم غيرها.

هنا ظهر نديم خلفه وهو يترنح، ممسكا بقضيب معدنى وهوى به على المخلوق. سقط آكل الخطائين أرضًا، ثم زمجر بعنف وهو يتماسك مجددًا، وهو يلتفت بعينين محمرتين. تراجع نديم للخلف، ويبدو أن مرآه بعث في عروق سارة روح المقاومة؛ فمدت يديها نحو عنق ذلك الكيان تريد خنقه. لكن عنقه كان ساخنًا، حتى أنها صرخت من الألم وهى تحدق في كفيها اللذين كادا يحترقان.

تجاهلها آكل الخطائين، وأولى اهتمامه لنديم الذي نهض. مضت لحظة من الترقب استعاد فيها آكل الخطائين شكل كريم مجددًا، وقال بصوت مهيب:

"أخبرتك أن يديَّ متميزتان من قبل. آن لك أن تعرف كيف ذلك".

وقبض على رأس نديم، وقال:

"سأحطم رأسك كثمرة فاكهة ناضجة، وسأتلذذ بأكلك، برغم أني لا آكل البشر هكذا، لكنك تستحق معاملة خاصة، ثم سأستدير لتلك الفتاة اللعينة، وسألتهم كل قطرة ندم فيها باستمتاع".

ومدَّ يديه بالفعل نحو رأس نديم، ثم راحت يداه تتعملقان حتى استطاعت كل واحدة منهما أن تحيط برأسي نديم وسارة.

لكن نديم مدَّ يده نحو القضيب، وغرسه في صدر الشيء، الذي أطلق خوارًا ذاهلا، وهنا نزع نديم القضيب من صدره، ثم غرسه مرة أخرى في رأس الشيء، والذي راح ينتفض. قال الشيء وهو يزأر:

"بموتي سينفتح بابٌ مخيفٌ على هذا العالم أيها الأحمق، بابٌ سيدخل منه شرٌّ لا قبل لكما به، شرٌ سيغير هذا العالم، وقد ينهيه إلى الأبد".

ثم راح يشهق ويشهق، ثم يرتجف ويرتجف، حتى راح يذوب.

نعم يذوب، حتى صار مجرد كتلة من سائل لزج أصفر على أرضية القبو.

اقترب نديم من سارة وقال:

"هل أنتِ بخير؟".

"هل.. هل مات؟".

نظر نديم إلى بقايا الشيء وقال بمقت:

"لقد ذهب إلى الجحيم. اطمئني. أنتِ في أمان".

قام نديم بمساعدة الآخرين للخروج من القبو، ومن حسن الحظ أنهم قد وجدوا كريم الحقيقي في ركن آخر من القبو، وشرع نديم في إيقاظه والاهتمام به، بينما كانت سارة ما زالت ملتصقة بالجدار، وهي تحاول استيعاب آكل الخطائين قد رحل بالفعل. حاولت النهوض لكنها لم تقدر. قال نديم:

"ما الأمر؟".

"لا اشعر بساقيّ".

وراحت تبكي.

"لا أشعر بساقىّ. هل أُصبتُ بالشلل؟".

قال نديم:

"لاحظي أنكِ عائدة من غيبوبة ثقيلة قليل، وتعرضتِ لتجربة صعبة. ستكونين على ما يرام".

"كم لبثتُ في غيبوبتي الجديدة؟ أرجو ألا أكون قد قضيتُ عامًا آخر فيها".

ضحك:

"لا، مجرد عدة أيام فقط".

"خلتها دهرًا".

وحاول أن يحملها بين ذراعيه؛ لكنها رفضت، والحرج على وجهها. انتظرت قليلًا حتى استطاعتْ النهوض، ثم ساعدت ضحايا آكل الخطائين على النهوض أيضًا، وقد بدوا تائهين لا يعرفون ما يدور حولها. رمقت المخلوق الذائب على الأرض، وسألت نديم:

"ما الذي كان يقصده بالشرّ الذي سيأتى؟".

"دعكِ منه. إنها مجرد ترهات".

ثم غادروا جميعًا المبني خلفهما بصمت، وجلسوا لالتقاط الأنفاس في الحديقة المُلحقة بالفيلا، حيث كان الهواء يسرى بلطفٍ، وأوراق الأشجار التي تغطي الممر تتحرك بسرعة على الأرض. أما سارة فقد كانت هناك فكرة ملحة على ذهنها بشكلٍ مزعجٍ:

ما هو الباب الذي سيُفتح بعد موت آكل الخطائين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

كانت ليلة شديدة البرودة، وتيَّار الهواء يدخل من النافذة المفتوحة؛ مما جعل سارة تضمُّ إليها الغطاء الثقيل أكثر، وهي تشعر بكسلٍ لذيذٍ لا يشجعها على أن تفتح عينيها أصلا، وقد استيقظت لتوها من نومها.

قبل أن تأوى إلى الفراش كانت الريح شديدة، تضرب المنازل بقوة، وكانت قد عادت منذ ساعات لشقتها، حيث قامت بإرقاد مريم في فراشها، وقامت بتغطيتها جيدًا، قبل أن تبحث عن غطاء إضافي وتستلقى بجوارها.

استيقظ عقلها أولا، والدفء يسرى في جسدها المُغطَّى. وبدأتْ شعلة الذكريات تشتعل على مهلٍ في ذهنها، وأحداث الساعات الفائتة تتوالى مجددًا في ذكراتها، كشريط يعاد تشغيله.

كان نديم شوكت، قد رافقها إلى شقتها، ثم تركها وانصرف.

تضمُّ الغطاء إليها أكثر.

نديم شوكت هو لغزٌ بالنسبة لها.

موضوع علاجه لمرضاه بالحكايات؟ شيءٌ غريب، ولولا أنها واحدة من هؤلاء الذين عادوا على يديه من براثن حالة صعبة وغريبة لا يمكن وصفها؛ لشككت في الأمر، ولنعتته بأنه نصَّاب.

تقلبت سارة في فراشها عند هذه النقطة من الذكريات، تيار الهواء المزعج ما زال يضرب وجهها. يبدو أنها قد نسيت إغلاق النافذة بالفعل، برغم أنها تضع الغطاء على وجهها، ولا يصلها ضوء الصالة الخفيف الذي تركته مشتعلا.

لكن الهواء يتخلل الغطاء ويشعرها بالبرودة المخيفة التى قضت فيها فترة لا بأس بها حبيسة في فيلا كريم الباجوري تتأمل شمس الشتاء.

فجأة، تجمدت الدماء في عروقها. سمعتْ تلك الخطوات التى تقترب بإيقاع ثقيل.

من؟

حبستْ أنفاسها. هل هو متسلل؟ كيف غافلها ودخل الشقة؟ هل أغلقت باب بيتها جيدًا أم نسيت؟ ثم فكرت بأنها مريم حتمًا. لا بد أنها قد ذهب للحمام، أو دخلت المطبخ.

الخطوات تقترب أكثر.

لكن مريم المفترض أنها لم تقابلها منذ عام، حيث كانت حبيسة فيلا كريم الباجوري، والذي كان حبيسًا بدوره هو الآخر، وآكل الخطائين نتحل شخصيته؛ فلا بد أن مريم عندما تستيقظ ستشعر بالذعر وعدم الفهم. اتزانها النفسي سيكون منعدما. استبعدتْ سارة هذا الاحتمال.

الخطوات تقترب منها جدًا، وهي تكتم أنفاسها.

هل يكون نديم؟ لكن هو ليس مجنونا ليفعل هذا، ثم إن لديه رقم هاتفها النقَّال، ويمكنه الاتصال بها بكل بساطة.

امتدت يد وأزاحت الغطاء عنها، وأتى من خلفها صوت مألوف رجهًّا حتى أعماقها:

"استيقظي أيتها الكسولة. لقد أذَّن الظهر بالفعل".

بهرها الضوء. نعم، كانت تعتقد أن هناك عتمة بالخارج، لكنها تكتشف الآن أن هناك نور، والحقيقة أن الوجه الذي كان يتطلع إليها كان من المستحيل أن يتطلع إليها أصلًا؛ فأغلب الظن أنه تحلل تحت طبقات التراب، ولم يبق منه سوى رسم على الرمال.

"أمي!".

قالتها، وقشعريرة عاتية تجتاحها، تأخذها من مكان عالٍ لتهوى بها إلى أسفل نقطة ممكنة، هاوية بلا قرار، شعور لا يمكن وصفه.

قالت أمها وهي تبتسم:

"أمك طبعا، هل هناك من يوقظك غيري أيتها السخيفة؟".

حدقت بعينين غير مصدقتين وأنفاس مبهورة في أمها، وهى تقترب من النافذة، وترفع عنها الستائر ثم تفتح الزجاج؛ ليتدفق إلى الحجرة نور النهار.

وضعت يديها على عينيها من شدة النور المفاجيء، وهى تقول لنفسها أنها تحلم، حتمًا تحلم. هنا صفعت نفسها بقوة، لكن الصفعة- برغم قوتها- لم ترها أمها ولم تسمعها لحسن الحظ، حيث أن أصوات الشارع انهمرت مع الضوء للداخل وحجبتها.

الصفعة قوية، لكنها لم توقظها من ذلك الحلم الذي تظن أنها غارقة فيه حتى النخاع.

"هيا قومي، وتجهزى فلدينا زوار كما تعلمين. لو وجدكِ فى فراشك فسيسخر منكِ طوال اليوم. ها أنا ذا أحذركِ حتى لا تغضبي وتشتكي منه كما هي عادتكِ".

كانت تود أن تسألها من هو ذلك الشخص، ثم انتبهتْ إلى أنها تود طرح السؤال على أمها التى من المفترض أنها ميتة أصلًا!

يا للجنون!

تركتها أمها، وهى تجلس متبلدة ذاهلة، تحاول أن تستوعب هذه المعلومات الجديدة، ويبدو أن عقلها نفسه قد أصابه شلل جعله يتجمد هو أيضًا.

بعد قليل بدأت تستوعب حدود المكان حولها، من خلال نظرة متفحصة دامت عدة دقائق. طبعًا الحجرة مختلفة عن حجرتها السابقة الموجودة بشقة ضيقة.

هذه شقتها القديمة؛ الشقة الواسعة بالطابق الرابع بأحد الأحياء الراقية القريبة من النيل. أزاحت الغطاء، ونظرت من النافذة وهى تعبُّ الهواء البارد المتدفق إلى رئتيها.

الشارع الذي تعرفه قبل أن تدخل الغيبوبة، بائع الخضار الأنيق المبتسم دومًا، وهو يتحدث مع زبائنه، والذين يأتون له من عشرة عمارات متجاورة، وفي كل مرة يغدقون عليه ببقشيش زائد، وهو شخص محبوب حقًا.

من النافذة تبدو مكتبة قصر الثقافة، والتى قابلت فيها زوجها السابق للأسف، قبل أن تكتشف أنه وغد فيما بعد، حيث جمعهما البحث في الكتب القديمة، والأسرار الغامضة.

ما الذي يحدث؟ هل هي خدعة ما؟ لكنها لو كانت كذلك؛ فهى خدعة متقنة لأقصى درجة، خدعة جعلت عقلها نفسه يرتبك ويتبلد. وثبتْ من فراشها، ونظرت لنفسها في المرآة. نفس الوجه الذي تعرفه، لكنه أكثر نضارة وإشراقًا. تحسستْ تفاصيله بيديها، وكأنها تريد التأكد من وجوده، زيادة في التأكد قامت بحركتين متتاليتين:

صفعت وجهها مرة أخرى، وكانت الضربة أكثر قوة من السابقة، وأحدثت صوتًا، وكانت مؤلمة بطبيعة الحال.

وقرصت كتفها بقوة أكبر؛ فشعرت بألم أكثر.

تبًا! الأمر حقيقي إذن! ماذا عن نديم والمستشفى، وزوجها السابق وموت والديها، وتلك المغامرة الشنيعة في فيلا كريم الباجوري؟

هل هو حلم في مؤخرة رأسها؟ تقرن القول بالفعل، وتتحسس رأسها، تبحث عن ذلك الشق الملتئم الناتج عن سقوطها من الطابع الرابع؛ فلا تجده.

تنتابها الحيرة أكثر وهى تنهض من فراشها مترنحة، تحاول أن تستوعب وأن تتوازن وأن تفهم، والأمر كان جدُّ صعب عليها، لكن مرآها في المرآة جعلها تستكين قليلا، صورتها التى تعرفها، لكن مع الكثير من النضارة، الكثير من الإشراق. هل هي تلك الفتاة الآن؟

غادرت الحجرة بحذر، وكأنها تخاف مما ينتظرها بالخارج، ربما لا تجد شيء، ربما هى تتخيل ذلك، ربما وربما، ومع ربما تزيد الاحتمالات، ومع الاحتمالات يتعالى طنين سخيف فى رأسها من كثرة التفكير، لكنها عندما غادرت الحجرة توقف كل هذا بغتة.

كان والدها يرتدي روبا منزليا أنيقا كما هي عادته، أمها تجهز الطعام فى المطبخ كعادتها، وثمة رائحة ذكية أعادتها للماضي وتفاصيله.

هنا حدث شيء:

سالت دموعها، بالأدق: سالت دمعتان على وجهها، هل هذا حلم أجمل من أن يكون حقيقة، أم أنه حقيقة وما رأته كان كابوسًا مخيفًا؟

"هل تبكين يا سارة؟".

سألها والدها، وهو يخفض نضارته الطبية على قصبة أنفه. يبدو أن صوت الأب وصل للمطبخ؛ فقد خرجت أمها مسرعة وهى تقول بهلع:

"تبكي! من التى تبكي؟".

أشار أبوها إليها؛ فبان الجزع أكثر على وجه الأم، وكادت أن تقول شيئا ما، لكن رنين الباب انتشلها من قلقها هذا، وأسرعت وهي تقول:

"لقد أتوا".

فتحت الباب، وعلى عتبته كان يقف شاب وسيم طويل، مع زوجته الجميلة وطفلته المشاكسة، التى كانت تضع علكة في فمها، ولا تكف عن طرقعتها؛ مما أثار غضب والدها وهو يلتفت إليها:

"سارة، كفّى عن شقاوتك يا حبيبتي".

لم تعره الصغيرة- التى لم تتجاوز السبع سنوات- سمْعها وواصلت ما تفعله؛ مما جعله يتنهد وهو يقول لهم مبتسمًا في استسلام:

"تعرفون الأطفال وشقاوتهم التى لا تنتهى".

احتضننته أمه وقالت:

"لقد كنت تفعل أكثر من هذا، عندما كنت صغيرًا يا جبريل".

قال بمرح:

"هذا ما يجعلني أتحمل، وأقول أن التاريخ يكرر نفسه".

وأطلق ضحكة صافية خلعت قلب سارة، وهى تقف فى منتصف الصالة دون أن تبدي حراكًا محدقة في أخيها جبريل، الذي يبدو أنه بُعث هو الآخر من قبره، أم أنها هى من أرسلتهم إلى قبورهم في الأصل، بينما الواقع ألطف وأجمل، ويُخرج لها لسانه بغيظ، وكأنه يقول لها: ***يا لك من سودواية، تحبين الكوارث ولا تتمنين الخير لأهلك.***

شعرت باختناق، ثم دوار، وهنا لم يعد عقلها قادرًا على أن يحتمل المزيد؛ فهجم ظلام كثيف على وعيها، وسقطت أرضًا. لكن دون ان تفقد وعيها، وكأنها اكتسبت مناعة ضد هذا العملية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

برغم مُضي نفس ساعة من مراقبتها لما يحدث، إلا أنها لم تستوعب بالكامل ما يحدث أمامها. كانت تخشى أن تغفو وتصحو؛ فتجد نفسها فى المستشفى، أو في حجرتها الضيقة شقتها الجديدة.

كل هناك احتمالان.

الاحتمال الأول: أن ما مضى، وما تعرفه، وما يتحرك بضبابية في عقلها مجرد ذكريات غير حقيقية: زواجها من محسن، الحادثة الغامضة التي تعرضت لها، غيبوبتها التي استمرت لعام تقريبًا، ما تلاه من أحداث غريبة، مريم، الدكتور هيثم، وذلك الرجل المدعو نديم شوكت، والذي كانت تفكر فيه قبل أن تدخل أمها عليها. لو كان هذا مجرد كابوس والواقع ما تراه الآن؛ فلا شك أنها ستكون سعيدة، لكن هل هناك كابوس بهذه الدقة، وبتلك التفاصيل المرعبة؟

الاحتمال الثاني: أن ما تمرُّ به الآن مجرد حلم بدوره، وسرعان ما تستيقظ، لكن تبقى مشكلة صغيرة: هل هناك حلم بهذه التفاصيل الواضحة؟

كانت سارة الصغيرة تجلس بجوارها وهى لا تكفّ عن الحركة، وهو أمر طبيعي لفتاة في السابعة من ساميها. لحظة؛ هل اسمها سارة؟

طبعًا كانت هناك تساؤلات بخصوص سكوتها المفاجيء، الذي لم تعتد عائلتها عليه، وكانت إجابتها: أنه مجرد إرهاق ليس أكثر، وهنا أدلت أمها بدلوها، وقالت إن الطعام كفيل بإنعاشها، ونهضت بالفعل لكي تُجهزه بمشاركة زوجة ابنها.

كان عليها أن تتعامل مع الوضع الحالي كأنه واقعها بالفعل، حتى تفهم. أية محاولة للدهشة والتساؤل والحيرة لن تكون جيدة. تحتاج لقدر من التعقل وضبط النفس حتى تجعل هذا اليوم يمرُّ بسلام، وإلا طار عقلها شعاعًا من هولِ ما يحدث معها.

نظرت سارة إلى جبريل، وملأت عينيها منه، بعد أن ظلت نصف ساعة تتحاشي النظر إليه في عينيه مباشرة. الحقيقة أنها ظلت تتحاشي النظر لأي واحدٍ من أفراد الأسرة وخاصة والديها، لكن هذين الأخيرين لم يلاحظا. جبريل فقط من لاحظ. قال وهو يتنهد بضيق:

"هل ستتحاشيني هكذا طوال اليوم ياسارة؟".

دفنت سارة وجهها في الطبق الذي أمامها، في محاولة خائبة منها للهروب من كل هذا:

"لماذا تقول هذا؟".

رفع شوكة الطعام:

"هل تظنيني غبيًا؟ أعرف سبب معاملتك الجافة هذه. أهذا كله من أجل هذا الرقيع محسن؟".

رفعت رأسها، وقد انتصبت جذور رأسها بتحفز.

رددت بحذر:

"محسن؟".

"أخبرتكِ أننى لا أرتاح له. لا أعرف ما الذي يعجبكِ في هذا السمج؟"

قال والدها:

"من **محسن هذا؟".**

أما أمها فقد ضمت يديها إلى صدرها وقالت بأمل:

"عريس؟".

كادت سارة تقول شيئا ما، محاولة إيقاف هذا السيل المجنون من الحديث، في محاولة منها لكي تستوعب، لكن جبريل كفاها مؤنة ذلك وهو يقول:

"إنه شاب قابل سارة في المكتبة، ويبدو أنها قد أُعجبتْ به، وقد قابلتهما مصادفةً وهما يسيران على الكورنيش، ولم تبدر مني ردة فعل، حتى لا أُحرجها".

طباعها القديمة في الجدال معه برزت للوجود بغتة:

"هل رأيتنا في وضعٍ فاضح؟".

قال بدهشة:

"لم أقل هذا".

"فلتتحسس ألفاظك إذن".

قال والدها مهدئًا الوضع:

"لا بد أن جبريل لا يقصد شيئًا مسيئًا إليكِ يا سارة".

كادت تتهمه بأنه منحاز دوما لأخيها الأكبر. لكنها التزمتْ الصمت. هناك مشاكل أكبر بكثير من علاقتها المعقدة مع أخيها الوحيد. المعلومة المهمة التي خرجتْ بها أنها لم تتزوج محسن هذا. عظيم. لم ترتكب هذه الجريمة هنا إذن.

قالت أمها موجهة كلامها لجبريل:

"لماذا تقول أنه لا يصلح لها يا بني؟ هل لديه ما يعيبه؟".

"إنه رجل ثري، في مركز مرموق. لكنه غير مريح. شيء ما فيه لا يريحنى فيه بالمرة. لقد احتككتُ بالكثير من البشر يا أمي، وأستطيع من نظرة واحدة أن أستشعر الشخصية التي أمامي، وأحب أن أخبركم أن محسن هذا مريب".

لم تجد سارة بُدًّا من أن تبتسم على الرغم منها. على الأقل أخوها على حق هذه المرة. لقد تزوجها محسن، وطلقها في...

اللعنة! أيهما الحقيقة، وأيها الخيال؟!

قالت بإرهاق:

"اطمئن يا جبريل. لقد نزعت فكرة الارتباط مع محسن هذا. أنتَ على حق".

بدا الأسف على وجه أمها، بينما هزّ والدها رأسه في رضا، أما جبريل فقد قال في حذر مندهش:

"غريبة؟ أول مرة توافقيننى على شيء".

هزت رأسها:

"الحقُّ أحقُّ أن يُتبع، وأنت على حق يا أخي الصغير".

لا بد أن الدهشة قد أصابت والديها أيضا. كانت تحتاج إلى الهروب، الهروب من نظراتهم، الهروب من جبلٍ هائلٍ من مشاعر عدم الفهم والحيرة والاضطراب، والذي يكاد يسحقها تحت ثقله.

إنها لا تفهم شيئا. ظلت هكذا لساعتين تروح وتجيء، وتحاول التأقلم على هذا الوضع، وشيئا فشيئا بدأت تقتنع بأن واقعها الحالي هو الحقيقي، وبدا نديم شوكت ومريم وآكل الخطائين مجرد حلم سخيف في مؤخرة عقلها، ثم سرعان ما راح يتهاوى، حتى صار حُطامًا.

"ما هي آخر أخبار مريم؟".

سألت جبريل بغتة، وهي تنظر في عينيه لأول مرة. هذا التصرف يبدو أنه قد أسعده. قال:

"آخر ما وصلني منها أنها في البلجيك مع زوجها تامر. إنها ترتحل كثيرًا من بلدٍ إلى بلد".

وضحك:

"أتوقع أن يُعلن تامر إفلاسه قريبًا".

ابتسمت. إذن فقد تزوجته مريم هنا بالفعل؟ سعيدة هي من أجلها. معنى هذا أن الفعلة المخجلة التي فعلتها في حق ابنة خاتلها لم تحدث هنا. عظيم.

رنين هاتفها المحمول يوقظها من محادثة ضاحكة مع سارة الصغيرة، والتي سُميِّتْ على اسمها. لا بد أن جبريل يحبها جدًا. عجيبة، لقد كان وغدًا صغيرًا، لكنه نضج وكبر، وتغيرت طبائعه الموذية. إنها سعيدة، وتخشي أن تزول منها هذه السعادة بسبب أي شيء.

" من المتحدث؟".

أتاها صوت حذر:

"سارة نعمان معي؟".

"أجل، من أنت؟"

قال الصوت بنبرة أعلى، وخُيِّل إليها أنها قد سمعته من قبل:

"أنا صبري أبو النور يا سارة. ثمة شيء رهيب قد حدث لعالمنا الذي كنا نعرفه. إنه ليس كما تظنين. إنه مختلف. أبواكِ قد ماتا، وأخوك أيضا. شيء ما مجنون قد حدث".

"..........".

"سارة. هل أنتِ معي؟ لماذا لا تتكلمين؟".

أغلقتْ المكالمة وهي ترتجف. رفعتْ إليها أمها.

"ماذا بكِ يا بنيتي؟".

"أنا.. أشعر.. بالدوار.. قليلا".

هرع إليها جبريل وأحاطها بذراعه وهو يُجلسها.

"منْ الذي كلمكِ؟ هل هو محسن؟ سوف....".

قالت بصوت خفيض:

"ليس هو. إنه شخص آخر".

العيون المحدقة بها تسألها بوضوح: من هو؟ لكن أحدًا لم ينقل هذا السؤال إلى حد التنفيذ. كانت النظرات في تأثيرها أقوى من السؤال الفعلي. ماذا ستقول لهم؟ هل ستعتدل وتأخذ نفسًا عميقًا، وتقول بهدوء:

"إنه صبري أبو النور؟".

سيسألها جبريل، وربما أبوها:

"من هو صبري أبو النور؟".

ستقول:

"إنه شخص من عالمي القديم، حيث أنتم جميعا موتى، وأنا مجرد فتاة تعيسة تعيش في شقة ضيقة، تقاسي ويلات الفقد، وألغاز لعينة تأبى على الاتضاح أمامي".

لا بد أن نظرة مندهشة، ممتزجة بأخرى حذرة، متشابكة مع ثالثة حائرة، مع رابعة مشفقة، وكأن كلامها يثبت أنها على شفا حفرة من الجنون.

نعم، لو أخبرتهم بشيء من كل هذا ستكون هذه هي النتيجة؛ النتيجة التي تراها في عقلها بوضوح. ولم يكن أمامها سوى طريق واحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتفقا على اللقاء في ذلك المقهي على النيل، والذي يبعد عن منزلها مائتي متر فحسب، والحقّ أن سارة ترددت كثيرًا، لكن صبري هذا قد اتصل بها كثيرًا، حتى أنه عكَّر صفو زيارة جبريل لهم؛ مما جعلها توقن أن الحل الوحيد للتخلص من اتصاله هذا هو أن تقابله.

ثم إنها تتذكر اسم صبري فعلا من أحلامها. نعم، الآن، وهى ترتشف مشروبها ببطء، توقن بأنه مجرد حلم طويل معقد، وأن ما تشعر به الآن هو الواقع بلا ريب.

تنظر في ساعتها في ضجر. لقد تأخر دقيقة على موعده. ستعطيه دقائق أربع، ثم تتصرف.

عيناها كانتا معلقتين بالباب عندما رأته يدخل.

وعندما رأته يدخل عرفته.

وعندما عرفته شعرتْ بالذعر. معنى أن تعرف هذا الوجه؛ أن ذلك سيقودها لسلسلة من الاستنتاجات المرعبة. كان يتجه نحوها. خفقات قلبها مضطربة وتتزايد بشكل مزعج.

تمنت لو تجاوزها إلى منضدة أخرى حتى تتبدد شكوكها. لكن هذا لم يحدث. جلس قبالتها وهو ينظر حوله بتوتر.

"هل أنتِ بخير يا سارة؟".

قالت بارتباك:

"عفوًا!".

قال بسرعة، وبصوت منخفض:

"أعرف أنكِ مضطربة وحائرة، وتتساءلين إن كان ما مررتِ به من قبل مجرد كابوس طويل ممتد، أم العكس هو الصحيح".

كيف عرف هذا؟

كان يأخذ نفسًا عميقًا، وهو يقول:

"أنتِ على حق. هذا ليس عالمكِ المعهود. هذا العالم جديد".

"هل حضرتك تعرفنى؟".

"لا بد أنكِ تتذكرينني. لقد تقابلنا من قبل في شقتك، ثم في فيلا الدكتور هيثم، ثم في المقابر، حيث يرقد أهلك موتى".

بالفعل هي تتذكر شيئا كهذا من أحلامها. صحيح أنه ضبابي بعض الشيء، لكن كلام صبري هذا كان يزيح- بصعوبة- بعض طبقات الضباب عنه.

قالت وهي تشعر بذلك الصداع يهجم بغتة على رأسها:

" ذلك الصداع المزعج".

تلفت صبري حوله بتوتر:

"لا بد أنهن قد شعرن بأني سأخبرك الحقيقة. هذا يهددهن".

قالت بحدة، وقد سئمت كل هذه الألغاز:

"عما تتحدث؟".

قال بسرعة، وكأنه ينتظر السؤال:

"نول القدر".

رددت ببطء:

"نول القدر؟ أي شيء هذا؟".

لوَّح بيده:

" الأسطورة اليونانية عن الأخوات الثلاثة اللاتي يمتلكن نولا يتحكمن من خلاله في مصائر البشر. إنهن ينسجن الأقدار بأحداثها الدقيقة ويشبكنها معا. كل شيء فيه محسوب بدقة. فلان قابل فلانة، علانة قابلت علان، هذان تزوجا، هذان تفرقا، هذان قتلا بعضهما البعض. كل ما ترينه في العالم هو مجرد نتاج لقدراتهن الخارقة على نسْجِ القدر".

صمت ريثما يأخذ أنفاسه. كان منفعلا، متوترًا، وقد مدّ يده وارتشف البعض من مشروبها فيما اعتبرته قلة ذوق.

قال، وقد لاحظ نظراتها المشمئزة المتعجبة الحذرة:

"معذرة، ولكني أشعر بالعطش؛ فقد كنت أجرى وسط إشارات المرور كالمجنون حتى ألحق بموعدي معك".

"أنت مجنون بالفعل. ما هذا الهراء الذي تقوله؟".

"إنهن موجودات يا سارة. موجودات في مكانٍ ما، وقد غيرّن العالم بنول القدر هذا. الأسطورة اليونانية تقول أن أسماءهن: كلوثو، لاشسيس، أتروبوس. لكن هذا لا يمنع أن تكون لهن أسماء أخرى مختلفة هنا".

"ومن أين استقيتَ معلوماتك أيها العبقري؟".

قال بسرعة:

"أخبرتكِ لديّ مصدر لا يكذب. لاحظي أنه نفس المصدر الذي ساعدكِ على مواجهة آكل الخطائين".

شعرتْ بالرعب. إنه يعرف عن هذا أيضا. من بين تفاصيل الحلم الذي رأته وتتحفر تفاصيله في ذهنها، يبدو هذا هو الحدث الأبرز بتفاصيله. تتذكر الآن صبري وهو يواجه آكل الخطائين معها في المقبرة، وقد هوى من علٍ. قالت بحذر بطيء:

"هل تتذكر ما حدث في المقبرة؟".

"بالطبع، آكل الخطائين الذي تنكر في هيئة مريم ابنة خالتك. لقد كان خصما عنيدا كاد يهدد حياتنا بالفعل".

ابتلعتْ ريقها. هذا ما تتذكره بالفعل. لقد سقط من أعلى ودخل المستشفى ليُعالج؛ فكيف يسير الآن على قدميه.

"المفروض أنك أُصبتَ بإصابة بالغة"

فرك يديه في حبور:

"عظيم، أنتِ تتذكرين إذن، ويبدو أنكِ في سبيلك لتصديقي. بالفعل أُصبتُ في ظهري. إحدي الفقرات كادتْ تتحطم، وقد قال الأطباء أنى أحتاج شهرًا لكي أُشفى منها. المصدر أخبرني بأنكِ في خطر؛ لهذا أرسلتُ مفكرتك إلى نديم شوكت. فجأة تغيّر كل شيء. ها أنا ذا أمامكِ. لقد استيقظتُ؛ فوجدت نفسي في شقتي مُعافىً بلا خدش واحد. فبما تفسرين ذلك؟".

نديم شوكت. آكل الخطائين. كلها ذكريات تتحرك في ذهنها وسط مساحة شاسعة وغامضة من الضباب. مساحة الرعب أيضًا بداخلها تزداد.

"إذن والداي، وأخي جبريل....".

"نعم، موتى".

"لكن كيف عادوا؟"

"أخبرتكِ أنهم....".

قاطعته:

"هل أنت مؤمن بالله يا أستاذ صبري؟".

"بالتأكيد".

"كيف إذن تعتقد أن هناك من يقدر على إحياء الموتى؟"

صمت كأنما ألقمته حجرًا. لكنه في الواقع كان يستجمع أفكاره.

قال صبري بتؤدة:

"نحن متفقان على أنه لا يوجد شيء في الكون يجري دون إرادة الله. أليس كذلك؟".

"متفقان".

"لكن ليس معنى هذا أن الله يرضى بالظلم مثلا، أو القتل أو الحروب أو ما شابهها. ما يحدث في نطاق الإرادة الحرة التي جعلها الله للإنسان، والتي على أساسها سيحاسبون. نعم، الطغاة موجودون بإرادة الله، لكن الإرادة أي السماح بهذا أن يحدث، ما دام في طور الابتلاء وتمحيص النفوس".

قالت بنفاذ صبر:

"لا أعرف إلى أي شيءٍ تقودني".

قال برفق:

"اصبري قليلا يا سارة".

تحكمت في أعصابها بصعوبة. بينما أكمل هو:

"على هذا المنوال لا أحد يستطيع أن يُحيي الموتى، أو يبعث الحياة في الرماد إلا الله. هذا بديهي. لكن لو سمح الله لهذا أن يحدث فبإرادته، وبما وضعه من العلم والقوانين. فلو حدث وتوصل العلم لإكسير الشباب الدائم؛ فهذا بما وضعه الله من العلم في الطبيعة. مهما توصل العلم من إنجازات مستقبلية تخرق نواميس الطبيعة نفسها؛ فهي مجرد قوانين جديدة متضمنة في القوانين الأصلية للكون الذي وضعه خالق الكون نفسه. لهذا أتخيل أنه لو لو أُتيح لبعض الناس أن يمتلكوا القدرة على

تغيير الواقع بشكل ما؛ فهذا ليس معناه أنهم قد تحولوا لآلهة. إنهم يستخدمون وسائل ما فحسب".

قالت بغيظ:

"لكن بحسب كلامك فهؤلاء الأخوات الثلاث هن آلهة في الأساطير الإغريقية".

"كل ما هو خارق قد يوصف بالإلهية، لكنه في الواقع ليس كذلك. لا نعرف كيف تحرفت الأساطير، أو أصل هؤلاء الأخوات الثلاث. هل هن مخلوقات مُسامية من جنسٍ آخر؟ ربما. هل تعرضن لتجربة ما عملية غيرت خصائصهن؟ ربما. نحن لا نعلم. الاحتمالات كثيرة".

"أنت تهّرف بما لا تعلم. أليس كذلك؟ ثم من أين أتيت بهذه المعلومات؟".

قل بتحفظ:

"أخبرتك أن لديَّ مصدر موثوق لا يرقى إليه الشك".

"نفس المصدر الذي تحدث إليك عن آكل الخطائين؟".

"هذا صحيح. لا تنس أن معلوماته كانت دقيقة".

"ونفس المصدر يقول لك بأن الواقع قد تغيّر؟".

"تغير على المستوى الجذري. أشخاص ماتوا قد عادوا، والعكس صحيح، وخير تبيان على هذا ما حدث لكِ. عائلتك على قيد الحياة، أليس كذلك؟".

أومأت برأسها. ما يقوله مذهل. برغم جنونه؛ فهو منطقي.

"دعني أجاريك. ما الذي تريده الأخوات الثلاث من تغيير الواقع؟".

فرك يديه مجددًا:

"أتينا إلى بيت القصيد".

وصمت.

"هه! أخبرني".

قال بلهجة يغلب عليها الخجل:

"لا أعرف".

"عفوًا!".

قال ملوحًا بيديه:

"ما وصلني لا يشرح لي هدفهن من ذلك، أو حتى ما هي حقيقتهن. ما أخبرني به المصدر أن العالم قد تغيَّر، ولا بد أن يعود إلى سيرته الأولى".

قالت له:

"هل تعلم ما هو الغريب في الأمر؟".

نظر إليها بتساؤل.

"الغريبة أن هناك شذرات من ذكريات تؤكد ما قلته، ومع هذا أنا شبه متأكدة أن هذا العالم هو العالم الحقيقي".

قال متوترا:

"إنه من تاثير النوّل على الواقع. بمرور الوقت ستنسين عالمكِ القديم، وسيرسخ هذا العالم جذوره بعقلك. سيأتي وقت لن تتذكري فيه أي شيء على الإطلاق، إلا أشياء بسيطة للغاية، وكل ما حدث لكِ في العالم الأصلي؛ سيصير غير واضح".

قالت بحدة:

"ولماذا أريد إعادته؟".

نظرة متساءلة أخرى في عينيه. واصلتْ كلامها بعصبية:

"لو فرضنا أن ما تقوله صحيح، ما الذي يجعلني أرغب في عودة العالم القديم؟ إنه عالم متوحش قاس، فقدتُ فيه أقرب الناس إليَّ، لكن هذا العالم فيه كل من أحبهم. ما هو الشيء الذي يجعلني أريد العودة أصلا؟".

قال بهدوء:

"لأن هذة السعادة ستكون مؤقتة، وسرعان ما ستنهار. أؤكد لكِ أن الأخوات الثلاث يعشقن المرح والتغيير، ولن يتوانين عن تدمير العالم، لو كان هذا سيشعرهن بالسعادة".

قالت:

"أنت متشائم فحسب".

"ثمة خطر ما قادم يا سارة، وهذا الخطر سيهزمكِ لو لم تسعى إلى العودة إلى عالمكِ القديم. هذا الخطر أشعر باقترابه منى شخصيًا، إنه يحاول إسكاتي".

"ولماذا لا تؤثر عليك الأخوات الثلاث ومغزلهن؟".

"لأن لدي هذا المصدر الذي لا يكذب".

"ومصدرك هذا لماذا لا تؤثر عليه الأخوات الثلاث؟".

قال ضاحكًا:

"هذا المصدر لا يمكن التأثير عليه".

نهضتْ:

"لقد تأخرتُ في الذهاب. لا بد أن والديّ قلقان عليّ جدًا".

"فكّري في الأمر جيدًا. لا بد أن تعودي لعالمكِ القديم يا سارة، ولا بد أن تستعيني بنديم شوكت للبحث عن الأخوات الثلاث وإعادة العالم القديم كما كان".

نظرت إليه بحيرة مجددًا، وقد شعرت أن الاسم يمثل لها وجهًا ضبابيًا يتلاشى في قاع بئر قديمة، وسألته:

"من هو نديم شوكت؟".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت في حجرتها جالسة، تضع رأسها بين يديها، تفكر، ومع التفكير يأتي الصداع اللعين. كان أخوها قد رحل منذ ساعتين مع زوجته وابنته الجميلة سارة الصغيرة. هذا العالم يقدم لها كل شيء تفتقده وتشتاق إليه. ومع ذلك، هي متفقة مع صبري أبو النور، أن ثمة شيء ما خطأ، ربما هو وجود هذا العالم المُحسَّن، أو ربما هو شيء آخر.

كانت في يديها مفكرة صغيرة متهالكة، مكتوب فيها اسم نديم شوكت، مع بعض المعلومات عنه. لقد أصرَّ صبري أبو النور على إعطاءها إياها. أخبرها بأن ذاكرتها القديمة تتهاوى بالفعل، وأنه لا بد من وجود شيء ملموس يذكرها بما يجب أن تتذكره. خطر لها أنها في ذلك العالم القديم كانت تملك مفكرة مماثلة تدون فيها تفاصيل حياتها. أم أنها ظاهرة الديجافو (شوهد من قبل)، حيث يشعر المرء بأنه مرَّ بموقف معين من قبل، وأنه يحدث معه للمرة الثانية.

أمسكتْ بالقلم وراحت تخطُّ عنوانها على أول صفحة في المفكرة بشكل شارد. كأنها محاولة منها لأن تستجمع أفكارها، كعادتها منذ أيام الثانوية العامة.

نهضت من الفراش، ووضعتْ المفكرة تحت الوسادة وغادرت حجرتها.

كان والداها يشاهدان نشرة إخبارية تتكلم عن حادث بشع في إحدى العمارات. كانت أمها تمصمص شفتيها حزنًا، بينما والدها يحوقل. ما زالت لا تصدق أنهما

معها. كيف يمكنها أن تغيِّر حياة كهذه بحياة أخرى كئيبة؟ هل صبري أحمق لهذه الدرجة؟

كان المذيع يقف مع أحد رجال الشرطة، الذي كان يقول بأسف:

"لقد سيطرنا على الحريق بصعوبة، لكنه تسبب في هلاك صاحب الشقة، وقد لامست النار الشقق المجاورة لولا بطولة رجال الإطفاء".

سأله المذيع:

"هل عرفتم اسم الضحية؟".

"إنه صحفي مستقل يُدعي صبري أبو النور".

انتبهتْ، ووقف الشعر في رأسها. صبري أبو النور؟ تتذكر ما قاله لها:

"ثمة خطر ما قادم يا سارة، وهذا الخطر سيهزمكِ لو لم تسعى إلى العودة إلى عالمكِ القديم. هذا الخطر أشعر باقترابه منى شخصيًا، إنه يحاول إسكاتي".

عادت لحجرتها واستلقت في فراشها، واسم صبري أبو النور يحتل تفكيرها، وراحت تتقلب في فراشها، وبداخلها حزن عجيب على صبري، برغم أنها لم تقابله إلا صباح ذلك اليوم. هل يمكن أن تكون مقابلته لها هي ما عجَّلت بموته؟

ثم أخرجتْ المفكرة من تحت الوسادة، وقلبت صفحاتها بفضول. إنها تتكلم عن شخص يُدعي نديم شوكت. هذا الشخص يعمل فيما يبدو على معالجة المرضى بالحكايات. وجدت نفسها تبتسم. يا له من نصَّاب! إن الحمقي والمغفلون هم من يصدقون شيئا كهذا. إنها لا تتخيل أنها قد تُصاب بشيء ما وهو يأتي هو لكي يعالجها.

لعدة أيام تالية راحت حياتها تأخذ مجري النهر. تسير مياهه بدون سرعة أو اضطراب، بل بانتظام أقرب للملل. ولم يضايقها هذا قطّ. لكن قبل أن تأوى إلى فراشها كانت تخرج المفكرة، وذات الاسم يبرز مرة أخرى: نديم شوكت.

فتحت اللاب، وشرعت في البحث عنه. نعم، إنه كما تقول المفكرة، شخص قادر على علاج المرضى بالحكايات. لفت نظرها مدونة لفتاة تُدعى سعاد، محبة للكتب، تتكلم فيها عن أخيها سامي، واقتناع أمها بأنه مسّ شيطاني؛ فقد تعرض لشيء ما غامض في إحدى رحلاته، وقد عاد منها بوجه غير الذي ذهب به. وأن شقيقها الثاني- ويُدعى سيد-قد استعان بخدمات نديم هذا لكي يعالجه. قالت إنها متشوقة جدًا للتجربة التي ستتم في اليوم التالي، وأنها ستشارك القُرَّاء نتائجها.

قالت سارة لنفسها بأنها في حاجة لحضور هذه الجلسة بنفسها. لكن بأية صفة؟

فكرت قليلا، ثم ومضت في ذهنها فكرة. بحثت عن بريد سعاد الإلكتروني، وراسلتها وأخبرتها بأنها محبة للأشياء الغريبة، وتريد أن تتخصص فيها كصحفية، وتريد شيئًا حقيقيًا تكتبه عنه في بداية رحلتها؛ فهل تسمح لها بحضور تلك الجلسة؟

بعد ساعتين أتاها الرد من سعاد بالترحيب والموافقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل غروب الشمس بقليل كانت تقف أمام المنزل الفخم الشبيه بقصر. بل هو قصر فعلا. كانت هذه العائلة من أغني العائلات الموجودة بالمدينة، تضرب بعراقتها في جذر الزمان ذاته، ربما حتى عصر المماليك، وكانت سعاد تنتظرها على باب الفيلا، والتي رحبتْ بها وهي تقودها للداخل. كانت سعاد تبدو في أواخر العشرينات، لكنها كانت في منتصف الثلاثينات في حقيقة الأمر، هادئة الملامح، مريحة إلى حدٍ كبيرٍ، ترتدي ثوبًا بسيطًا، ولا تضع أية مساحيق على وجهها

"أعرف أني سأكون سخيفة يا أستاذة سارة. لكنى مضطرة لتركك لبضع ساعات لزيارة صديقة لي. ثمة طارىء قد حدث، ويتحتم وجودي. سأحاول ألا أتأخر".

قالت سارة بضيق:

" من الممكن أن أرجع من حيث أتيت، وليكن...".

قاطعتها سعاد:

"لا، سنتقابل مرة أخرى. أنا قلقة جدًا على أخي سامي، وبالفعل لولا أهمية هذا الحدث الذي طرأ لصديقتي ما كان لي أن أذهب. لكني أفترض أن كل شيء سينتهى مبكرًا".

قالت بصوت حاوت أن تكون فيه لا مبالية بقدر الإمكان، حتى لا يفضح توترها:

"متى سيصل الأستاذ نديم شوكت؟".

"لقد وصل بالفعل منذ ساعة، ولم أقابله للأسف. كان في استقباله الحاج سيد أخي الأكبر. إنه الآن في غرفة سامي يحكى له حكاية. هذا الرجل يحتاج مني لأن أبحث في خلفيته جيدًا".

"هل تشكين فيه؟".

"كل شخص عرضة للتشكك، وخاصة هؤلاء الذين يزعمون أنهم...".

قاطعها رنين الهاتف النقّال؛ فألقت نظرة على الشاشة، وألغت الاتصال. توجهت للباب:

"معذرة، لن أتأخر".

جلستْ على مقعد بمفردها وهي تشعر بالضيق، بينما واجب الضيافة يتم معها بأحسن ما يكون، من مشروبات وفواكه. هل ظلت في مقعدها ساعة؟ ساعتين، أم أكثر؟ لا تعرف، لكنها راقبت غروب الشمس، والظلام ينتشر، والمصابيح تُضاء.

فجأة، دوَّتْ تلك الصرخة..

أسرعت زوجة سيد ومن خلفها سارة إلى أعلى، حيث كانت الأم تندفع للحجرة وخلفها سيد، ثم توقفت الأم بخوف شديد بان على ملامحها.

وصلت سارة لترى ما يحدث بفضول... تبدَّى لها رجل متوسط القامة يقف محدقًا في شاب ضخم، طويل، لديه ندبة غريبة في جبينه، وكان يزمجر، وعيناه بيضاوان مشربتين بصفرة، ثم حدثت الأمور بسرعة.. انقضَّ على نديم، وهو يريد أن يُمسك رقبته بيديه، لكن نديم قاوم والذعر يتبدى على وجهه... صراخ.. جزع الأم.. توتر.. محاولة نديم للسيطرة على الأمر دون جدوى.. كان هذا فوق ما تحتمله سارة.. لو كانت ترى هذا الشيء الغريب لأول مرة؛ لفقدت وعيها، لكن بعد كل الذي رأته، ما تتذكره وما لا تتذكره؛ فتكتفي فقط بالتحديق المندهش.

فجأة ظهر سيد وهو يحمل بندقية، وهو يصوبها نحو سامي:

"هذا ليس أخي. إنه شيء آخر".

دخول سيد المباغت جعلها تتحرك جانبًا مستندة على الجدار، لكن استنادها كان غير موفق، وبالتالي؛ فقد وجدت نفسها تمدُّ يديها إلى أقرب شيء إليها لتتشبث به، وكان هذا الشيء هو سيد نفسه، والذي كان يطلق الرصاصة في نفس اللحظة، لكن بسبب تشبثها به انحرفت رصاصته، وأصابتْ مصباح الحجرة الوحيد المُضاء.

تلاشى النور، وارتفع فحيح مرعب في الظلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السابع

لم يكن الفحيح في الغرفة فقط، بل كان بالقرب من أذن سارة نفسها، والتي شعرتْ بلفحة ساخنة تضرب وجهها؛ مما جعلها تلتصق بالجدار بالخوف. ثم انساب الضوء في الحجرة، بعد أن ضغط نديم بقية أزرار الإضاءة للمصابيح المطفأة، حيث الكل مبهوت وخائف ومضطرب وغير فاهم، وحيث كان الفتي سامي غير موجود أصلا!

لطمتْ الأم:

"أين ابني؟ أين ابني؟ أين ذهب؟"

وكان لها الحق في تساؤلها هذا؛ فهي تسدُّ باب الحجرة هي وابنها سيد، ونديم بالقرب من النافذة، بحيث يستحيل أن يكون الفتي قد قفز من النافذة، بالإضافة إلى أن الأضواء الشديدة تجعل من المستحيل أن يختبيء.

هنا قفزت فكرة إلى رأس سارة. هناك مكان واحد فقط من الممكن أن يكون سامي فيه، برغم استحالته فيزيائيًا، حيث يخالف قوانين الجاذبية.

رفعتْ رأسها للسقف، وأمكنها أن تلمح الجسد الملتصق به بإحكام شديد، والمرعب أنه كان يبتسم؛ ابتسامة عريضة ساخرة، ذات قوة مخيفة، شلَّتْ سارة نفسها، وجعلت عقلها يتجمد إلى حين، لكنها أطلقت صرخة متحشرجة مكتومة، وإصبعها يرتجف وهي تشير إليه.

رفع الجميع نظرهم إلى أعلي، ووسط موجة الشهقات والحوقلات والتحذيرات وصراخ الأم المذعورة، والتوتر اللعين الذي أبرز عن أنيابه، تحرَّك سامي برشاقة على السقف، وهو يتحرك كعنكبوت يعرف ما يفعل، مرة يكون في منتصف السقف، ثم مرة أخرى يتحرك بغتة لأقصى ركنٍ فيه، ثم مرة ثالثة يعود مجددًا؛ ليس لمنتصف السقف كما كان من قبل، ولكن لمنطقة قريبة منه، وكان سيد يحاول جاهدًا إطلاق النار عليه، وسط صرخات الأم في محاولة لمنعه، لكن سيد كان غاضبًا، وهو يطلق الرصاص المدوِّي، مع رائحة البارود، ووسط هذا الجو المشحون بالتوتر والغضب والخوف والحيرة والاضطراب سقطتْ الأم فاقدة لوعيها، واستلقتْ على الأرض بدون حراك.

توقف كل شيء، توقف كما لو كان على فيلم متحرك كان يجري بسرعة ثم أصابه شيء ما؛ فتجمد. دام هذا للحظة فقط، قبل أن يهب سيد للاطمئنان على أمه، وهو يلقى البندقية جانبًا. كان يضرب خديها برفق وجزع:

"أمي، أمي، استيقظي. هل أنتِ بخير؟".

في تلك اللحظة تحرك سامي، وتوجه للنافذة. نديم تحرك أيضًا في تلك المرة وأمسك بكرسي ثقيل، وهوى به على رأس سامي الذي توقف لثانية، ريثما يستوعب ما يحدث، ثم سقط أرضًا. وبينما لم تبدر حركة واحدة من الحاجة نيِّرة، كان نديم يسحب حبال الستائر في خشونة، ويقوم بتقييد سامي في سريره. الحاجة نيَّرة صدرها يعلو ويهبط مع تنفس ثقيل نوعًا. لا بد أن الانفعال كاد يقتلها، وهى تري ابنها تصدر منه كل هذه الأفعال الشيطانية، وكأنه ليس هو. أخيرًا فتحت عينيها. تمتمت بصوت جاف ضعيف:

"سامي، أين هو؟".

كان سيد عمليًا كديدنه. قام بحملها لحجرتها المقابلة لحجرة سامي، ووضعها على فراشها برفق. قال لزوجته بلهجة آمرة:

"اعتني بها".

أومأت زوجته برأسها. بينما قال سيد لنديم وسارة:

"فلنهبط للطابق السفلي من فضلكما".

وألقى نظرة على أخيه المقيد.

كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء.. ثمة سكون ما.

فور أن صار الثلاثة في الصالة.. هنا خلع سيد القناع الهادىء الصارم المتحكم في الأمور الذي يضعه على وجهه، وأظهر وجهًا آخر، وهو ينقضَّ على نديم، ويُلصقه بالجدار قائلًا في صوت منخفض، لكنه يموج بالعصبية والغضب:

"ما الذي فعلته بأخي أيها اللعين؟".

قال نديم بذعر متوتر:

"هل أنت مجنون؟ اتركني".

"أنت نحس! لم يحدث كل هذا إلا عندما دسستَ أنفك الضخم في كل هذا".

تحسس نديم أنفه بتلقائية:

"أنفي الضخم؟ هل أنفي....".

صرخ سيد:

“اخرس! لقد فقدتُ أخي سامي، وها أنا ذا على وشك فقد أمي بسببك. هل تعرف: لو حدث سوءٌ لأيهما؛ فلن يكفيني أن أجتزَّ عنقك”.

كانت سارة تراقب كل هذا بقلب واجف. هل تتدخل؟ لكن ماذا تقول؟ إن لديها ما يكفيها بالفعل من مشاكل لو سمعها سيد لُجنَّ حرفيًا.

“هل أنت فعلًا تعالج مرضاك بالحكايات؟ أخبرني”.

سيد يسأل بعصبية من جديد، وهويُحكم كلتا قبضتيه حول عنق نديم.

“اترك رقبتي. أنا أختنق”.

“أخبرني”.

“لا. هل استرحت؟”.

خرجت الجملة من فم نديم مدوية كطلقة رصاصة. يبدو أن هذا الجواب كان مريحا لسيد الذي جلس، وهو يسند رأسه على قبضة يده المتعبة:

“لقد استعنا بنصَّاب إذن. نصَّاب لا يختلف كثيرًا عمن سبقوه”.

قال نديم وهو يدلك رقبته:

“لديك مشكلة كبيرة مع الغضب يا حاج سيد. في يوم ستقتل أحدًا بغضبك هذا”.

“من المؤسف ألا يكون أنت. والآن غادر منزلي قبل أن أُفجّر رأسك”.

أسرع نديم نحو الباب مهرولا، لكت صوت نيّرة الصارم أتاه صارخًا:

“قف في مكانك”.

رفعت سارة رأسها لمصدر الصوت؛ فإذا هي الحاجة نيِّرة، وهي تخطو ببطء بمساعدة زوجة ابنها. التفت إليها سيد:

“ماذا يعني هذا يا أماه؟ دعيه يذهب في ستين...”.

قاطعته:

“لن يذهب قبل أن يُعالج ولدي”.

“إنه نصَّاب يا أمي. نصَّاب. لقد اعترف بهذا”.

“قلتُ لن يترك هذا المنزل حتى يعالج ابني”.

“هذا اقتراح سيء يا أمي”.

"ليس اقتراحًا يا سيد. إنه أمر. أم أنك نسيتَ من هو الآمر الناهي هنا؟".

ورفعت أحد عكازيها ووكزته برفق في جانب بطنه:

"هل نسيت؟".

قال بضيق:

"لا، لم أنس يا أمي".

"اعتذر للرجل؛ فقد أهنته. منذ متى نقابل الناس هكذا في فيلا عزت شعبان؟".

نظر سيد إلى نديم:

"أعتذر لك مما بدر مني يا أستاذ نديم. ما فعلته كان بدافع الخوف ليس إلا".

قالت الحاجة نيِّرة، موجهة كلامها إلى نديم:

"اجلس من فضلك".

تردد نديم. بلهجة أشبه بالتضرُّع- وهو ما لم يعجب سيد- قالت الحاجة نيِّرة:

"أرجوك يا ولدي".

كانت سارة ترقب ما يحدث بصمت. كانت تريد معرفة حدود نديم هذا، وما يقدر على فعله بالضبط. لكنها الآن لا ترى شيئًا مميزًا.

لقد نجح صبري أبو النور أن يزرع في ذهنها بذرة شك بخصوصه، بذرة لا تقدر على سحقها في مهدها وإكمال حياتها التي تحبها فعلا وتريد إكمالها. عاد نديم وجلس. سيد أيضًا جلس وهو يزفر بضيق. الحاجة نيِّرة جلست بالقرب من نديم وقالت:

"أرجوك افعل شيئًا. لقد خسرتُ والده من قبل، ولا أريد أن أخسره هو أيضًا".

وأشارتْ إلى لوحة عملاقة معلقة على الجدار، لرجل ضخم أسمر، مهيب:

"هذا هو زوجي عزت. أُخذت له هذه الصورة عندما كان في الخامسة والستين، وكان في أوج شبابه وقوته. لكنه بعدها بسنوات قلائل أصابه المرض وأقعده، لدرجة أنه فقد أكثر من خمسة وعشرين كيلو في أقل من عام، حتى صار أشبه بطائر هزيل في فراشه، وبعد أن كان ملء السمع والبصر، صار بلا حول ولا قوة، حتى أنه كان يتكلم بالكاد. ثم رأيناه ذات يوم ميتًا، وهو يُحدق في السقف. لقد تغيّر سامي من بعدها. يبدو أنه كان يحب والده جدًا، وبرغم اختلافهما الجوهري، واتهام زكي له بأنه ابن عاق وفاشل، إلا إن رحيل زكي أثَّر عليه بشدة".

كانت لهجة نديم تمتليء بالحرج:

"لماذا تظنين أنني قادر على مساعدته يا حاجة؟ ما يعاني منه ابنك فوق قدرتي أصلا على الفهم".

قالت بسرعة:

"الموضوع بسيط. لقد مسَّه جن".

"هذه منطقة شائكة لا أحب الخوض فيها يا حاجة".

"لكن الجن ذُكر في القرآن".

"أنا مؤمن بوجود الجنّ. لكن مسائل المسّ وما يتعلق بها من تفصيلات أتحرج أن أتدخل فيها".

"لماذا؟".

كان سيد هو من يسأل هذه المرة. في محاولة منه لكسر الحاجز الذي تسبب فيه منذ قليل، عندما ألصق نديم بالجدار، وهدده بقطع رقبته.

قال نديم موضحًا:

"البشر يميلون للمبالغة؛ لإضافة العديد من الرتوش حول ما يحدث، وما كان قصة بسيطة عادية تتحول لشي خارق معقد له طبقات متعددة".

توقف نديم عن الكلام. سألته نيّرة:

"مالك يا بني؟"

ابتسم وبدت الحيرة على وجهه:

"هل هي ظاهرة ديجافو؟ أشعر أني سمعتُ هذا الكلام من قبل".

هنا وجدت سارة أن الوقت قد حان لأن تتدخل. قالت:

"ربما هو من عالم آخر".

كان نديم يهمّ بقول شيء ما. لكن نيّرة سبقته:

"كل هذا أتي من تلك السفرة المشئومة ".

قال سيد معترضًا:

"لا يا أمي. بل من قبل هذا بكثير، من قبل وفاة أبي. ألا تتذكرين شرود سامي وهو يتناول طعامه أو وهو يتحرك هنا وهناك دون أن يلقى الدعابات كعادته؟ وبعد

وفاة أبي زاد الأمر سوءًا. لكن عندما عاد تلك المرة من القرية صار حاله هكذا".

سأل نديم:

"أين ذهب؟".

"لقد سافر للصعيد. لقد ذهب مع بعض أصدقاءه إلى هناك. إنها قرية أبيه، وفيها دُفِن".

"هل لديكِ أسماءهم يا حاجة؟".

فردتْ يديها بقلة حيلة:

"لا".

قال سيد:

"أعتقد أن أخته سعاد تعرف أسماءهم".

نظر سيد حوله، ثم في ساعته:

"أين هي؟ ألم أحذرها من التأخر بالخارج؟".

دخلت سعاد في تلك اللحظة:

"أنا هنا يا حاج. ماذا أفعل في الزحام؟"

قالت أمها:

"تستحقين ما أنتِ فيه. عرضتُ عليكِ شراء سيارة جديدة لكِ، لكنكِ" وجه فقر"، ولا أعرف لمن صرِت هكذا".

"حتى لو كانت معي سيارة؛ فنفس النتيجة".

ثم نظرت سعاد إلى سارة بنظرة معتذرة وهي تومىء برأسها. اكتفتْ سارة بابتسامة خفيفة معناها" لا بأس". حولت سعاد بصرها إلى نديم؛ فقال سيد بسرعة:

"الأستاذ نديم شوكت".

قالت بتلقائية:

"النصَّاب!".

احمَّرَّ وجه نديم، وهو يقول بحرج:

"لا يعرف المرء ماذا يفعل مع الشهرة التي أصابته".

طقطقت الحاجة نيرة من بين شفتيها محذرة:

"سعاد".

رفعت سعاد يديها:

"ماذا أفعل؟ إنه معروف بذلك الوصف كما تمتلىء صفحات الإنترنت. لا أعرف كيف يصدّق أحمق أنه يعالج المرضى بالحكايات!".

قال سيد مؤيدًا:

"هذا رأيي أيضًا".

أما سارة فقد التزمتْ الصمت. العيون مسلّطة على نديم. تنحنح ثم قال:

"أنا رجل عاطل عن العمل، وأكبر مشاكلي تكمن في دفع إيجار المنزل ناهيكم عن بقية مصاريف الشهر. ذات مرة كنت عند صديق لي. له ابن مكتئب، وملازم للفراش. جربت أن أحكى له قصة مشوقة، أبعث فيه الأمل، في اليوم التالي أخبرني صديقي بأن ابنه على ما يرام. قال لي بأنى من المفترض أن تكون هذه مهتني. وهذا ما فعلته. عدة حالات بسيطة، وبفضل التسويق الذكي على الإنترنت اشتهر أمري. طبعا هناك حالات لم أنجح فيها، وكنت حجتي هنالك أن ليس كل مريض ينجح معه الأمر. هناك من تكون حالته معقدة أو متداخلة مع مرض ما. ونجحتُ في تمرير هذه الفكرة لبعض المتابعين. لكن البعض الآخر جلدوني بسهامهم واتهموني بأني نصَّاب".

قالت سعاد بسرعة:

"وهو ما أميل إليه في الحقيقة. أقول هذا، وأنا مدمنة كتب، وأعرف قيمة الحكاية. لكن لكل شيء حدود".

قال نديم:

"من المفترض ألا أقول هذا الكلام، لكن ما رأيته مع ابنكم سامي أرعبني، وكأننى كنتُ على أرض صلبة من الواقع، وفجأة حدث شيء خلخلها من تحتي".

كانت تفهم سارة ما يعنيه.

سأل سيد سعاد:

"أين ذهب أخيكِ عندما كان بالصعيد؟".

قالت ببساطة:

"لقد صعد جبل القرية هناك.. كانت هذه هي رغبته التي أخبرني بها، قبل أن يذهب مع أصدقاءه".

قالت سارة وقد جذبها الأمر:

"هل صعد بمفرده أو بصحبة أحد؟".

قال نديم:

"وفي أي شيء سيفرق هذا السؤال يا أستاذة؟".

قالت بسرعة:

"سارة. اسمي سارة نعمان".

تجعَّد جبينه قليلا، وكأن الاسم يذكره بشيء ما. ابتلعتْ ريقها. هل يمكن أن يكون الأمر حقيقة؟ في محاولة منها للسيطرة على انفعالاتها؛ أجابته:

"لو صعد مع أصدقاءه الجبل بالفعل؛ فسنعرف مع منْ، وما الذي رأوه هناك بالضبط. لو صعد لوحده؛ فيمكن لأصدقاءه أن يخبرونا: هل كانت حالته متغيرة بعد أن نزل. لو صحّ هذا؛ فمعناه أن كل شيء بدأ هناك. في ذلك الجبل".

قالت سعاد:

"كلام معقول. سأتصل بأصدقاءه، وأعرف منهم حقيقة الأمر، ثم سأطمئن على سامي. لقد أوحشني ذلك الوغد الصغير".

ابتسمت الحاجة نيِّرة. أما سيد فقد بدا في لُجَّة من التفكير العميق. قالت سارة لنديم:

"هل تسمح يا أستاذ نديم بكلمة بالخارج؟".

قال نديم بتشكك:

"ولمَ؟".

قالت بإصرار:

"من فضلك".

"ألم تريني أحاول الخروج، لكنى ممنوع من ذلك".

قالت نيِّرة:

"لو أعطيتني كلمتك أنك ستتولي حالة سامي وتبذل فيها كل جهدك؛ فلك مطلق الحرية في الدخول والخروج".

"وما الذي يجعلكِ واثقة بأني سألتزم بكلمتي؟ ولماذا تتمسكين بي أصلًا بعد أن عرفتِ حقيقتي؟".

ابتسمتْ:

"لدي نظرة لا تخيب فيمن أقابلهم. أنت تقول بأنك نصّاب، لكنى لا أرى أمامى هذا".

رمقها بصمت، ثم أسرع نحو الباب مهرولا، وكأنه كان ينتظر هذا الإذن. هرولت خلفه سارة في الخارج كان النسيم عليلا. نظر إليها أثناء سيره وهي تلاحقه، وقال بعصبية:

"ماذا تريدين؟"

"أنا...أنا سارة.. هل تعرفني؟".

حدق فيها، كمن يحدق في مجنونة. أشار لصدره:

"تسألينيني أنا؟ هل أنتِ معتوهة؟".

"احترم نفسك".

واصل سيره:

"ماذا تريدين مني يا أستاذة سارة؟".

" هل اسمي يذكرك بشيء؟".

"وهل من المفترض أن يفعل ذلك؟".

"من نفسي، وممن حولي، ومن هذا المجنون صبري أبو النور".

توقف فجأة. قال لها ببطء:

"صبري أبو النور".

انتعش الأمل في قلبها.

"هل تعرفه؟".

"إممم.. لا أظن. للحظة ظننتُ أني أعرفه، وربما أكون قابلته من قبل، لكن لا. لا أعرفه".

قالت فيما يشبه الرجاء:

"لكنه مصمم أنه يعرفك. يقول بأن كل شيء متعلق بك، وأن حياتك تتقاطع معي بشكل ما".

"حسنا، إنه مجنون آخر. لقد كثُر عدد المجانين في هذا العالم".

وضحك:

"وكأن روحا شريرة عابثة تلعب بعقول الجميع!".

"تري؛ هذا ما قاله".

"هذا المجنون أبو النور؟".

"نعم، قال أن هذا العالم ليس كما يبدو عليه، وأنه مُلَفَّق".

توقف ونظر إليها بتشكك:

" مُلَفَّق؟".

"يقول بأن هناك من يعبث فيه، ويعيد تشكيل أحداثه".

"أأنتِ واثقة من أن هذا المجنون لا يعبث بعقلك أنتِ؟".

تنهدت:

"أعلم أن الأمر عسير على التصديق. أنا نفسي لا أصدقه. لكن...".

تلجلجتْ في الكلام، وكأنها تبحث عن كلمات مناسبة لتصف ما تشعر به. للأسف لم تجد. كانت حائرة، والبؤس يرسم على وجهها علاماته البارزة. كان هناك سور قصير يمتد بطول الشارع، يحيط بالفيلا بشكل كامل. جلست عليه وهى تطرق برأسها للأرض. جلس بالقرب منها إلى حدٍ ما، وقال:

"لو سلمتكِ عقلي لكِ، وأقررتُ بما تقولين. ماذا كنتُ تفعلين في ذلك العالم الذي أتيتِ منه؟".

نظرت إليه بنظرة شرسة غريبة. قال بسرعة، وكأنه استدرك خطأه:

"فليكن. العالم الذي أتينا منه. ماذا كنتُ أفعل هناك مثلًا؟".

قالت بسرعة:

"بحسب ما قاله لي صبري أبو النور؛ فأنت تُعالج الناس بالحكايات هناك".

"هذه أكذوبة يا آنسة. شيء أضحك به على الناس. أم هل صدقتِ هذا؟".

قالها بحدة، وكأنها أهانته. تراجعت بخوف. بدا أن تصرفها هذا قد أزعجه، وكأنه لا يصدق أنه تصرف بفظاظة معها. شبك يديه وقال:

"أعرف أن البشر مُصابون بالوهم. لابن عطاء الله السكندري جملة معبرة جدًا، عندما يقول" ما قادك شيء مثل الوهم". حياتنا عبارة عن سلسلة منسوجة من الوهم والضلالات، وطبقات كثيفة زائفة من المشاعر. والمرضى ليسوا استثناءً من هذه القاعدة، عندما تجدي شخصًا يصدق أنه مريض، وعلى شفا الموت، وعندما يرى من يبعث فيه الإيجابية؛ يبدأ في التحسن".

قالت:

"أعرف ما تتحدث عنه. تأثير البلاسيبو أو الوهم".

"هو ذاك، وهذا ما أفعله. أُعطي للناس ما يحتاجونه، وآخذ منهم ما أحتاجه. علاقة منفعة متبادلة، ومتكافئة. فهل أخطأتُ في هذا؟".

قالت:

"أنت تجد لنفسك المبرر ليس إلا".

"وليكن. هذا لا ينفى أن ما أقوله صحيح".

"وماذا لو يُجدِ وهمك هذا مع أحدهم؟".

"لا آخذ منه نقودًا".

أخرجتْ من فمها صفيرا:

"واو! نصَّاب ذو معايير أخلاقية عالية".

قال بغيظ:

"لستُ أقبل أن تنتقدني فتاة لم أقابلها إلا منذ ساعة".

هزت رأسها:

"المفترض أننا نعرف بعض جيدًا من العالم الذي أتينا منه. أبو النور هذا أخبرني أنك عالجتنى من مصيبة ألمَّت بي".

ضحك:

"يا للمفارقة!".

ثم استدار إليها:

"هل تثقين بأبي النور هذا؟".

"وما الذي يدعوه للكذب عليَّ؟".

"وما يدعوه ليصدقكِ القول؟".

مدت يدها لحقيبتها، وأخرجت المفكرة التي أعطاها لها صبري، وناولتها إلى نديم، وقالت:

"ربما تجيب هذه المفكرة على الكثير من تساؤلاتك، وتبدد العديد من شكوكك".

أخذ منها المفكرة بتردد، وفتحها وألى نظرة على عنوانها المدوّن في أول صفحة. فجأة دوَّتْ تلك الصرخة القادمة من الفيلا. هرع نديم وسارة لمعرفة جليَّة الأمر. كانت الصالة بالطابق الأرضى خالية. الصرخة أتت مجددًا من أعلى. راح الاثنان يقفزان على الدرج، حتى وصلا لحجرة سامي، من حيث أتى الصراخ.

كان الجميع موجودًا؛ سيد وزوجته وأمه نيّرة وأخته سعاد، الكل عدا صاحب الحجرة نفسها.

سألهم نديم:

"ما الذي حدث؟".

كانت سعاد تضع يدها على عنقها، حيث ينبثق الدم، وتحاول كتمه بمنديل:

"لقد دخلتُ حجرته، ووجدته يئن، وهو يطلب مني أن أفكُّ عنه حبال الستائر. أشفقتُ عليه، وفجأة صارت عيناه بيضاوين، وأمسكني من رأسي وعضني في عنقي. تخيل. هذا الحيوان الصغير عضَّني في عنقي!".

كانت سعاد ثائرة، وسيد يتصل عبر هاتفه النقال لطلب طبيب، والحاجة نيِّرة تبحث ببصرها الكليل حولها:

"أين ذهب ولدي؟ أين ذهب؟".

بدا أن لهجة سعاد يملؤها بالغيظ:

"هكذا أنتِ دومًا يا أمي. يحوز أخي الأصغر على كل الدلال والاهتمام. أنا ابنتكِ تموت بين يديكِ بسبب ابنك الوغد، وتبحثين عنه دون أن تسألى عني".

تابعتْ سارة الموقف باهتمام. بدا لها أنه يدُّقُ ناقوسًا ما في أعماقها، ربما يزيح التراب ببطء عن ذكرى مطمورة بداخلها، لعله يشبه شيئًا مماثلًا حصل لها من قبل. هل هي ظاهرة الديجافو مجددًا؟

وفجأة ساد الظلام!

انطفأتْ المصابيح جميعها، وغرقت الفيلا في محيط من العتمة، حتى الحديقة بدتْ من الخارج وهي مظلمة، لولا قرص القمر الأبيض في الأفق. هرع سيد للخارج، وقد بدا أنه أكثر إيجابية من الجميع، أما نديم فقد قال بتوتر:

"إنه هنا".

همستْ سارة:

" سامي؟".

أومأ برأسه. بالكاد لمحت إيماءته من ضوء القمر المناسب عبر النوافذ المفتوحة. هتف نديم:

"فليأخذ الجميع حذره. نحن نتعامل مع شيء لا نعرف كنهه".

أتي صوت سيد الغاضب:

"إنه أخي الذي تتكلم عنه أيها الدجَّال".

قال نديم بغيظ:

"أخوك الذي كنت ستفجّر رأسه ببندقيتك".

لوهلة شعرت سارة بأن سيد أُخذَ بهذه الإجابة. هذا ما يفسر صمته الطويل لنصف دقيقة، قبل أن يقول:

"لوهلة بدا لي أنه ليس أخي، وأنه مجرد شيء آخر. أؤكد لك أن أخي لو أصابه سوء من أحدهم؛ فسوف أقوم بتفجير رأس هذا الـ"أحدهم" أيًا كان، حتى لو كان هذا سيتسبب موته في نهاية العالم".

هزت سارة رأسها معجبة. الكلمات توحي بصدقها، لكنها تعلم أيضًا أن من يجلس على الشاطيء عوَّام، وأن الكل يدعي البطولة ما دام آمنًا.

هنا بدأ النور ينتشر ببطء وعلى استحياء، بفضل الشموع التي راحت زوجة سيد والخادمة بإشعالها واحدة تلو الأخرى.

الحق أن هذا أشاع نوعًا من الطمأنينة في الجوَّ الملآن بالتوتر حتى الثمالة.

نُقلِتْ سعاد إلى حجرتها، وبدا أن حالتها تسوء. بشرتها البيضاء الصافية غدت شاحبة، وحرارتها ارتفعتْ وهي تُصدر أصواتًا مدغمة غير مفهومة، وتهزُّ رأسها بقوة، وكأنها تقاتل أعداءً لا قبل لها بهم. قالت سارة وهي ترقبها بإشفاق:

"إنها ترى أحلامًا".

ألقى نديم نظرة على سعاد:

"بل قولي كوابيس".

"ماذا تظن قد حدث لها عندما عضّها أخوها. مجرد نطق هذه الجملة يشعرني بالغرابة".

قال لها بصوت منخفض:

"كله بدأ من رحلة أخيها هذا. ثمة شيء ما التقطه أو أكله أو أخذه حوَّله لذلك الشيء الذي لا نعرفه".

تأملت سارة الحاجة نيِّرة وهي تستند على عصاها، وعيناها لا تفارقان سعاد النائمة، ثم حولت بصرها إلى سيد الذي يتصل بهاتفه بعصبية، ومع ذلك لا تبدر كلمة منه مفهومة. مقدرة مثيرة للإعجاب فعلا. وقالت:

"ويبدو أنه لا أحد منهم يعرفه".

فجأة، دوَّتْ مجددًا في المكان صرخة أنثوية، قادمة من المطبخ. هبَّ سيد من مقعده ناحية الصوت وخلفه الجميع، وحالما دخلوا المطبخ وقف الجميع مذهولا أمام الخادمة، والتي كانت راقدة على الأرض فاقدةً لوعيها، والدم يسيل من ثقب بعنقها، بينما الدم يسيل بغزارة على الأرض، بينما يحلِّق صمت شرير بأجنحته فوق المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان نديم يسير بجوارها، وهي تتكلم في الهاتف بعصبية:

"لا تقلقي يا أمي. أنا في طريقي إليك".

وأنهتْ المكالمة. قال نديم:

"محظوظةٌ أنتِ لوجود عائلتك".

أومأت برأسها.

"والآن ماذا سنفعل يا أستاذ نديم؟".

"فلنرتب أفكارنا. واضح أن شيئًا قد أصاب سامي بالجنون. عدوى من شيء معين، أو أي شيء آخر قد يفسر هذا التغيير الرهيب الذي اعتراه. واضح أن ما حدث كانت بدايته في ذلك الجبل الذي صعده في رحلته الأخيرة، وواضح أن هذا

الشيء الذي جعله يتغير عقليًا وجسديًا بدأ ببطء، والآن هو في ذروته، بما أنه قد هاجم الخادمة، وواضح أنه ما زال حتى الآن في محيط الفيلا".

"بسبب قتله للخادمة، وبسبب وجود حُرَّاس على الفيلا من الخارج؟".

أومأ برأسه:

"لا أعتقد أنه سيفلت من حصار كهذا".

"وماذا نفعل لو قبضنا عليه؟"

فرد كفيه:

"يحتاج لعلاج جذري. لكن العلاج يستدعي تشخيص المرض، وهو ما لا يتوفر له هنا".

بدا أنها تفكر في شيء ما. شيء جعله يسألها:

"ماذا؟".

رفعت رأسها إليه:

" موضوع أن تنقلب عيناه للبياض؛ ألا يذكرك هذا بشيء ما؟ سيره على الجدران وزحفه على السقف ألا يذكرك بشيء ما أيضًا؟ ما حدث لشقيقته سعاد عندما عضها ألا يذكرك بشيء ما آخر؟".

قال مفكرًا:

"تقصدين أفلام الزومبي؟".

أومأت برأسها.

"طبيعي أن تظن الحاجة نيّرة أن ثمة مسًا شيطانيًا قد أصابه. لكنه في الواقع يشبه ما يحدث لمصاصي الدماء".

" أتقصدين أن ما يحدث مشابه لهذه الأفلام بشكل مريب، وكأن شخصًا يفتقر للخيال؛ فيستعين بالأفلام؟".

"طاف هذا بذهني. لكني أُضيف عليه كلام صبري أبو النور، عن الأخوات الثلاث. لماذا لا يكُنَّ السبب في تغيير الواقع؟".

"بمعني؟".

"بمعني أنهن قادرات على تغيير الواقع بنشر مصاصي الدماء، أو من يشبونهم".

كاد نديم يقول شيئًا آخر لكنه توقف. ثم قال وهو يهزُّ رأسه:

"أنتِ تفترضين الأسوأ، أعتقد أن سامي وسعاد والخادمة في سبيلهم للتحسن".

"لا بد أنهم سيُجرى لهم فحص دقيق بالمستشفى الذي نُقلوا إليه. أرجو أن يكنوا بخير".

ثم التفتتْ إلى نديم وقالت بلهجة صريحة:

"أنت تهرب من الحقيقة يا أستاذ نديم".

أخرج المفكرة وأعادها لها، وهو يقول بضجر:

"حتى لو كنتُ فاشلًا في هذا العالم؛ فأنا أرغب في المكوث فيه. أتمنى لكِ ليلة سعيدة يا أستاذة".

وتركها، وهي تكاد تنفجر من الغيظ. طلبتْ أوبر، وتوجهت للبيت، وقد قررت أن تنسى صبري أبو النور ومفكرته، ونديم شوكت وعائلة الحاجة نيِّرة، وكل الذكريات المتشظّية القادمة من عالمٍ المفترض أنه كان موجودًا.

قررت أن تنسى، وأن تُسعِدْ نفسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصالة كان الجميع ينتظرها. أما هي فقد كانت تحمل صينية المشروبات، وتخفض بصرها أرضًا؛ مما يبدو أنه خجل، لكنها في الحقيقة كانت غارقة في لُجَّةٍ من الأفكار السوداء.

لو أُتيح للجميع أن يطلعوا على ما في عقلها- وخاصة محسن هذا- لولوا منها الفرار، ولامتلأوا منها رعبًا؛ مما رأته في فيلا الحاجة نيّرة. كانت قد مضتْ أيام على الهول الذي رأته في الفيلا، ظلت فيها في حجرتها دون أن تغادرها، ومع قلق أبويها عليها لم تجسر بالتكلم عما حدث.

العجيب أنها اقتربت جدًا من محسن في تلك الفترة القصيرة، بدأت تسمعه، وبدأت تميل إليه، وبدت لها فكرة الارتباط به ليست بالغة السوء إلى هذه الدرجة؛ لذا أخبرته أنها موافقة على مقابلته من حيث المبدأ، وكاد المسكين يُجن! تخيلتت أنه في تلك اللحظة كان يقفز كالقرود!

وها هو ذا قد أتي بمفرده؛ لانه مقطوع من شجرة كما يقول التعبير العامي الموفق جدًا. حتى وهي تسلم عليه، وهو يبتسم لرؤيتها(يبدو أنه يحبها فعلا) كانت تستعيد تفاصيل الليلة المشئومة في فيلا نيِّرة بنوع من التشكك؛ متساءلة إن كان هذا قد حدث فعلًا أم لا.

كانت زوجة جبريل بالخارج تأتي ببعض الأشياء من سوبر ماركت ضخمًا ذي طابقين، بينما جبريل يتبادل حديثا جانبيًا يبدو مهمًا مع أبيه، بينما صوت الأم يأتي من المطبخ وهي تقوم بإعداد شيء ما، وسارة الصغيرة أمام التليفزيون تشاهد فيلم كارتون، وعينا محسن كانتا هناك ترقبانها.

طبعًا هي لم تكن ابنة الأمس، إذ أنها كانت تعرف أن كل شيء معد بعناية حتى يتاح لهما التحدث بحرية. الحقيقة أنها لا تعرف ما الذي قاله محسن لعائلتها حتى يتحمسوا له.

الحق أنها تحبه، فعلا تحبه، وهي مندهشة من هذا. أحد التفسيرات الغرائبية للحب أن البشر يتقابلون في أزمنة سابقة، لكنهم ينسون، ثم يعيدون الكرَّة من جديد.

بدت لها فكرة رومانسية تليق بالروايات العاطفية، وهي تضع الصينية وتجلس. تعترف-بينها وبين نفسها - أن ثمة شيئا ما يقف حاجزا بينها وبينه، لكنها لا تعرف ما هو.

"لماذا وافقتِ عليَّ؟".

سألها وهو يبتسم. وجدت نفسها تجيب بسرعة وشراسة مع نبرة منخفضة، حتى لا يأخذ الجميع بالهم منها:

"لم أوافق بعد".

"ولم ترفضي".

تراجعتْ في جلستها. على الأقل هو محق في ذلك.

"يمكنك القول بأني واجهتُ شيئًا جعلنى أدرك أن الحياة قصيرة، ولا تستأهل منا أن نفكر فيها كثيرًا".

"أشكر هذا الشيء إذن، الذي جعلكِ تعتنقين هذا الرأي".

خرجتْ من جوفها ضحكة قصيرة:

"لو علمتَ ماهية هذا الشيء؛ فستفكر ألف مرة قبل أن تشكره".

وصلت الضحكة إلى مسامع الجالسين حولها؛ فابتسموا في رضا، واعتبروها بادرة للقبول بينهما. لم تخبره بأنها في قرارة نفسها تشعر فعلا أنها تحبه. لم تكن ستندهش لو عرفت أنها في عالمها القديم كانت تحبه فعلا، على الأقل هذا يفسر منبت الحب المفاجيء، لكن من أين يأتي هذا الحاجز الذي يوجد بينها وبينه؟ الحاجز الذي ينشأ من وجوده بعض الخوف؟

لكنها تحتاج لأرض صلبة تقف عليها.

هي تعتقد أن الحب هو الأرض الصلبة التي تستحق أن تقف وتجلس وتسترخي عليها، لكن ليس الحب النزق الأهوج، بل هو الحب القادم من عُمق المسئولية والالتزام. لكن ثمة سبب آخر: هي تريد أن تشعر بالثبات والطمأنينة، وسط هذا العالم الجديد.

أخرجها من أفكارها صوت محسن:

"هل تشردين وأنا معكِ؟".

قالها في لوم. نظرت إليه بخجل:

"اعذرني".

"سأعذركِ لكن أخبريني بما يدور في عقلك".

ضحكة قصيرة أخرى، لكنها مفعمة بالحيوية تلك المرة:

"لو أخبرتكِ ستقول أني مجنونة".

"لهذه الدرجة؟".

"وأكثر".

"جربيني إذن".

ترددتْ. الحق أنها كانت ترغب في هذا، كانت ترغب في أن تُزيح هذا الجبل من فوق كاهلها. لو لم تفعل هذا مع منْ تحبه؛ فمع منْ تفعل؟ أخذتْ نفسًا عميقًا، لدرجة أن محسن نفسه توجس خيفة. ما تقوله سيكون عظيمًا إذن، وقد كان؛ فبعد أن حكت له كل شيء أصابه سهم الصمت في مقتل؛ مما جعلها تقول له مداعبة:

"هل ما زلت مصممًا على الارتباط بي؟".

حسنًا، كان في سؤالها بعض المرارة، وكأنها لم تتوقع ردة فعله هذه، أو على الأقل لم تتمنى أن تراها. لكن بعد لحظات من التفكير العميق بداخلها تقول أنه على

حق. لو كان الموضوع معكوسًا، وهو من حكى لها؛ فستتهمه بالجنون، وتطلب منه أن يُعالج عقله قبل أن يطلب يدها.

تكلم أخيرًا، وكان صوته غارقًا في بحرٍ من العصبية:

"وما حكاية الأخ نديم هذا؟".

"هل تغار؟".

"وهل في هذا مشكلة؟".

لم تجب، وإن اعترفت بينها وبين نفسها أن هذا يُسعدها.

دوَّى صوت الجرس؛ فهبَّ جبريل واقفًا:

"لا بد أنها ناهد. لقد كلمتنى على الواتساب وأخبرتني بأنها ستدخل المصعد".

توجه للباب وفتحه، وكانت ناهد هناك بالفعل. لكنها لم تكن ناهد التي اعتادوا رؤيتها. ناهد في الطبيعي تكون متأنقة، مهتمة بثيابها، تضع مساحيق التجميل بدقة متناهية. هذه الدقة- قالت سارة لنفسها هذا وهي تنظر لناهد في اضطراب- ما جعل شقيقها جبريل يقع في غرامها كما حكى لها. لكن ناهد هذه مختلفة؛ شاحبة، ثيابها شبه ممزقة، وكانت منهارة، وهي تلقي نفسها في حضن زوجها. قال جبريل فزعًا:

"ماذا حدث يا ناهد؟".

كان صوتها منهكًا مضطربًا:

"لقد رأيتُ شيئًا بشعًا، لا يمكن وصفه ولا يمكن تصديقه".

تحلَّق الجميع حولها، بعد أن جلست واستندت برأسها على كتفها زوجها، مع علبتي مناديل ورقية وضعتا بجوار ناهد التي لا تكف عن البكاء، والدموع تنهمر منها بغزارة عجيبة، مشهد دموعها هذا ذكّر سارة بشيء م من الماضي، كأنها رأته من قبل، لكن أين؟

ثم شرعتْ ناهد تحكي، وما قالته كان غريبًا للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهبتْ ناهد لشراء بعض الحاجيات من محل البقالة الضخم الذي يستقر في آخر الشارع.. أخذت المسافة مشيا كعادتها، كما تفعل المثل في منزلها. عندما دخلت السوبر ماركت فوجئت بأن الزحام ليس على أشدّه كما هي العادة، ثم انتبهتْ أن ثمة زحام على منطقة معينة.

انتابها الفضول، واقتربت من نقطة الزحام، حيث رأت أحد العاملين في المكان، بزيه الرسمي، عيناه بيضاوان مُشربتين بصفرة، وهو يزوم وينخر كالخنازير، وبين يديه جسد عملاق ميزت فيه وجه مدير المكان، الذي كان الرعب على وجهه، وحياته بين يديّ رجل من موظفيه. كان المدير معروفًا عنه قسوته الشديدة وغلظته مع مرؤوسيه، حيث كان من الطراز الذي يؤمن بمقولة" العصا لمن عصى"، والحقيقة أنه كان يستخدم هذه العصا كثيرًا جدًا، حتى استحق لقب" أكثر شخص مكروه في المنطقة".

لهذا- خطر لها- أنه يستحق الفرجة عليه، وينال عقابه على يد أحد العاملين لديه؛ بما أن الكيل قد فاض به. لكن ما الذي أصاب عينيه، بحيث صارتا بيضاوان مختلطتين بصفرة، وذلك الصوت العجيب الذي يصدر من حجرته، وكأن ثمة معركة تجري هناك؟

أحد الواقفين بجوارها أخبرها بما حدث في كلمات قصيرة مندفعة، عيناه تلتمعان من النشوة، والرغبة في رؤية المزيد. القصة باختصار: أن المدير خرج يوبخ موظفيه كعادته، وراح ينتقد هذا وذاك، ثم اقترب من ذلك الشاب الذي يبدو في أسوأ حالة ممكنة، وكعادة المدير راح يسخر منه، ثم ألقى دعابة بدت له طريفة عن الشاب، وألمح إلى شيء غير أخلاقي مُخجل، وهنا حدث شيء غير متوقع؛ إذ قفز الشاب على المدير، وهوى به أرضًا، وبرغم نحوله واستكانته وعدم رغبته في الدخول لأية مشاكل في المعتاد؛ فقد بدا لزملاءه أشبه بشخصٍ آخر، وهو يحاول أن يعضُّه في رقبته، لكن المدير قاوم بشراسة وهو يصرخ ويطلب المساعدة من الجمع المتحلق حوله..

ابتلعت ناهد ريقها بتوتر. تشعر بشيء مريب، لكنها لم تقف أمامه طويلًا. اختارتْ ما تريد شراؤه، ثم توجهت لفتاة الكاشير، والتي لم تترك عملها وتشاهد ما يشاهدونه ولو على سبيل الفضول، أو على الأقل التشفيّ. كانت هذه الأخيرة تقف مستندة إلى منضدة الكاشير نفسها، وهي شاردة.

"إحم".

نبهتها ناهد. لكنها لم تنتبه.

"إحم! إحم!".

تلك المرة انتبهت الفتاة.

"أريد كشف حساب بمشترواتي من فضلك".

رمقتها الفتاة بنظرة خاوية. ثم بطريقة آلية راحت تسجل الأسعار، وكل مرة توتر ناهد يتصاعد في أعماقها. شيءٌ ما خاطيء.

سألتها:

"لمَ أنتِ مضطربة؟".

قالت الفتاة والكلمات تخرج بالكاد من فمها؛ لتشكل جملة مفيدة:

"أتى إلى هنا شاب ضخم، وبدون مقدمات قام بعضِّي في رقبتي، ثم توجه لشاب اسمه محمود يعمل هنا منذ شهرين فحسب، وقام بعضِّه أيضًا".

"شاب؟".

"نعم، شاب طويل ضخم، ولديه ندبة في جبينه".

لم تكد تتفوه بها، وكأن على ذكر العفريت يخرج من مخبأه؛ فقد خرج شاب يحمل نفس الصفات السابقة، وانقضَّ على فتاة الكاشير؛ انقضَّ عليها حرفيًا وهو يعضها في رقبتها، ثم تركها أرضًا واستدار إلى ناهد.

تجمدت في مكانها من الخوف، ثم عندما شعرت باقترابه منها على بعد متر وأنفاسه الكريهة تصدر من جوفه؛ وجدت نفسها تتغلب على خوفها وتهرول، كأنها أعطت أوامر لأعضاءها بالحركة؛ فأطاعتْ الأمر.

طبعا كان هناك صراخ وعويل وفي لحظة ما فقدت إحساسها بالزمن؛ إذ قفز عليها الشاب ومزَّق جزءًا من ثيابها بأسنانه، وهنا هوى أحدهم بأنبوبة الحريق على رأس الشاب، في نفس اللحظة التي أتت فيها الشرطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقفتْ ناهد وبدا أنها قد انتهت من حكايتها فعلًا، وهي تلهث، وكأنها تستعيد ما حدث مجددًا من خلال حكيه، ويبدو أن جرعة الانفعال كانت هائلة؛ فقد انفجرتْ في البكاء. احتواها زوجها في صدره. سارة تشعر هنا بشيء مريب. اقتربت من ناهد وقالت:

"ناهد، تقولين أنه شاب ضخم طويل يملك ندبة في جبينه؟".

أومأت برأسها. يبدو أن الألم الخانق يؤثر عليها أكثر بمرور الوقت.

قال أبوها:

"خذها لحجرتك القديمة يا جبريل، وسأتصل بالطبيب".

حملها جبريل وتوجه لحجرته بالفعل. تفكير عميق ظهر على وجه سارة. اقترب منها محسن:

"من هذا الشاب الطويل الضخم ذو الندبة؟ هل قابلته من قبل؟".

أومأت برأسها بشرود. قال بدهشة:

"أين؟"

قالت بشرود أكثر:

"عندما كنتُ في فيلا نيّرة. لقد أخبرتك. هل نسيت؟".

"آه، عندما كنتِ مع الأخ نديم النصَّاب".

قالت بضيق:

"مرة أخرى؟".

انتفض جسدها على صوت جرس الباب المدوِّي، وكان جبريل هو من فتح الباب، ثم دخل عليهما وقال:

"هناك شخص يدعى نديم شوكت يريد رؤيتك يا سارة".

فغرت سارة فاها من الدهشة، ثم هرعت لاستقباله. ظهرت الغيرة على وجه محسن، الذي لحق بها إلى الصالون. لم يكن نديم جالسًا، بل كان يدور حول نفسه، وهو يحكُّ ذقنه في توتر شديد. ما أن رآها، حتى قال بعصبية:

"هل عرفتِ ما حدث لعائلة الحاجة نيِّرة؟".

"كيف عرفتَ عنواني؟".

لوح بيده اليمنى:

"كان مكتوبًا في أول المفكرة التي أعطيتنى إياها. دعك من هذا. لقد أصيبت نيّرة وسعاد وطاقم الحرس والنظافة والمطبخ بعدوى غامضة. الوحيد الذي نجا هو سيد، وهو يلازمهم في المستشفى القريب من هنا. أما سامي فقد هرب...".

قاطعته بسرعة:

"لقد كان في سوبر ماركت قريبًا من هنا".

قال بتوتر:

"إنها عدوى تنتقل عن طريق العضّ في الرقبة".

ظهر الأب وقال بغلظة:

"من هذا الذي يصرخ؟".

قال نديم بحرج، وهو يُخفض من نبرة صوته:

"معذرة يا عمي؛ فأنا..".

قالت سارة بسرعة:

"لو سمحت يا أبي، أريدك أن تجلس. أريد أن أحكى لكم حكاية غريبة، وأرجو أن تصدقوني".

اجتمع الجميع، حتى ناهد برغم تعبها، وشرعتْ سارة في قصَّ كا ما تتذكره عليهم. كل شيء ما عدا آخر ذكري متعلقة بمحسن.

بعد أن انتهتْ قال:

"هذا كل ما لديِّ".

قال جبريل:

"قصة غريبة فعلا".

قالت أم سارة بذعر، وهي تنظر إلى ناهد الجالسة بجوارها:

"وأنا أُصدِّقك في كل كلمة يا بنيتي".

كانت على شفتيِّ ناهد ابتسامة شيطانية مخيفة، بينما عيناها صارتا بيضاوين مشربتين بصفرة. وقبل أن تنطق سارة بكلمة، أو يتخذ أحد الجالسين ردة فعل؛ انقضتْ ناهد على سارة، وأنشبتْ أسنانها في عنقها. كانت سارة تقول لنفسها في تلك اللحظ: هذا لا يحدث لي، هذا لا يحدث لي. راحتْ هذه الجملة تدويّ في ممرات ذهنها، ثم أطبق الظلام عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن

عندما استيقظت سارة وجدت نفسها في المستشفى، وكان نديم جالسٌ أمامها، ورأسه متدلية على مسند المقعد، وهو يطلق شخيّرا خفيفًا. شعرتْ بأنها مشوشة، تائهة، ولوهلة خطر لها بأنها كانت في هذا الموقف من قبل. ربما في حياتها السابقة. قالت بصوت مبحوح:

"نديم! نديم! استيقظ يا رجل!".

استجاب لها بعد عدة نداءات. فرك عينيه:

"هل أنتِ بخير؟".

قالت بوهن:

"ما الذي حدث لأبوي وجبريل وعائلته؟ هل هم بخير؟ ومحسن؟ وما الذي حدث لي؟".

قال وهو يلوح بيده:

"مهلا. اهدئي. لا تبذلي جهدًا. سأقول لكِ كل شيء. بداية يبدو أنكِ محصنة".

"لماذ تقول هذا؟".

هزّ رأسه متعجبًا:

"على الرغم من أن زوجة أخيكِ المصابة بالعدوى قد عضتكِ؛ لكن العدوى لسببٍ غامضٍ لم تنتقل إليكِ".

"ربما لأني لستُ من هذا العالم".

نفخ بضيق:

"هل سنعود لهذه السيرة السخيفة مرة أخرى؟".

"ما الذي حدث لعائلتي؟".

قال بضيق:

"لقد أصيبوا جميعًا بالعدوى".

لو كانت قواها مكتملة؛ لكان رد الفعل الذي ستفعله هو أن تقفز من فراشها بذعر. لكن بما أنها ضعيفة؛ فقد اكتفت عيناها بأن تتسعان بذعر، وهي تقول بقلب مرتجف:

"أخبرني، كيف حدث هذا؟".

"لقد أصاب ناهد الهياج والجنون، وراحت تعضُّ هذا وذاك، وقد أفلتُّ منها بأعجوبة، قبل أن أتصل بالمستشفى القريب".

الحقيقة أن الوضع صار مرعبًا؛ فقد أصيبتْ ناهد بالعدوى، ونقلت العدوى إلى جبريل نفسه، ثم إلى أبيه وأمه، ثم محسن، وأخيرًا سارة الصغيرة البريئة.

كانت هناك حالة طوارىء في المحافظة، ثم بقية المحافظات، ووزارة الصحة تستدعي كل الأطباء من عطلهم، والمستشفيات تكتظّ بالمرضى الذين يصدرون صوت نخير عجيب، وتتحول أعينهم للبياض المشرب بصفرة.

ولا أحد يعرف كيف يحدث الأمر، أو ماهيته.

اثنان فقط يعرفان: سارة ونديم.

"يمكنكِ أن تضيفي سيد للقائمة".

" ابن نيِّرة؟".

قال نديم وهو يهزُّ رأسه:

"إنه هنا في المستشفى يراقب حالة عائلته عن قُرب. لقد قابلته بالممر، وأخبرني بأن لديه قناعة بأني سبب هذا الخراب، وأنه يعتبرني مسئولا عن كل ما حدث، وأنه سيتتبعني كظلي، حتى يعرف الحقيقة. مسكين! لقد جُنَّ".

"بهذا المعدل ستنتقل العدوى للعالم كله".

"خبراء يقولون نفس الأمر. العالم يُشرف على الهلاك".

كان القرار الذي اتخذته سارة ونديم أن كل شيء بدأ هناك، في ذلك الجبل بمسقط رأس الحاج عزت زوج نيِّرة الراحل. كل شيءٌ بدأ هناك عندما صعد سامي هناك بمفرده، والتقط عدوى ما.

وهكذا استقلا القطار، وبعد ساعة كانا في المركز الذي تتبعه القرية، وبعد نصف ساعة أخرى كانا يرمقان الجبل الشاهق.

كان يعرفان أن هذا هو الطريق الذي سلكه سامي، لأنه ببساطة لا يوجد غيره في مدخل القرية الجنوبي. كانا قد بدأ تسلُّق الجبل صباحًا. وقبل الظهر بقليل كانا قد وصلا للقمة...وهناك وقفا يحدقات في ذهول في ذلك الكهف.

لو كانت الدهشة يمكن التعبير عنها كمخلوق حيٍّ من لحمٍ ودم؛ فلا بد أن تكون فرصته للتجسد في تلك اللحظة كثالث ثلاثة. في البدء يمكنً التحدُث عن الحضور الكاسح.

برغم أن الكهف في البدء كان طبيعيًا تقليديًا يمكن تخيله بسهولة، وساعد على هذا التخيل رؤيتهما للكهوف من قبل في العديد من الأفلام؛ إلا أن هذه الطبيعية لم تلغ الحضور الكاسح؛ بل زادته بروزًا وقوة. في البداية كانت المدخل الضيق، الذي يموج بالعتمة.

ومع ذلك كان الاثنان يتقدمان، وقلباهما يخفقان بقوة، حتى تكاد الدقات نفسها تُسمع. ولم يكن هذا مستغربًا على أية حال، بعد سلسلة الغرائب التي رأياها مؤخرًا، وبعد إقبال العالم الذي يعرفانه على الخراب والانتهاء.

كان يعلمان أن ما يفعلانه هو آخر محاولة لإنقاذ العالم مما يعتريه من عضِّ الناس لبعضهم البعض، وإثارتهم الخوف والذعر في الآمنين الأصحاء قبل أن يتحولوا بدورهم لمصابين.

بعد المدخل كان ذلك الممر الطويل الذي تسرَّب إليه بعض الضوء من فتحات صغيرة على جانبيه.

قالت سارة والتوتر يعصف بها:

"ألن ينتهي هذا الممر؟".

كان نديم ينظر حوله بحذر:

"المهم أن ننتهى نحن من هذا الأمر على خير".

"لا أحسبه كذلك".

"المهم أن نبذل أقصى ما بجهدنا".

"أتظن أن صبري على حق بخصوص الأخوات الثلاث؟".

قال باقتضاب:

"سنرى".

بعد عدة أمتار انتهى الممر بالفعل، حيث كانت في نهايته ما يشبه القاعة الواسعة. قاعة على هيئة دائرة، أرضها مغطاة برمال بيضاء ناعمة، وهناك منضدة دائرية في المنتصف، بجوارها مغزل عملاق، خيوطه ذهبية اللون.

وكانت هناك ثلاث نساء.

واحدة ترتدي ثوبًا من الكتان مع شعر طويل يصل لآخر ظهرها، والثانية ترتدي ثوبًا من الحرير مع شعر قصير جدا، والثالثة كانت ترتدي ما يشبه درع المحاربين، وشعرها كان عبارة عن جديليتين مضفرتين على جانبي رأسها.

كانت الأولى تقوم بوضع نقاط صفراء على أماكن بعينها، وكانت الثانية تقوم بقطع بعض الخيوط المحددة، بينما تقوم الثالثة بوصل خيوط المغزل في أماكن أخرى، وكن يفعلن هذا بمثابرة عجيبة، ودقة في غاية الإعجاب.

همستْ سارة:

"ماذا يفعلن؟".

ويبدو أن السيدات الثلاثة برغم انشغالهن، إلا أنهن كن يتمتعن بسمع قوي؛ فقد استدرن والتفتن بحركة حادة إليهما. قالت صاحبة الثوب الحرير والشعر القصير:

"من أنتما، وكيف وصلتما إلى هنا؟".

قال نديم:

"أنا نديم، وهذه سارة".

اقتربت منهما صاحبة الدرع والجديلتين، ودققت في وجهيهما، وقامت بتشممهما بشكل مقزز جعل سارة تتراجع للخلف، بينما حاول نديم أن يتظاهر بالثبات، أمام هذا التصرف العجيب. قالت بعد هنيهة:

"نحن الأخوات الثلاث، صاحبات نول القدر".

قالت سارة بتوتر:

"كان صبري على حق إذن".

أما المرأة فبدا أنها لم تعر ما قالته سارة اهتمامًا، وأشارتْ بيديها لما بدا أنها تقصد خارج الكهف:

"نحن من نتحكم في هذا العالم؛ نحدد مصائر أصحابه، ومصيره هو ذاته".

ونظرت إلى سارة وابتسمتْ:

"ثم إنك تعرفين هذه المعلومة من قبل بالفعل".

قالت سارة:

"صبري أبو النور".

أومأت برأسها.

قالت ذات الدرع والجديليتين:

"أنا كارا".

وأشارتْ إلى ذات الثوب الحريري والشعر القصير:

"وهذه مارا".

وأشارت إلى صاحبة الثوب الكتاني والشعر الطويل:

"وتلك تارا".

قالت مارا:

"كنا محبوسات في ذلك الكهف منذ آلاف السنوات، ثم فجأة انكسر القفل وفُتِح لنا باب، وها نحن نتحرر أخيرًا من سجننا".

وقالت تارا:

"هذا العالم قاس، جاحد، لا يستحق أن يعيش بسلام ورخاء، إنهم يقضون وقتهم غافلين عما يحدث تحت السطح، ثم يتشدقون بعلم سطحي لا يرقى لمرتبة الحقيقة. فليذوقوا مغبة تشدقهم بزعمهم أنهم مالكي الحقيقة المطلقة".

قالت سارة بحيرة:

"هل تفهم شيئًا مما يقولونه؟".

قال نديم وهو ينظر إليهن بتركيز:

"ولا كلمة".

قالت سارة رافعة صوتها:

"إنهم يستحقون فرصة أخرى".

قالت تارا:

"هذا العالم فسد وصار إصلاحه من الصعب؛ فليذهب للهاوية إذن. لقد عثر سامي على الجبل، وأتى إلينا في الكهف، وقال بأن العالم بشع وقاس، وأن الأب لا يتوانى في التسبب بالأذي لابنه وفلذة كبده؛ من أجل مصلحته لو لزم الأمر، وأنه يعيش في عذابٍ مقيمٍ، وأنه يريد للعالم أن يدفع ثمن أخطاءه".

سألتها سارة بدهشة:

"ولماذا يقول سامي كلامًا كهذا؟".

تجاهلتها تارا، وهي تُكمل كلامها:

"وعن طيب خاطر؛ قبل سامي أن يكون بذرة الخراب المرتقب. لقد جعلناه يقوم بقطع خيط معين، ثم يقوم بتوصله لنقطة أخرى. وهكذا يبدأ تاريخ جديد للبشرية؛ درس يبدأ أن يُمحى عدد هائل منهم، ولا يتبقى إلا قلة، يتعلمون الدرس، ويبدأون حياة جديدة خالية من الطمع والشر. كل من يُصابون بالعضة سيموتون في النهاية، بعد أن يكونوا قد عضّوا أكبر عدد ممكن من البشر".

قال نديم:

"لكنكن تقمن بتحديد مصائرهم. ألا يمكن أن يحدث هذا دون أن تقمن بتدميرهم؟".

"نحن قادرات على ترتيب الأمور فحسب؛ وضع خيوط قبل خيوط، خيوط توجد، خيوط تنمحي، وهكذا يُعاد كتابة الأحداث من جديد. هذا هو عملنا".

كان هذا السيل من المعلومات مروِّعًا. مروِّعًا لدرجة أن سارة بحثت عن مكان لتجلس عليه؛ إذ أن فكرة الجلوس على الأرض الرملية لم تبدُ مستحبة بالنسبة لها لأول وهلة، لكنها كانت مستعدة لفعلها والجلوس على الأرض، لكنها لمحتْ تلك الصخرة المسطحة التي تقبع في ركن الكهف الواسع، والتي بدا أنها تقوم مقام المقاعد. فور أن جلست عليها، قالت:

"أشعر بالضياع".

قالت تارا:

"لد حدث هذا بسببكما؛ فأنتما صاحبا الفضل في خروجنا للعالم مجددًا؛ بعد أن انسحق كريم الباجوري، وصار كُومة من تراب منثور. الشكر لكما إذن. وقد كافئناكما كما يجب".

قالت سارة:

"عما تتحدثن؟".

اقتربت منهما تارا:

"بالنسبة لكِ يا عزيزتي؛ فقد قمنا بتعديل مسار حياتك بشكل يسمح بوجود عائلتك مجددًا. كذلك جعلنا علاقتك بمريم ابنة خالتك جيدة، وهى سيئة جدًا في

عالمكِ القديم. أعتقد أنكِ ممتنة لحدوث هذا، بغضّ النظر أن مريم في شهر العسل مع زوجها، لكن فور أن تعود حبل الود سيتصل".

قالت بغضب:

"وقد جعلتنني أمارس مرارة الفقد مجددًا".

قالت بسرعة:

"هذا لأنكِ لم تتركي العالم كما هو. كان من الممكن أن تتجاهلى نديم، وتتمسكي بعالمكِ الجديد، لكنكِ لم تفعلي. أنتِ تدفعين ثمن فضولك".

"أنتن قاسيات بلا قلب!".

هكذا صرخت سارة، وبدا أن الإهانة لم تغضب الأخوات الثلاث ، لكنها أثارتْ اهتمامهن. قالت مارا وهي ترفع حاجب عينها اليمنى الرفيع:

"ولمَ يا عزيزتي؟".

"لأنكن تتعاملن معنا على أننا لعبة ماريونيت تحركنها بأصابعكن. نحن بشر من لحم ودم".

"بالنسبة لمن؟ بالنسبة لنا؛ فأنتم مجرد جنس قصير السامي فانٍ محدود القدرات؛ لكن بالنسبة لكم؛ فنحن جنس مُسامي من آلاف السنين؛ فأنتم مجرد حشرة بعوض دورة حياتها لا تأخذ سوى ثانية من الزمن الكلي للكون".

واقتربت منها كارا:

"نأتي للسيد نديم شوكت. حسنًا، ماذا كنت تفعل هناك في عالمك القديم؟ آه، كنت تحكي حكايات".

قال بضيق:

"يُقال هذا، لكني لا أتذكر إلا أشياء ضبابية عامة".

"ربما كنت في عالم القديم تملك موهبة ما، والكل ملتف حولك، لكنك كنت حزينًا، روحك فيها ثقب أسود يمتص كل شيء، ولا يمتلىء. لقد كنت تعيسًا يا عزيزي، تعيش وحيدًا، تتناول طعامك وحيدًا؛ لهذا كنت تذهب للتعساء أمثالك تحكي لهم. لعلك تجد شيئًا من العزاء لما كنت تقدمه. لكن هل كان هذا صحيحا؟ هل فعلا كنت تجد العزاء فيما تقدمه لهم. إنهم جاحدون في كل نسخة من نسخهم، في كل مسار من مساراتهم، في كل اختيار من اختياراتهم، هكذا هم البشر يظنون أن وجودهم مهم، ومن المفترض أن تتحقق أمانيهم وأن يكونوا سعداء. بل- ويا

للسخرية!- يظنون أنهم سادة هذا الكون الشاسع، ويحق لهم فعل ما يريدون. إنهم جنس فاسد مفسد، سفَّاك للدم، ولا نرى لهم أفضلية في الحقيقة".

قال نديم باهتمام:

"لكن يبدو أن هناك من عارضكن وقام بحبسكن. لم تخبرنني بالمناسبة: من فعل هذا؟".

تقدمت تارا، وقالت:

"هل تريد حقًا أن تعرف من حبسنًا هنا؟".

"سأكون سعيدًا بمعرفة هذا، حتى أقدم له خطاب شكر؛ أحييه على تصرفه النبيل هذا؛ فلا بد أنكن مجنونات".

طقطقت سارة محذرة، وقد استعارتْ أسلوب الحاجة نيِّرة في موقف سابق مشابه:

"نديم. احترس".

لوحت مارا بيديها:

"دعيه يا عزيزتي، دعيه. على الأقل هو لديه الجرأة لأن يواجه ويسأل: بخلافك أنتِ التي تقومين بالهروب طوال الوقت؛ هروبًا من ذكرياتك الموجعة، هروبا من شخصيتك، هروبًا من إحساسك بالعار، من اختياراتك غير الموفقة. إنكِ مُطارَدة طوال الوقت. لكنكِ في هذا العالم سعيدة، لديكِ كل من تحبينهم. لماذا تركتيهم وأتيتِ إلى هنا معه؟ ألا يروق لكِ هذا العالم؟".

بحثت سارة عن إجابة فلم تجد. في كلامها الكثير من الصحة، وكأنها وقفتْ مُرغمة أمام مرآة مصقولة، تنقل حقيقتها.

"لما تجبن على سؤالي بعد".

سأل نديم، وهو يدير بصره في الأخوات الثلاث.

قات كارا:

"آه، تقصد من قام بحبسنا. إنه مخلوق غامض، لا نعرف من هو أصلا. لكن نعرف أحد تجسداته في عالمنا. إنه يتجسد على هيئة رجل لا وجه له".

ارتجفت سارة. هذه المعلومة دقت ناقوسًا آخر في ذهنها. لماذا تعتقد أنها قد قابلته من قبل؟

قالت مارا:

"لن أستغرب أنه كان في عالمكم أصلا. لكن بمقتل كريم الباجوري، انكسر القفل، وصار هو ضعيفًا؛ وهكذا تحررنا وسيطرنا عليه".

ونظرت إلى الجدار الأيمن للكهف، وقالت:

"انظرا".

نظرا إلى حيث كانت هناك مرآة مصقولة بداخلها طيف رجل بالفعل، يذوب على سطح المرآة من الداخل، ثم يعود للتجسد مجددًا، وكل هذا يحدث، ولا شيء من ملامح وجهه تظهر.

قالت تارا:

"هل ما زلتما تريدان إيقافنا عما نفعله يا عزيزيَّ؟ نحن من يحافظ على نظام هذا العالم. صحيح أن هناك كارثة بشعة تنتظره، لكن هذا في صالحه في النهاية. سيغدو أفضل. أليس هذا ما تريدانه؟".

وقف نديم وسارة بصمت. التردد على وجهيهما. في كلامهن شيءٌ من المنطق، لكنه بالنسبة لسارة كان كارثة حقيقية.

ويبدو أن مارا، ذات الشعر القصير والثوب الحريري قد شعرتْ بحيرتها؛ فقالت:

"سيطرتنا على هذا العالم ليستْ كلية. بل هي محدودة جدًا. نحن فقط نبدل هذا بذاك، ونصنع بعض التوازن في هذا العالم".

قالت سارة بتوتر:

"تتعاملن كأنكن آلهة".

"هذا ليس صحيحًا. كما أخبرناكما؛ فنحن جنس مسامي قديم، له آلاف السنين، لكن هذا ليس معناه أننا آلهة. الحقيقة لها أكثر من وجه يا عزيزتي، وهذا لا يخلق تعارضًا لو أمعنتِ النظر".

سألتها سارة:

"ما الذي حدث للمسكين سامي، حتى يقبل أن يكون بداية هذه الكارثة؟".

قالت مارا:

"آه، سامي. لقد أتى إلى هنا، وقال أنه يتعذب. شيءٌ ما حدث له منذ يقرب من عام جعل عقله يشتعل كل يوم؛ أعنى يشتعل حرفيًا لمدة ساعة؛ درجة حرارته

تزيد، ويشعر بأنه على حافة جبل مليء بالنار. كان هذا بسبب لمسة لعينة أصابته".

قالت سارة:

"الندبة التي على جبينه! هل هذا هو سبب وجودها؟".

أومأت تارا برأسها:

"عرضنا عليه تخليصه من هذا العذاب، لكن مقابل أن يكون هو ناقل الدمار للعالم. سامي وجد أن العالم يستحق، وهذا لأن المتسبب الأول فيما حدث له هو....".

لكن صوت الرصاصة المدوِّي، وانفجار رأس ذات الثوب الكتاني قد قضى على فرصة أن تتكلم، بالذي كانت تريد التفوه به. تناثرتْ أشلاء رأسها على الأرض الرملية، بينما وقف سيد يلهث على عتبة القاعة وهو يحمل بندقيته.

هل يلهث من مشقة الصعود، أم من نقص الأكسجين، أم من القرار الذي اتخذه حيث فجَّر رأس المرأة أمام عيون أختيها. والحقيقة أن تصرُّف أختيها عندما رأيتا أختهما الثالثة ميتة، كان طبيعيًا جدًا؛ كان هو الذهول، وعدم التصديق، كل هذا الكلام عن كونهن من جنس مُسامي قديم، يقوم بعمل الكثير من الأشياء في هذا العالم، لم يمنع بشريًا عاديًا من القضاء على واحدة منهن، وبرصاصة!

ويبدو أن سيد طبيعته العملية استعادها بعد لحظات من الارتباك، ووجَّه سلاحه المُسامي لإكمال مهمته. لكن نديم وثب نحوه، وهو يدفع فوهة البندقية إلى أعلى، ويمنع يده أن تصل للزناد في نفس الوقت:

"أيها المجنون؛ ماذا تفعل؟".

صرخ سيد بهياج:

"دعني؛ لقد تسببن في مقتل عائلتي بأكملها".

نظرة ذهول على وجه سارة. سألته:

"ماتوا جميعا؟".

أومأ سيد برأسه بمرارة. قال نديم:

"ولو قتلتهما الآن؛ سوف تقضى على بقية العالم".

قاومه سيد بشراسة:

"لم يعد لي شيء هنا حتى أعيش".

بشكل ما كانت سارة تفهم ما يمرُّ به. فقد مرَّت به من قبل.

نظرت سارة نحو الأختين، وهما تبكيان على شقيقتهما الثالثة، بينما تستمر المعركة بين نديم وسيد، وكان هذا الأخير أشبه بثور هائج، ومنحه غضبه قوة هائلة؛ قوة جعلته يفلتُ من نديم، ويطلق رصاصته الثانية، والتي اخترقت صدر مارا، والتي سقطت أرضًا ميتة!

أما كارا فقد اشتعل الغضب في عينيها وهي تنهض. صرختْ، ومع صرختها راح الكهف يهتز، وبل راح يتشقق سقفه، وتتصدع جدرانه، وكان من ضمنها الجدار الذي يحتوى على المرآة، التي تحتوي بداخلها على الرجل الذي لا وجه له، ويبدو أن صخرة قد انفصلت من سقف الكهف، وكانت تعرف طريقها جيدًا نحو رأس سيد؛ فتسحقه تحتها!

هدأت كارا وهي تتنفس بصعوبة.

"برحيلهما؛ لم يعد لي مكانٌ في هذا العالم".

ثم راح جسدها يتغير لونه، ويتقادم، وصارت أشبه بلون الطين، ثم تبخرت ككومة من تُراب. وتبخرت أختاها أيضًا، وبدلا من أن تترك أكوام التراب أثرا على الأرض الرملية ذابت في الأرض حتى اختفتْ.

كانت سارة ترقب الأحداث السريعة، وكأن عقلها قد أصابه خطأ؛ جعله يتوقف عن التفكير.

اقترب نديم من سارة وتمتم:

"هل أنتِ بخير؟".

"لا".

وخلفهما كان شيء غريب يحدث. نول القدر كان يهتز، وبدأت خيوطه تتلوى كأن الحياة قد دبت فيها، وراحت تتداخل مع بعضها البعض.

قالت سارة:

"ما الذي يحدث يا نديم؟".

قال بتوتر:

"لا أعرف".

وألقى نظرة أسف على رأس سيد المسحوق:

"ما فعله سيد سيجعل العالم يدفع ثمنه غاليًا".

"ربما كان هذا من حسن حظ العالم. بموتهن يمكن أن يستعيد العالم مساره الصحيح".

كانت الخيوط ما زالت تتشابك وتتعقد وتتلوى.

قال نديم بقلق:

"لا أظن".

ونظرت سارة من خلال فتحات الكهف التي تطل على المدينة من نقطة شاهقة فوق مستوى البحر، وحيث تبدو السماء واضحة؛ السماء التي لم تعد زرقاء في الحقيقة.

"انظري".

هتف نديم؛ فنظرت سارة إلى حيث يشير، ولدهشتها الشديدة كانت السماء تكتسي بلون أحمر، مع انتشار موجة ضبابية عملاقة احتلت الأفق، والبرق والرعد يصدران لونهما الناري المميز، مع صوت جبَّار مدوٍ، ثم راحت أحجار صغيرة تتساقط، أحجار ملتهبة. قالت سارة بدهشة:

"نيازك!".

"تبدو كذلك".

كانت الأحجار المشتعلة تسقط بغزارة، ويبدو أن أحجامها كانت كبيرة لدرجة ان الحرائق تحتها راحت تحدث من الأماكن التي تسقط عليها مباشرة.

"إنها نهاية العالم، لقد تسبب سيد الأحمق في هلاكه".

"وهل سنتركه هكذا يا نديم؟".

"وما بأيدينا لنفعله؟".

"ألا يمكن أن نفعل ما كانت الأخوات الثلاثة يفعلنه؟".

"تقصدين أن نرتق النول؟".

أومأت برأسها. سألها:

"وكيف نفعل هذا؟ لا بد أنهن كن يعرفن ما يفعلن".

"فلنجرَّب يا أخي. ليس علينا سوى المحاولة فقط".

"المحاولة الخاطئة كفيلة هنا بإفناء العالم".

أشارت إلي الخارج عبر فتحة متسعة أكثر، وقالت:

"هل ترى العالم في حالٍ أفضل الآن؟ إنه يفنى بالفعل".

نظرة من عينيه أكدت حيرته وخوفه. لكنها كانت على حق. اقترب من النوْل وسألها:

"كيف سنبدأ".

بدت الحيرة بدورها على وجهها. في الحقيقة هي لا تعرف. قالت بعد لحظة:

"ألا يمكن أن يوجد هنا دليل تشغيل مثلا؟".

ضحك من قلبه.

"دليل تشغيل؟".

قالت بغيظ:

"لم أقل نكتة حتى تضحك هكذا!".

حاول أن يتماسك. ها هما ذا، فوق مستوى البحر بأكثر من ألف متر تقريبًا، والعالم يتلاشى حرفيًا بسبب احتراق نول القدر، والمفترض أنهما منْ على عاتقهما إنقاذ هذا العالم. يا للجنون! نظر حوله، وبحث ببصره، وهي فعلت المثل؛ وكأنهما يبحثان عن ضوء في النفق المعتم.

في البداية لم يجدا شيئًا، حتى أن اليأس قد خامر نفس سارة، وتساءلت إن كانت هي النهاية حقًا؟ لكن فجأة لمعت عيناها وهى تهب مسرعة نحو ما يشبه كتابًا. بالفعل كان كتابًا قديمًا، محفور على غلافه عنوانه باللغة العربية، وكان العنوان هو" كتاب الاحتمالات والمصائر". قالت وهي تقلب صفحاته:

"ما هذا الكتاب الغريب؟".

قال وهو يختطف الكتاب من يدها:

"لا اظن أني قابلتُ شيئا كهذا من قبل".

فتح الكتاب.. كانت هناك نقاط باللون الأصفر موضوعة هناك في أماكن معينة. وكانت العربية هي لغة الكتاب، وكان هذا طبيعيًا؛ فالأخوات الثلاث كان يتحدثن بها كأهلها؛ فلا معني أن تكون بلغة مختلفة كاللاتينية مثلا.

في صفحتين متقابلتين- لاحظت سارة - أن الصفحة الأولى مكتوب بأعلى: قبل، وتحتها خريطة لوضع الخيوط في النول. الصفحة المقابلة مكتوب بأعلى: بعد، وتحتها نقاط مختلفة. كانت عينا سارة تتابعان الصفحتين بنفس التركيز، وقد أدركت المعني حتى من قبل أن تسمع كلمة نديم:

"أعتقد أني قد فهمت كيف يتم الأمر".

غمغمتْ بعدة كلمات مدغمة، كانت تعنى نفس المعنى تقريبًا. ما زالت الخطوط تتلوى، وتتداخل فيما بينها، ومع كل تداخل كانا يسمعان الدوِّي الذي يصمُّ الأذان بالخارج، تساقط الحجارة، تغيُّر الجوّ، هذه الرائحة الكريهة التي راحت تبسط ظلالها على هذا العالم.

ثم سمعا ذلك الصوت الشبيه بوحشٍ ما يزوم. الغريب أنهما- وفي لحظةٍ واحدةٍ- أدركا ما الذي يعنيه هذا الأمر، وكأنها معرفة انسكبتْ في خاطرهما بدون سابق إنذار.

راحت تسرى تشققات في المرآة، حيث يقبع الرجل الذي لا وجه له، وهو يتحرك بعصبية، كليثٍ حبيس. نبت خوف عجيب في قلب سارة، وبدأت أصابعهما تسابق الزمن، حتى يعيدا كل شيء لما كان.

لكن الرجل الذي لا وجه لم يتركهما في حالهما. فجأة راح جسده يتغير ويتضخم وامتدت منه ذراع مخلبية عملاقة أحاطت برقبة سارة وسحبتها للخلف بقوة جبَّارة، قوة جعلت سارة تكاد تنقسم لنصفين من عنف الجذبة، ويا ليت الأمر اقتصر على ذلك؛ إذ أن الذراع العملاقة تركتها لتطير في الهواء بحركة حرة، قبل أن ترتطم بقوة بالجدار الصخري، وتسقط أرضًا وهي تئن من الألم. بدا أن نديم كان يريد أن يُهرع إليها ويطمئن عليها، لكن العالم المشتعل بالخارج يحثُّه أن يسرع:

"هل أنتِ بخير؟".

ناداها وهو يلتفت للخلف، بينما ذلك الهول يقترب منه ببطء.

"أعتقد أن عظامي قد تحطمت".

غمغمت سارة. الهول يقفز هذه المرة ناحية نديم، تتحرك مجسَّاته حول عنقه، ويغرسها فيه، وهنا أطلق نديم صرخة هائلة، والمخلوق الضخم الشرس يشرع في تمزيق جسده.

بالفعل كان يقوم بتمزيق جسده قطعة قطعة، وهنا لم تجد سارة مناصًا من التغلب على آلامها والنهوض، وكانت تحاذر النظر لنديم وما يعانيه، وصرخاته التي ملأت

فضاء الكهف، والحقّ أن قلبها كان يتمزق من بشاعة ما تراه.

لكنها كانت تعلم أيضًا أن سلامة العالم متوقفة عليها، ثم إنها لو أكملت مهمتها على خير ما يُرام؛ فسيعود كل شيء لما كان عليه.

حاولتْ أن تتجاهل صوت نديم الذي يخفت، تتجاهل الصمت الذي ساد بعد مقتله، تتجاهل الخطوات التي تقترب منها، تتجاهل المجسَّات اللزجة التي تتحسس جسدها ببطءٍ مقزز. ثم رأت بطرف عينها مجسًا هائلًا لزجًا يتساقط منه ما يشبه القطران يقترب منها، متأهبًا لغرسه في عنقها، لكنها كانت في تلك اللحظة تعقد العقدة الأخيرة في نول القدر.

ثم دوَّت صرخة رهيبة من المخلوق؛ فنظرت للخلف؛ فوجدتْ أن المرآة تعود مجددًا للتجسُّد على الجدار، وأن قوة رهيبة غير مرئية راحت تجذب المخلوق المتوحش إليها، حتى احتوته أخيرًا؛ أما هو فراح يضرب على سطح المرأة من الداخل بدون جدوى.

لم تصدق سارة أنها قد فعلتها. اقتربتْ من جسد نديم الممزق، وغالبت حزنها واشمئزازها وهي تدقق النظر في الأشلاء، وهنا رأت قطرات الدم النازفة من جسده تتجمع وتعود إلى جسده ببطء.

أطلقت سارة صيحة فرح.

بل ورقصت قليلا في جنون، ثم غادرت الكهف، ورفعتْ ذراعيها بانتصار وهي تُطلق صرخة أعلى راحتْ تتردد في الفراغ.

جلست على صخرة، أمام الكهف، حيث تطل على عدة قرى. للحظة خُيِّل إليها أنها قد أتت إلى هنا من قبل. هزت كتفيها بلا اهتمام. فليُخيّل إليها ما شاء لها الخيال أن يفعل.

المهم أنها قد أنقذت العالم.

كانت أعداد النيازك تتناقص فعلا، وهدوء تدريجي يعود للعالم. أغمضتْ سارة عينيها، وموجة هواء بارد تضرب وجهها. تمنت لو كان لديها غطاء ثقيل يحتوي جسدها الذي يشعر بالبرودة القارصة. شعرتْ بالندم لأنها لم تُحضر الغطاء الذي كانت تتغطي به في أول ليلة في عالمها الجديد، وقبل أن تُفاجأ بأن أمها حية وهي تفتح النوافذ، و....

هنا، شعرتْ سارة بالتوتر، وهي تتذكر شيئًا ما. لقد كانت هناك موجة برد مماثلة في تلك الليلة؛ فكيف شعرت بها برغم أن النوافذ مغلقة؟

التوتر يزيد أكثر في عروقها. هل من الممكن أن....؟

أغمضتْ عينيها في ألم. ثمة مشهد يُجاهد عقلها لتمريره إليها، لكشف طبقات الضباب من حوله، ذكرى قادمة من عالمٍ آخر. مشهد قد تتوقف عليه نجاتها. جاءها إحساس بأن هذا المشهد ضروريٌ للغايةً. الصداع يكتسح جمجمتها. في ظرف آخرٍ كانت ستسترخي، وتستسلم وسيزول الصداع من تلقاء نفسه، وكأن مقاومتها هي ما تحفزّه، وتجعله ينتصب بشراسة لمحاربتها، و...

مقاومتها؟

كان المفروض أن تسترخي، لكنها لم تفعل. راحت تزوم، وتضغط على رأسها بكلتا يديها، وكأنها تصنع ثقبًا لتمرير تلك الذكرى المطمورة، الألم قوي، وجسدها يرتجف.

ومضتْ الذكرى بغتة، ومع ومضتها عرفتْ الحقيقة المذهلة المرعبة.

سمعتْ الخطوات التي تقترب منها؛ فالتفتت للخلف، وهناك كان نديم يخطو خارج الكهف، ومن وراء الأخوات الثلاث، ثم سيد الذي كان يتحسس جسده غير مصدق، ثم يقول وهو يقفز من السعادة:

"لقد اتصلوا بي من المنزل. إنهم جميعًا بخير".

ابتسمت سارة ابتسامة متوترة غامضة. قال نديم:

"لقد نجحتِ يا سارة".

قالت سارة:

"هذا جهد جماعي. أنتم كذلك نجحتم".

قالت مارا:

"سترجعين لمنزلك؛ لتجدي كل أفراد عائلتكِ بخير. لقد أثبِّت لنا أن هذا العالم يستحق فرصة ثانية".

وابتسمت كارا:

"وأنكِ تستحقين السعادة".

وقالت تارا مداعبة:

"فقط استسلمي وكفي عن فضولكِ وشغفكِ هذا الذي أوردنا المهالك".

قالت سارة وهي تقف:

"كل هذا هو المطلوب مني؛ أن أستسلم وأتقبل هذا العالم. أليس كذلك؟".

قال نديم:

"أنا عن نفسي لا أريد الرحيل عن هذا العالم. إنه يعجبني".

قالت سارة:

"هذا إذا كنتَ نديم الذي أعرفه".

قال نديم بحذر:

"ماذا تعنين؟".

ألقتْ سارة نظرة على الهاوية السحيقة، وابتلعتْ ريقها وقالت:

"بالفعل أنا أهرب من كل شيء، ولو قبلتُ هذا العالم وتقبلته؛ فهذا أكبر هروب سأفعله في حياتي، وهو ما أرفضه. وخاصة أن هذا العالم غير حقيقي، ولا توجد سوى وسيلة واحدة لإثبات ذلك".

قال نديم بذات الحذر:

"هل أنت بخير يا سارة؟".

أشارت سارة لما حولها بيدها اليمنى:

"أين نحن الآن يا نديم؟".

"وهل هذا سؤال؟ نحن فوق قمة جبل قرية "..."، حيث أنقذتِ العالم ببراعتك".

"لكنى متأكدة أنني لستُ هنا في الحقيقة".

قالت تارا ببطء:

"وأين ستكونين؟".

قالت بمرارة:

"أعتقد أني ما زلت في فيلا كريم الباجوري. في القبو على وجه الدقة".

وضحكتْ:

"هذه هي الذكرى الواضحة التي استطاع عقلي أن يمررها لي. عقلي الصافي الحقيقي، وليس عقلي المحجوب بخداعكم. ذكرى لي وأنا في قبو فيلا كريم الباجوري، ذات الفتحات العلوية التي تؤدي إلى الحديقة، والتي كانت تتسرب منها برودة الشتاء. لقد كانت تضرب وجهي وأنا بين يديه".

اقتربت منها كارا، وقالت بشفقة تبدت واضحة على وجهها:

"لقد فهمت. أنتِ تعاقبين نفسك، تشعرين أنك لا تستحقين السعادة، وأن الأمور لن تصير على ما يُرام بهذه البساطة. لكن الأمور لم تصر على ما يُرام بسهولة صدقيني. لقد بذلتِ الكثير حتى وصلتِ لذلك".

"إذن؛ دعني أسالكِ سؤال".

قالت كارا:

"ما هو؟".

"هل سيطرتكن اقتصرتْ فقط على نقل العدوى للعالم، أم أن هناك تغييرات أخرى حدثت في العالم".

قالت تارا:

"العدوى فقط وما يصاحبها من مظاهر؛ مثل بياض العين المشرب بصفرة، والزمجرة، والعضّ. نحن لسن مجنونات حتى نتدخل بأكثر من ذلك".

قالت بارتياح:

"إذن كل ما يدور حولي مجرد حلم معقد بالفعل. لكنه ليس حلمًا صنعه عقلي، بل حلم صنعته يد كريم المحيطة برأسى الآن. حلم هدفه أن أتقبل هذا العالم، وأرضخ له. هكذا إذن يُسيطر على أتباعه. يضعهن في حلم معقد، ثم يتقبلنه، وبالتالي يصرن من مريديه وخُدّامه".

واقتربت من حافة الجبل، التي تطلُّ على الهاوية المخيفة السحيقة:

"ترى ماذا سيحدث الآن لو ألقيتُ نفسي؟".

قال نادر:

"لا ترتكبي هذه الحماقة يا سارة. لقد كانت مواجهة الوحش بداخل الكهف مخيفة وتزلزل سلامة أي عقل. لكنكِ نجحتِ وأنقذتنا وأنقذتِ عائلتك، وأنقذتِ العالم كله؛ فلم تُضيعين هذا بسبب استنتاج أحمق؟ لماذا تهدمين سعادتك المرتقبة بيديكِ؟".

"أنت لستَ حقيقيًا أيضًا. نديم الحقيقي في حجرة نومي بفيلا كريم الباجوري، بين اليقظة والنوم بسبب ذلك العقار المنوِّم الذي وضعه كريم في الشطائر والمشروبات، و...".

لمعت عينيها بحماس:

"يبدو أني بدأتُ أتذكر بالفعل. أتذكر عالمي الحقيقي".

قال نادر بعصبية:

"حتى لو كان كلامكِ صحيحًا؛ ألا ترين أن هذا العالم أفضل من عالمكِ السابق. لقد كنتِ مكروهة هناك، وحيدة، تركك الجميع؛ فما الذي يشجع على عودتك لهناك؟"

"ما قادك شيءٌ مثل الوهم. أم أنك قد نسيت؟".

"لو عدتِ ستُفتح أمامكِ أبواب الجحيم. أنتِ لا تعرفين ما ينتظرك هناك".

هزت كتفيها:

"أيًا كان؛ فأنا مستعدة لمواجهته. لقد ولت أيام الهروب ودفن رأسي في الرمال. سأعود، وسأواجه أخطائي، حتى لو كنتُ لا أملك الشجاعة الكافية، أو المهارات الكافية لتصحيح كل شيء. فقط سأحاول بإخلاص ومثابرة".

وتطلعت للهاوية برهبة، وكأنها تريد اتخاذ قرار. قالت لنفسها:

"تحتاجين إلى قفزة واحدة فقط يا سارة؛ قفزة إيمان وتصديق بعقلك وقلبك".

وألقت بنفسها من أعلى الجبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

خاتمة

لم يستمرُّ السقوط سوى ثانية واحدة، أو هذا ما خُيِّل إليها، ثم وجدتْ نفسها تصرخ بقوة، والألم الكاسح يعصف برأسها، حيث تمسك يدا كريم الباجوري برأسها، ما زال قلبها يركض بين ضلوعها، حتى خالت أنه سيتوقف فجأة.

إذن فقد صدق حدسها؛ ما زالتْ في القبو، تحت رحمة كريم الباجوري، في فيلته ذات الطوابق الأربع. رفع يديه عن رأسها، وتراجع وعيناه تلمعان. هل هي لمعة انتصار؟

سارة تحاول التقاط أنفاسها التي راحت تنطلق في الأثير بعشوائية مخيفة، وصدرها ينقبض وينبسط من فرط الألم.

قالت بصوت مبحوح:

"إذن فهو أنت بالفعل بالفعل".

توهجت لمعة عينيه أكثر، وهو يومىء برأسه، إلى الجدار خلفه:

"أجل، أنا".

خلفه كانت تقف مريم وهيثم وفتحية وسها والرجل العجوز ذي البدلة الزرقاء القديمة، وآخرون، في صف وكأنهم طليعة جيش، وثمة جمود غريب ذاهل على وجوههم. قال بفخر:

"هؤلاء فريقي المخلص الذي أقنعكِ بهذه القصة السخيفة عن آكل الخطائين، حتى أنكِ سقطتِ في المصيدة كالحمقاء، وصدقتِ كل شيء".

"لكن لماذا؟".

أشار إلى رأسها:

"كل هذا فعلته من أجل ذلك السِر الذي يقبع في رأسك؛ السِرُّ المُخبأ أمام الأعين".

نظرة متساءلة في عينيها. لن تسأله، لن تمنحه شعور بالانتصار أكثر مما يشعر به.

"أعتقد أنه قد حان الوقت لكي تفهمي".

ونهض وجلس على مقعد معدني قديم، ووضع ساقا على ساق، وصمت لبرهة، ثم ابتسم:

"أنتِ أول من يستطيع التغلب على الحلم المعقد الذي أصنعه، الحلم الذي يجعل كل شخص يستسلم ويتقبل أن أكون سيدًا له، يطيعني في كل ما أطلب، مهما كان صعبًا".

وهز كتفيه:

"لسوء حظك أنكِ أول من تغلب عليه".

لم تنطلق بكلمة. نظرة التساؤل في عينيها. تريد أن تعرف، تريد أن تعرف.

"دعيني أولا أقصُّ عليكِ حكاية. ليس نديم وحده من يملك هذه الموهبة".

شرد ببصره:

"كان ياما كان، منذ سنوات قليلة جدًا، كان هناك رجل أعمال ناجحًا، اخترمه الهِرَم، وأقامت في جسده العلل؛ فرقد في فراشه بلا حراك ينتظر لحظة موته، وهو يشعر بأسى عميق لرؤية إمبراطوريته التي كوَّنها بالعرق والدم تُدار بواسطة ولده الأكبر. لم يكن ابنه فاشلًا، لكنه لم يكن هو، لم يكن يملك عقله أو خبرته. كمْ لو ودَّ أن ينقل جزءًا منه كينونته، ويضعها فيه؛ فيسير على طريقه دون حياد. لكنه كان يعلم أن هذا هو المستحيل بعينه، ولأنه رجل عقلاني؛ فقد استسلم للأمر الواقع، وانتظر لحظة النهاية".

كانت سارة تستمع باهتمام. ثمة فكرة ما تدور في ذهنها، واسم معين يُفصح عن نفسه ببطء. أما كريم فقد ازدادت اللمعة الحماسية في عينيه، وهو ينهض، ويدور حول نفسه:

"لكن المستحيل غدا ممكنًا. ذات يوم أتاه أحد رجاله بحجر أصفر غريب. ولأن العجوز كان يعشق الأنتيكات والأشياء الغريبة؛ فقد دفع فيه مبلغًا باهظًا. وصارت متعته أن يجعله بجواره يتأمل فيه، ثم وضعه في إطار صُنِع خصيصًا له، ثم في قلادة حول رقبته، ولاحظَ أنه صار أكثر سلامًا وتماسكًا، وكأن قوة غامضة تنبعث في جسده".

توقف كريم عن الدوران في القبو. ونظر للسقف:

"نعم، كان كان يشعر بقوة هائلة تنبعث فيه، صحيح أن جسده ما زال مريضًا متهدمًا، لكن جانبه الروحي والعقلي كان يقوى ويعلو حتى أتى ذلك اليوم".

رأت سارة بعض الأسف يظهر على وجه كريم، الذي عاد للجلوس مرة أخرى:

"كان يتحدث مع ابنه الأصغر، والذي يختلف عنه بالكُلِّية، وشعر برغبة عارمة أن يعرف إجابة سؤال واحد فقط: هل ابنه يحبه أم لا؟ هل يُدرك أنه يفعل ما يفعله من أجله هو وليس من أجل نفسه؟ وبتلقائية وجد نفسه يمدُّ يديه إلى رأسه، وبالتحديد إلى جبينه، كان يعرف أنه سيعرف إجابة هذا السؤال بشكلٍ ما، وبالفعل مدَّ يديه، ولغرابة الفعل لم يُبدِ الشاب اعتراضًا. في النهاية هذا أبوه. لكن شيئًا ما حدث. فقد صرخ الفتى عندما وضع أبوه يديه حول رأسه، وصرخ مجددًا، واستمرت صرخاته. وسقط مريضًا لعدة أيام، وقد ظهرتْ على جبينه ندبة غائرة. وعرف العجوز أن ابنه قد أُصيب بسرطان ينهش في مخه، سرطان لا علاج له، ويبدو أن تغيُّر حالة الشاب قد لفتت أنظار أمه وإخوته، لكن لا أحد منهم خمن السبب الحقيقي. لكن الأب العجوز كان يعرف السبب. إنه الحجر الملعون، ولمسته المهلكة لرأسه. شعر العجوز بندمٍ بالغٍ جعله يقوم بفعل متهور. لقد أمسك بمطرقة وراح يهوى بها على الحجر حتى هشمه وصار شظايا، ثم أقدم على بلعها وهو يضحك، وكأنما أصابته لوثة من جنون، وكأنه يُعاقب نفسه على طريقته".

رفعتْ سارة حاجبها دهشًا، بينما أخذ كريم نفسًا عميقًا من الهواء البارد، وكأنه مُقبل على قولِ ما هو أهم مما مضى:

"ثم مات العجوز في نفس الليلة، وكأن الانفعال الزائد قد عجَّل بنهايته، ودُفن في بلدته بالصعيد. وفي نفس ليلة دفنه أتي أحد نبّاشي القبور. أتعرفينهم؟".

"أسمع عنهم كغيري".

"هذا النبّاش دخل حجرة الدفن، وهناك كانت جثة العجوز مستقرة في سلام، وبينما يقوم النبّاش بعمله بإتقان؛ فجأة تحركت يد الميت وقبضت على ذراع النبَّاش".

ارتجفتْ سارة. الأمر يذكرها بما حدث في عقلها، حيث عاد أبواها من الموت، الفكرة نفسها كانت مرعبة، فكرة أن القوانين الطبيعية تتهاوى، وتتحول أرض المنطق الصلبة التي تقف عليها إلى سطح مهتز مائج يوشك على الزوال.

"طبعًا أصاب النبَّاش الذعر، وولى هاربًا. ثم عندما غادر المقبرة والتقط أنفاسه، أرجع رد فعله إلى جبنه وخوفه وربما بعض الهواء الفاسد الذي يؤثر على العقل. لكن الشعور الأكبر الذي خامره ليس لأنه ينبش أكفان الموتى ويدنِّس حرمتهم؛ بل لأنه خجِل من جبنه هذا، ويا لها من مفارقة! عاد مرة أخرى، وهناك وجد أن الميت ما زال ميتًا؛ فأطمئنت نفسه، ومدَّ يديه ليُكمل عمله. لكن فجأة امتدت اليد مرة أخرى إلى يده، وقبضت عليها بقوة تلك المرة، بل وفتح الميت عينيه، وهو ينظر للنبَّاش بتصميم مخيف. في تلك اللحظة شعر النبَّاش بشيء

غريب. شيء تسلل إلى أعماقه واستقر هناك. شيء جعل عينيه تتلونان باللون الأبيض المُشرب بصفرة للحظة، ثم تستعيدان لونهما الأصلي مجددًا، لكن هذا ليس معناه أن النبَّاش قد عاد لطبيعته هو أيضًا. فلنقل أنه عاد بشكل كبير جدًا، لكن جزءًا فيه قد تغيّر، جزءًا جعله يأخذ جثة العجوز معه إلى منزله".

"الأمر أشبه بالنداء المُلِّح. أليس كذلك؟".

أومأ برأسه.

"صحيح. نداء لا يمكن مقاومته".

"وكيف عرفتَ أنت هذا؟".

قال بغموض:

"إلى الآن، أنا أحكي قصة".

"هي قصة بالفعل، لكن هذا لا ينفي أنها قصة حقيقية".

"دعينا لا نستبق الأحداث".

"أكمل إذن".

قال كريم الباجوري:

"النبَّاش كان يورد الجثث لبعض طلبة كلية الطب من أجل تشريحها. لكن هذا لم يمنع أن ينقل إليهم بعضًا من هذا الجزء الغامض بداخله، الجزء الذين يدين بالولاء للعجوز الثري، وطلبة الطب راحوا ينقلون بعضًا من كينونتهم هذه إلى بعض الأطباء، وهكذا بمرور الوقت راحت الدائرة تتسع وتكبر، وصار للعجوز جماعة أو طائفة من خادميه ومريديه".

"وهل العجوز ميت بالفعل؟".

"سؤال ذكي. ماذا تظنين؟".

قالت سارة بهدوء:

"أعتقد أنه لم يمت، لكن ابتلاعه لمادة الحجر الأصفر قد أوقفتْ عملياته الحيوية، وجعلته أشبه بالميت، لكن عقله ومشاعره وكينونته ما زالت حية، وبالتالي فهو ليس ميتًا".

صفق بإعجاب:

"برافو! كيف عرفتِ هذا؟".

قالت:

"أكمل قصتك. ماذا فعلتَ بعد ذلك يا عزت؟".

توقف مبهوتًا، ونظر إليها صامتًا لعدة دقائق. قالت ساخرة:

"ألستُ أتحدثُ إلى عزت شعبان، زوج الحاجة نيَّرة؟ إنه الرجل الذي يقبع وراء الستارة ويحرككم كالعرائس، إنه من يتكلم الآن، أو على الأقل من يوحي لكم بالكلام".

قال كريم ببطء:

"يبدو أني كنتُ أقلل من قدرك يا سارة".

"تبدو الأمور واضحة الآن؛ بعد أن ربطتُ بين الواقع، وبين ما حدث في ذلك الحلم المعقد. طبعًا أنت تبحث عن علاج لابنك سامي، لكن بشكل ما تظن أن لديِّ سر هذا العلاج. هذا ما تقصده بالسرِّ المخبأ أمام الأعين. السرُّ المخبأ بعقلي أنا. لكن لا أريد أن أحبطك. أنا لا أعرف أية علاجات لحالة ابنك سامي".

ابتسم كريم، أو عزت في الحقيقة:

"من قال أنكِ لا تعرفين؟".

"لو كنتُ أعرف كنتُ أخبرتك به. هل تظن أني سأسعد بموت ولدك؟ لقد أخبرتُ الدكتور هيثم الذي يقف خلفك الآن بنفس المعلومة من قبل، عندما سألني إن كنتُ أعرف سبب عدم تهديد هذا السرطان لحياتي".

"لكنكِ تعرفين بالفعل. بعد الحادثة التي تعرضتِ لها، وإدخالكِ للمستشفى، قام الدكتور هيثم بكشف شامل عليكِ، ووجد أن مخكِ به نفس السرطان الغامض الذي ينهش في رأس ابني، لكن العجيب أن السرطان لا ينشط. هو موجود بالفعل، لكنه خامل ولا يتمدد. حاولتُ أن أعرف شيئًا عنك؛ فلم أجد الكثير. زوجكِ أو طليقكِ محسن يُقال بأنه قد تزوج واختفى، والداكِ تُوفِّيا، مريم تقاطعكِ، لكن هذا لم يمنع أن أنقل إليها جزءًا مني، بحيث ترعاكِ وتهتم بكِ، كما فعلتُ مع الدكتور هيثم وآخرين".

لم تنطق سارة بكلمة. فقط راحت تستمع. أخيراً تُزاح الستائر السوداء عن تلك الألغاز المحيطة بها. أكمل عزت شعبان:

" بعد أن عدتِ للعالم، كان عليَّ أن أقوم بإضعاف ثقتك بعقلك؛ لهذا صنعتُ قصة "آكل الخطائين" التي لها أصل تراثي بالمناسبة. العجوز يظهر أمامكِ، لكن مريم

تقول لكِ أنكِ تخرفين. تظهر فتحية؛ فتظنينها آكل الخطائين متنكرة، بينما هي حية تُرزق. لكن فتحية لم تكن من أوائل جنودي. كانت موظفة عادية في المستشفى، لكنها اكتسبت أهمية بسبب كلامها المستمر معك. وهكذا كانت تسير في الشارع متجهة لمنزلها، عندما هجم عليها هيثم، ونقل إليها جزءًا من كينونتى، وحتى من نقلوا لكِ خبر موتها المزعوم يعملون لحسابي، إنهم مني، امتداد لكينونتي، أنا عزت شعبان".

"وما الذي ستكسبه من إضعاف عقلي؟".

"كنتُ أخشى أن ألمسكِ؛ وأنقل إليكِ جزءًا منى، وينشط السرطان مجددًا، أو يمكن أن أعجِّل بموتكِ دون قصد. كانت خطوة غير محسوبة، وبالتالي كان عليَّ أن ألعب بحذر، وأُمهّد للخطوة الأولى، من خلال هذا الفيلم الذي أستحق عليه الأوسكار. لا بد أن يكون عقلك ضعيفًا مستسلمًا حتى أخترقه ويتقبلني، لكن خطتي فشلتْ في المقبرة. جسدك يعمل بكفاءة، لكن عقلك في مكان آخر. وأتي واحد من رجالى بمقالة عن هذا المدعو نديم شوكت؛ فقمتُ باستئجاره، ونجح بالفعل في مهمته، وأعادكِ للواقع، كنتِ مشتتة، متعبة، عقلكِ ضعيف، أفكارك غير واضحة، وهنا أتي الجزء الأول من الخطة، الجزء الذي يجب فيه أن تكوني عبدة لي، بمجرد أن ألمس رأسك، حتى لو أضطرني هذا لأن أجعل السرطان ينشط في جمجمتك".

"هذا ما تفعله إذن عندما تنقل جزءًا من كينتوتك إلى أحد؟".

"صحيح. هذا الحجر يعطيني قدرة غرس الوهم في الرءوس. لمسة واحدة من يدي تجعل الشخص تحت سيطرتي، حينما أريد أن أجعله يرى رؤية وهمية كلية كما حدث معكِ منذ قليل. لكن الحجر هو من يقوم بهذه المهمة. إنها عملية معقدة، يستطيع من خلالها الحجر أن يتواصل مع ذكريات الضحية، ويحولها إلى حلم معقد ملآن بالتفاصيل".

ما زالت سارة تشعر بأنها منهكة. انتظمت أنفاسها بعض الشيء، وهي تقول:

"منذ قليل؟ كل هذا منذ قليل؟ حسبته دهرًا كاملاً".

هز كتفيه:

"الزمن نسبي، مثلما تحلمين بأنك عشتِ سنين، ثم تستيقظين بعد دقيقة، أو تنامين للصباح وتحلمين بمشهد واحد. كما أخبرتكِ أنه نسبي. في عالمنا هذا الزمن نسبي في تعامله معنا. آينشتاين عندما سئل عن أبسط تفسير للنسبية، قال:

بأن الزمن يمرُّ سريعًا مع من نحبه، ويمرُّ بطيئا مع من نكرهه. لمسة واحدة منى يكونوا عبيدًا لي".

وتنهد:

"وأنتِ الوحيدة التي رفضتْ العالم الساحر الذي صنعه الحجر لها".

"لم يعد حجرًا. إنه مختلط بجسدك المتحجر. أعنى الجسد الأصلى بالطبع. أين هو بالمناسبة؟".

قال بخبث:

"في مكانٍ أمين؟".

ثم سألها بفضول:

"كيف عرفتِ أن ما ترينه عبارة عن حلم مُلَفَّق؟".

أشارتْ إلى الثقوب الموجودة بالجدران، والتي يتسرب منها الهواء البارد:

"بسبب هذه الثقوب".

نظرة حيرة على وجهه. أسعدها أن تري الغباء على وجهه. قالت:

"في أول ليلة لي في ذلك العالم المصطنع كنتُ مدثرة بالأغطية، ومع ذلك كان الهواء البارد يضرب وجهي، برغم أن النوافذ مغلقة في ذلك العالم. معني هذا أن الهواء البارد يأتي من مكان آخر حقيقي".

وأشارت للثقوب المحيطة به:

"هذه الثقوب".

صفق مرة أخرى:

"عبقرية!".

"لكن عبقريتكِ هذه لن تفيدك. لقد كان لعقلكِ قفلٌ وقد قمتُ بكسره، وأنتِ وما يحتويه عقلكِ لي. سوف أعرف كل شيء الآن".

وانقضَّ عليها بسرعة رهيبة، ووضع يديه حول رأسها.

"والآن، أريد رؤية ما رأيته هناك. لقد شعرتُ بأن نور الحقيقة قد ومض بعقلك، وحان الوقت لكي أراه أنا أيضا".

فى تلك المرة لم تكن سارة تمانع أن يضع يديه حول رأسها. قالت:

" أنا أيضًا أريد ان أعرف؛ مما أهرب بالضبط؟ ما الذي حدث لي قبل الحادث".

"استسلمي إذن، وسنرى معًا ما حدث".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فور أن لامست يدا كريم رأسها، محيطًا إياه بكلتا راحتيه؛ حتى انبثق نور وسط العتمة بعقلها، وانبعثت الذكرى المطمورة من الرماد وأمكنها أن ترى نفسها، في شريط من الذكريات يُعاد من جديد، نعم، كانت تقف فى المطبخ تُعِدُّ الطعام. أتاها صوته المبتهج:

"لقد أتيتُ يا حبيبتي".

ابتسمتْ وهي تُطلُّ عليه من المطبخ. كان محسن زوجها يخلع عنه معطفه، ويقول لها:

"المطر يملأ الشوارع. إنه شتاء قاسٍ هذه السنة. يُقال بأن شبكة الكهرباء تواجه مشاكل ما، حتى أن المستشفى القريبة انطفأت الكهرباء عن أجزاء منها. تخيلي الكارثة".

هزت رأسها:

"يا لها من ليلة!".

ثم قالت بعناد الأطفال:

"لكني ما زلتُ أحب الشتاء".

ضحك:

"بالطبع تحبينه".

كان يحمل حقيبة صغيرة في يده أثارت فضولها.

"ما الذي يوجد في الحقيبة؟".

ابتسم بمكر:

"مفاجأة".

التمعتْ في عينيها نظرة تساؤل. قال بحماس:

"اتركي الطعام الآن، وتعالي إلى هنا".

مسحتْ يديها في منشفة نظيفة، ثم توجهت إليه وجلست بجواره وهي ترمقه بفضول. فتح الحقيبة ببطء، وكأنه يقوم بتشويقها، ثم أخرج منها علبة جعلها تقول:

"هل يوجد في العلبة فيل؟".

ابتسم دون أن يُعلق، ثم فتح العلبة وأخرج منها حجرًا أصفر برَاقًا. قالت مبهورة:

"هل هذا حجر كريم؟".

تحسس الحجر بافتتان:

"إنه حجر غريب. أشعر معه بشعور لا يمكن وصفه".

مدت يدها لكى تلمسه، لكنها أبعد يده عنها بسرعة، وهو يرمقها بنظرة شرسة جعلت قلبها يرتجف بين ضلوعها. قالت برهبة:

"مالك يا محسن؟ هل أنت بخير؟".

ابتسم، وكأنه لم يتصرف ها التصرُّف الغريب منذ لحظات:

"أنا في أحسن أحوالي. أشعر بعافية وبال رائق وصفاء ذهني غير عادي".

رمقت وجهه بقلق:

"هل أنت واثق من أنك تشعر بهذا؟".

"بدون شك".

قالها بذات الحماس. كانت ثمة فكرة مقلقة تجول بخاطرها. وكان عليها أن تتأكد من صحتها. مدت يدها مجددًا إلى الحجر؛ فإذا نفس التعبير الشرس على وجهه، وكأنه يهمُّ بالفتك بها. ابتلعتْ ريقها والتزمتْ الصمت، وراحت تراقبه وهو يتحسس الحجر ويمسح سطحه بمنديل رقيق من القماش بعناية بالغة.

ما هو هذا الحجر، وكيف حصل عليه؟ تتذكر كيف تقابلتْ مع محسن في قصر الثقافة، وكيف بهرتها موسوعيته، حتى أنه يهتم بشكل خاص بالكتب التى تتحدث عن الخوارق والظواهر الغامضة.

هل يكون هذا الحجر من ضمن هذه الأشياء التي لا تجعلها تشعر بالراحة؟ تناولا طعام العشاء، وسألته من أين أتى بهذا الحجر، لكن نفس النظرة المفتتنة في عينيه، جعلتها لا تنتظر جوابًا.

ثم أويا للفراش، والعجيب أنه احتضن الحجر حرفيًا، وكأنه لا يطيق الابتعاد عنه. لاحظتْ في الأيام التالية أنه يشرد كثيرًا، وأن عينيه تلمعان وهو يحدّق في

الحجر، حيث يقضي وقته كله ينظر إليه، وكأنه يُدير حوارًا معه.

طبعًا هي تعرف بأن الحجر مجرد حجر، لكن هذا ما خطر لها، وهي تراقب تصرفات زوجها بعناية بالغة كأن عقله في مكان آخر. بعد مرور أسبوع ساءت حالته أكثر، ولأول مرة بدأت تخاف منه. كم من مرة وجدته يقترب منها، وهو يريد أن يلمس رأسها؛ فكانت تتراجع للخلف برهبة؛ فيعضُّ شفتيه ويتراجع، وكأنه يقاوم هذا الفعل.

كانت تودُّ لو أنها تُكلِّم والديها، لكنهما في خصام معها؛ منذ أن تزوجتْ من محسن؛ إذ لم يوافقا على زواجها منه، وحجتهما أنه" غيرُ مُريح"، وهو ما اعتبرته حجر عثرة في طريق سعادتها، وتعسُّفًا متوقعًا منهما؛ فمنذ متى كانا ينصفانها، أو يعاملانها بحب، وبالتالي فقد أصرَّت عليه، وتزوجته، وبرغم عدم موافقة والديها على الزواج منه، إلا أنهما حضرا الزفاف، وقابلا الحاضرين، ورسما ابتسامة سعادة على شفتيها، لكن فور انقضاء حفل الزفاف، غادرا الحفل وحياتها دون كلمة.

لكمْ تمنت لو كانا يعاملانها كما كانا يعاملان شقيقها الراحل جبريل. عندما يخطر اسم جبريل بذهنها، تحاول محو الاسم وصاحبه سريعًا؛ فبرغم رحيله، إلا أن الشعور بالذنب يقتلها، وتودُّ لو أنها تتخلص منه ذات يوم.

كانت غارقة في أفكارها وذكرياتها، ولم تشعر إلا بيدين تحيطان برأسها، وتضغطان على مؤخرة عنقها؛ فصرختْ.

كانت الصرخة عالية، وشعرتْ كما لو كانت تقف على قمة جبل تتصاعد من أسفله نيران هائلة، تتجه إليها بتصميم، وتهمُّ بلفحها، وربما جذْبِها لأسفل. سقطتْ أرضًا وهي تئن، وأمكنها أن ترى محسن، حبيبها وزوجها، والرجل الذي حاربت أسرتها من أجله، وهو ينحنى نحوها، وبرغم أنها تعرف ملامحه جيدًا، وتحفظها عن ظهر قلب، وتعشقها أيضًا، لكنها- في تلك اللحظة بالذات- شعرتْ ببشاعةٍ ما في ملامحه، كأنه لن يتوانى عن تقطيعها إربًا لو أراد.

"محسن، ماذا دهاك؟! هل جننت؟".

الحقيقة أن الألم ما زال يعتصر رأسها، لكنه اقترب منها ببطء؛ مما جعلها تقاوم وتنهض، ولأنه يسدُّ الطريق عليها، لم يكن أمامها سوى الشرفة. كانت شقتها في الطابق الثالث بعد الأرضي، في عمارة راقية في وسط البلد بالمدينة. لكنها تقع في شارع جانبي هاديء جدًا؛ وكانت الأمطار تهطل بغزارة.

حاولتْ الصراخ؛ فلم تستطع وكأن حنجرتها قد تجمدتْ. اقترب منها وهو يمدُّ إليها يديه، وهو يمسح شفتيه بلسانه؛ وكأنه وحش كاسر. استندتْ لسور الشرفة

القصير، وهي ذاهلة وخائفة وتشعر بقلة الحيلة. اقترب منها أكثر؛ فتراجعت برأسها للخلف، وهي تترجاه بأن يتوقف، وأنها زوجته وحبيبته، لكن لا مجيب.

اختل توازنها بسبب وزنها الزائد، ووجدت نفسها تندفع للخلف وتهوى من الشرفة، لكنها تمسكت بقائم معدني بصعوبة بالغة، وقطرات المطر تنزلق على يديها وجسدها. صرخت في تلك اللحظة، وكانت صرخة عالية، لكن مع صوت المطر العالي ضاعت صرختها. اقترب منها وهو يهمُّ بوضع يديه حول رأسها ثانية، ولأنها تعرف ماذا سيحدث عندما يلمسها مجددًا؛ إذ أن مرأى جبل النار لم ينمح من ذهنها بعد.

اقتربتْ أصابعه المتلهفة من رأسها، وهنا استسلمت وتركت جسدها يسقط حُرًّا. قطرات المطرات ترتطم بجسها وتغرقها وهي تهوى أرضًا، قبل أن ترتطم هي نفسها بالأرض. لا بد أنها غابت عن وعيها؛ لأنها عندما بدأت تفيق كانت هناك ممدة على الأرض. الدم ينزّ من مؤخرة عنقها. غيبوبة عنيفة تهاجم عقلها. لكن الغريب أنها كانت في بقعة بعيدة عن تلك البقعة المفترض أنا سقطت فيها، بل كانت في شارع جانبي بعيد نوعًا.

هل جرَّها أحدهم إلى ذلك الشارع؟

كانت تعرف بأنها تموت. للأسف كان الشارع من طبيعته أن يكون خاليًا في تلك الساعة، ومع نزول الأمطار كان من المستحيل أن ينزل مخلوق في هذا الطقس القاسي لينقذها. أغمضتْ عينيها، وتقبلتْ الموت القادم.

وبرغم تعبها وألمها وروحها التي تنسحب ببطء من جسدها؛ إلا أنها سمعت تلك الخطوات التي تقترب منها. بآخر طاقة واهنة في جسدها فتحت عينيها؛ فلمحتْ رجلا يرتدي عباءة، ويضع قنسوة على ملامحه؛ بحيث لا يظهر منه شيء، وكأنه رجل بلا وجه. نعم، إنها تسمية مناسبة جدًا له. لو نجت من الموت؛ فسوف تسميه كذلك. مد الرجل الغامض يديه نحوها، وقال لها بصوت عميق قادم من بئر عميقة:

"لقد تسبب زوجكِ في إصابتك بسرطان قاتل يا سارة، بدأ في السريان في عقلك فور أن لمسكِ بلمسة الهلاك، لكني سأوجل أثره المميت أطول وقت ممكن. سأكونُ حاميكِ يا سارة إلى حين؛ فلا تعرفي كم أنتِ مهمة فيما هو آت".

ثم انتصر العدم على الوجود، ودخلت غيبوبتها التي ستطول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل هذه هي دموع التي تسيل على وجنتيها؟

تراجع كريم الباجوري للخلف، وهو يترك رأسها، وقال بارتباكٍ غير معهود:

"إذن فزوجكِ هو المتسبب في لمسكِ، وإصابتكِ بذلك السرطان الغامض، لكن الرجل الذي لا وجه له هو منْ جعله خاملًا! هو السبب الذي جعلني لا أقدر على السيطرة على عقلكِ عندما هاجمتكِ من خلال الممرضة التي رافقتكِ للحمام! هو من جعلني ألجأ لهذه الخطة المعقدة حتى أُضعِف عقلك، وأدمر دفاعاته؛ بحيث أقدر على وضعكِ في هذا الحلم المعقد! لكن من هو؟ كيف لي أن أقابله حتى أعرف منه ذلك السرّ الذي يجعلني أنقذ حياة ولدي سامي من الموت".

قالت سارة وهي تلهث:

"إذن فاستنتاجي صحيح؛ كل هذا فعلته من أجل سامي إذن، كل الضحايا الذين سقطوا بسببك، والحيوات التي تحطمت كانت من أجل أن تبحث عن علاج له؟".

قال بغلظة:

"بدون شك".

"لكنك تضحك على نفسك أيضًا. أنت مستمتع بما تفعله، تظن أنك قد غلبت الموت وهزمته. أليس كذلك؟".

ابتسامة شيطانية ارتسمت على وجهه. استجمعتْ سارة كل قوتها، وقفزت فجأة بحركة مباغتة بقدر المستطاع ناحية السلم الخشبي للقبو.

"لا تحاولي الهروب. مصيركِ معروف، وحياتك ستنتهي على يدي. اسستسلمي بدلا من أن تقاسي من صنوف العذاب".

أتاها صوته، لكنها وثبتْ عبر درجات السلم لأعلى، وتجاوزت باب القبو، ثم أغلقته خفلها ووضعت المزلاج بالخارج. لا بد أن تُعطّل عزت شعبان أطول فترة ممكنة.

ثم توجهت للسلم حتى تطمئن على نديم. كان نديم على مقعده، تتحرك عيناه وأصابعه قليلا.

أشار للنافذة بدون أن ينطق بكلمة. كانت النافذة مفتوحة، لكن يستحيل أن تقفز منها؛ إذ أن حجرتها في الطابق الثالث. تتذكر أن ثمة شجرة مانجو عملاقة تصل إلى سطح الفيلا، لطالما رأتها من نافذتها وهي مغيّبة، لكن المشهد تسلل إلى وعيها، وأبرز عن نفسه الآن، وكأنه يقدم لها يد المساعدة. نظرتْ من النافذة؛ فوجدت أن الشجرة يمكن النزول عليها من السطح، لكن يصعب هذا من مكانها في تلك اللحظة.

خطر لها أن تنزل لأسفل وترى أقرب نقطة للأرض من حجرات الطابقين الأول والثاني بعد الأرضي، لكن كريم الذي يأتي من أسفل والشراسة على وجهه؛ جعلها تتجه للسطح مضطرة.

تمنت لو كان سطح الفيلا يسمح لها بحرية المناورة، أو حتى أن تجد نقطة ما تطل على الحديقة تسمح لها بالإفلات عن طريق شجرة المانجو العملاقة.

دفعت باب السطح كل ما وجدته كان هو الخلاء. سطح مربع متسع على جوانبه أصص الزهور، وشجيرات الزينة، لكنه رغم رحابته هذه؛ إلا أنه قد بدا لها مصيدة مثالية وقعت فيها دون قصد. بحثت عن فرع تتسلقه، لكنها لم تجد للأسف. لقد تم تقليم فروع الشجرة، بحيث لا تصل للسطح على الإطلاق.

انتبهت إلى أن ثمة رائحة كريهة تنبعث في اجلو، رائحة لا تُطاق، ولولا أصص الأزهار التي خففت قليلًا من أثرها المروّع؛ فلربما فقدت ويعها.

وضعت يدها على أنفها، وهي تحاول حجب الرائحة بقدر المستطاع.

نظرتْ لباب السطح حيث كان يعبر من خلاله كريم وهو يخطو ببطء:

"أين تذهبين؟".

دارت في السطح بينما هو يتابعها ببصره. ثم توقف بصرها عند شيء عجيب؛ تمثال بالحجم الطبيعي يمثل رجلًا خُيّل إليها أنها رأته من قبل. تمثال، في سقيفة من الخشب المزدان بتعريشة عنب، وبدا مهيبًا مخيفًا، برغم نحوله، كأنه شخص هزيل مريض.

لكن أين رأته من قبل؟

قفزت ذكرى من الحلم المعقد الذي صنعه كريم الباجوري- أو عزت شعبان على وجه الدقة- عندما رأت صورة هذا الأخير على لوحة عملاقة بفيلا نيِّرة، بجسده الضخم، وبشرته السمراء، وقوامه الممشوق. لا بد أن هذا التمثال يمثله عندما كان مريضًا، لكن لماذا؟

كان التمثال متقنًا لدرجة يحسبه الرائي أنه هو عزت شعبان نفسه. وكان التمثال عند حافة السطح نفسه، حيث ما يقبع وراءه هو الفراغ فحسب. تأملته برهبة والحقيقة تُعلن عن نفسها واضحة مسفرة.

تمتمت:

"إذن فهو أنت!".

كل النسخ التي قابلتها من عزت شعبان مجرد نسخ مشوهة وهمية، كانت تُقاد ويتم السيطرة عليها، بينما عزت الحقيقي كان يقبع بأمان هناك، فوق السطح.

لقد كان هذا هو الثمن الذي دفعه عزت؛ أن يتحول جسده لتمثال ما يشبه العقيق الأصفر. ربما كانت أجهزته تعمل لكنه متصلب، صحيح أنه سجين جسده، لكنه يتحرك من خلال عقله، ومن خلال النسخ التي لا يكف عن صنعها والسيطرة عليها من البشر التعساء.

في تلك اللحظة عرفت مصدر الرائحة: التمثال، لهذا قام كريم بنشر معطّرات الجو القوية في كل ركن في الفيلا، في محاولة منه لحجب تلك الرائحة البشعة. هل تعفن جسده، برغم تحوله لتمثال؟

كيف يمكن أن يتعفن ويُصدر تلك الرائحة، وفي نفس الوقت يشبه العقيق الأصفر؟

وجدت نفسها تقول بصوت عالٍ إلى عزت:

"اعتقد أنك الآن قد عرفت حقيقتك يا عزت. أنت مجرد إنسان ضعيف أحمق، ظن بأنه يعرف كل شيء، ويتحكم في كل شيء، ويجذب خيوط الماريونيت، لكنك اكتشفت أخيرا أنك مفعول به وليس فاعلًا".

قال كريم بغلظة، ومن خلفه في الحقيقة هو عزت شعبان:

"ماذا تعنين؟".

"لا تتظاهر بالغباء. أنت تعرف ماذا أقصد. لقد رأيتَ ما رأيته، سمعتَ ما سمعته. أنت تشعر بالخوف والرعب. هناك من يتفوق عليك، هناك من هو قادر على التلاعب بك وتدميرك. أعني الرجل الذي لا وجه له".

"اخرسي".

"ولمَ أخرس؟ هل الحقيقة تؤلمك؟ ما أنت إلا مجرد طفل صغير مزعج غير مسئول، عنده قدرة خارقة أصابت عقله بالجنون، وجعلته يظن نفسه إلها صغيرًا".

قال بغضب:

"لستُ مفعولا به. أنا الأقوى والأغني. لقد تلاعبتُ بك وبالجميع. أخذتُ ثرواتهم واستغللتُ معارفهم، وصاروا خدمًا لي".

قالت بسرعة:

"مقابل أن يتجمد جسدك وتصيرا تمثالا".

توقف بغتة؛ مما أكد لها بأنها محقة. نعم، هذا هو جسد عزت شعبان الحقيقي.

قالت:

"ربما تعرف الآن أني لستُ غبية بعد كل شيء".

واقتربت من حافة السطح بالفعل، حيث كان القمر مكتملا، والمدينة تتبدي أمامها.

لكن كريم وثب نحوها وثبة قوية مرنة طويلة عبر بها قرابة المترين، وهو يمسكها بغلظة:

"إياكِ".

ومد يديه حتى يمسك رأسها:

"منذ بداية هذا الأمر لما أُطلق كل قواي، لم أستجلب كل إمكانيات لمسة الهلاك؛ لأني كنتُ أريد أجسادًا فتّية، وعقولًا محطمة. لكن معكِ سأقوم باستثناء. سأحولكِ لكومة تراب".

وبدأت عيناه تتوهجان بلون أبيض مصفر، وصارتا كما لو كانتا أشبه بشمسين صغيرتين؛ مما أنبأها بأن قدرته صارت في ذروتها الآن.

شعرتْ سارة بخوف جارف، لكنها وضعت يديها كحاجز لكي تمنعه من إمساك رأسها، وهى تقترب من حافة السطح، بالقرب من تمثاله، وثمة فكرة مجنونة تدور في ذهنها، تحتاج فقط لبعض المناورات الخفيفة وتحديد الوقت المناسب.

فعلت ذلك، ثم انزلقت فجأة لأسفل؛ لتطبق يدا كريم على رأس التمثال نفسه، و....

وأطلق كرم صرخة.. أو بمعنى أدق: عزت شعبان.

لقد أدرك أنه قد خُدع. لقد وضع كل طاقته في تمثاله هو، في جسده الأصلي، وكانت النتيجة أن ارتد السحر على الساحر، وأصابته لعنته.

وجه التمثال تحول لكتلة من اللون الأصفر، ثم تشقق وانهار في ثوان. بينما تهاوى كريم على الأرض فاقدًا لوعيه، وهو يلهث بصعوبة.

كل هذا حدث في خمس ثوان تقريبا. ومع انفجار التمثال؛ أصاب سارة الذعر، وبدون قصد التوت قدمها تحتها، ووجدت نفسها تندفع نحو الحافة، وتسقط.

لكني يديها تشبثتا بالإفريز. تتذكر أخيها، تتذكر الحادثة التي مرت بها. ما أشبه اليوم بالبارحة.

قاومت سارة، صممت ألا تسقط. إنها لا تريد الموت، بل تريد الحياة، حتى لو كان هنك موتُ ما يسرى في خلايا مخها. من العبث أن تصرخ. من العبث أن تطلب النجدة. كل ما عليها فعله هو أن تنقذ نفسها بنفسها؛ فهي تريد الحياة.

محسن زوجها تريد أن تعرف ما حلَّ به. هل تترك قصة حبها هكذا بدون أن تقاتل؟ على الأقل محسن فعل هذا بسبب مؤثر خارجي، بسبب ذلك الحجر الأصفر الملعون.

وماذا عن مريم ابنة خالتها. ألا تستحق منها قتالا آخر لتعيد المياه لمجاريها؟

لا، إنها لا تريد الرحيل.

لكنها كانت منهكة، وجسدها يطلق صفارات الإنذار. العرق يتصبب بين أصابع يديها برغم برودة الجو، وأوشكتْ على السقوط بالفعل.

لكن فجأة امتدت يدان أمسكت بيديها، وبشكل ما كانت تعرف من هو صاحبهما. ظهر لها وجه نديم وعروق وجهه تنفر هو الآخر، وهو يدفعها لأعلى حتى استلقيا على السطح.

قال من بين أسنانه بغيظ:

"أنتِ ثقيلة؟"

ضحكت بإنهاك:

"قبل أن أدخل الغيبوبة كان وزني ضعف هذا الوزن أيها الوقح. لقد فقدتُ الكثير من وزني في هذه الغيبوبة".

"ماذا فعلتِ مع كريم؟".

قالت ببساطة:

"لقد نال من ذات الكأس. يا لها من عدالة شعرية.".

حكت له ما حدث بجمل قصيرة؛ فهز رأسه متعجبًا.

"سامي! يا للغرابة! لقد كان أحد مرضاى من قبل".

شاركته دهشته هذه بهمهمة غير مفهومة. توجه نديم إلى كومة التراب التي تبقت من التمثال، ولمح تلك الكتلة الصفراء المتوهجة. تمتمتْ سارة بدهشة:

"لقد عاد الحجر مرة أخرى كتلة واحدة!".

أمسكه نديم بقطعة قماش سميكة ووضعه في جيبه. نظرت إليه سارة بدهشة. قال مفسرًا:

"لا نريد أن يقع شيءٌ خطيرٌ مثل هذا الحجر في يد أحمق آخر".

أومأتْ برأسها. اطمئنا على كريم الفاقد لوعيه. لا بأس. سيعيش.

هبطا لأسفل، وقالت وهي تستند على درابزين السلم بصعوبة من التعب:

"ماذا سنفعل؟".

"سنتأكد من موضوع ذلك السرطان الذي يسرى في مخك".

اربدَّ وجهها، وكأنه ذكرها بما كانت تحب أن تنساه. قال مواسيًا:

"لا يوجد شيء مؤكد. المفترض أن ما مررنا به يؤكد أنه من الممكن أن نجد حلا لو صدق ذلك اللعين في قوله".

نظرت إليه بحيرة:

"لماذا تساعدني؟".

ابتسم بإنهاك. لم يجبها. أعطته نظرة امتنان، ثم وصلا للطابق الأرضي، وأسرعت هي إلى القبو حتى تطمئن على مريم والبقية.

توقف نديم أمام المرآة، وعدَّل هندامه، وهزَّ رأسه، وهو يبتسم بطرف فمه الأيسر.

فجأة تلاشي انعكاسه على المرآة، كأنه صورة من الغبار تفككت ذراتها، وحلت مكانها صورة انعكاس لرجل يرتدي عباءة، وملامح وجهه لا تظهر على الإطلاق، ومع ذلك فقد بدا أن الانعكاس يفعل مثل صاحبه الأصلي وهو يبتسم بطرف فمه الأيسر أيضًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب الأول بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أخبرني برأيك على صفحة الرواية بالجودريدز: هنا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رابط مجموعتي على الجودريدز؛ لمتابعة الروايات الجديدة: هنا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمتابعة الكتب الستة المتبقية من السلسلة على قناتي على تليجرام: هنا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

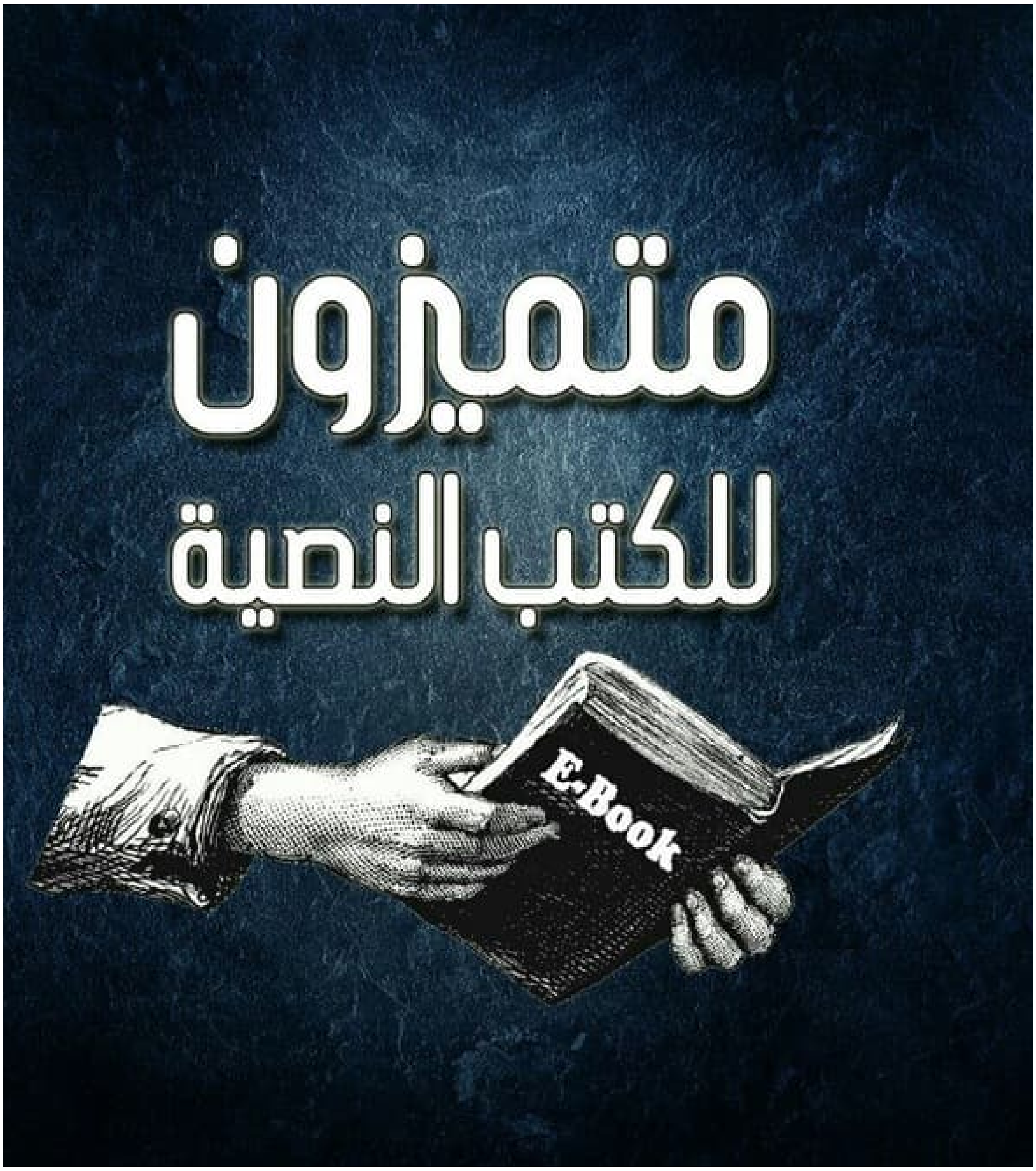
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
تنويه أول:
مقدمة
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
خاتمة
الفهرس..